نصوص

من أدب عصر الحروب الصليبية

- دراسة وتحليل -

دراسات في الأدب الإسلامي ونقده

(٥)

نصوص

من أدب عصر الحروب الصليبية

- دراسة وتحليل -

الدكتور

عمر عبد الرحمن الساريسي

دار المنارة

للنشر

السعودية - جدة

الطبعة الأولى
١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

دار المنارة للنشر
السعودية - جدة
هاتف: ٦٦٠٣٢٣٨ - ٦٦٠٣٦٥٢ - تلكس: ٤٠٣٠٦٧ -
ص.ب: ١٢٥٠ / ٢١٤٣١

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحاجة لدراسة الأدب الإسلامي:

يحسّ الدّارس للأدب العربي، في عصوره المختلفة، أن أدب الدعوة إلى الله، منه، لم يتم الوقوف عليه والتعرّف إليه، ولا يجزىء من ذلك ما ينفقه طلبة الجامعات، في بلادنا، من دراسة لأدب عصر صدر الإسلام في مدّة لا تزيد على الفصل الدراسي الواحد، وقد تقل عنه؛ كما لا يُغني عنه، أيضاً، ما يكشف عمّا فيه من إلماعات إلى الإيمان بالله والاضطلاع بالجهاد في سبيله في بعض مواطن الصراع، بين الإيمان والكفر، في التأريخ الإسلامي الممتد وفي أمصاره الشاسعة الأطراف.

وغير خافٍ على أحد أن أدب الدعوة، على عدم تحققه في أذهان كثير من الدارسين، متميز عن غيره من ألوان الفكر المختلفة المنازع والاتجاهات التي تتوزع أدبنا العربي؛ ففي كل عصر من عصوره نجد أمثلة بيّنة الوضوح على ذلك؛ فإننا نجد الأدب الجادّ الذي يستشعر مسؤوليته التاريخية في حمل هموم الأمة وتراثها، ونجد الأدب الذي لا يهمّه إلا أن يلبّي نداءات فردية حرّة من كل قيد، لا تشبع إلا حاجات شخصية في شهوات الدنيا وملذاتها!

من هنا برزت الحاجة الماسّة إلى تخصيص دراسة لأدب الدعوة الإسلامية بمختلف مظاهرها، في عصور الأدب المتلاحقة، ومن هنا كانت تلبية كلية اللغة العربية في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة للدعوة بالمشاركة في ندوة الأدب الإسلامي المنعقدة في لكهنؤ بالهند عام

١٤٠١ هـ، ثم كان التنسيق بين هذه الكلية وبين مثيلتها في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية لتحديد مناهج دراسة الأدب الإسلامي، وكان بعد هذا كله ، أن انعقد مؤتمر الحوار حول الأدب الإسلامي ومناهج دراسته في هذه الكلية، في رجب عام ١٤٠٢ هـ الموافق لنيسان ـ إبريل ١٩٨٢ .وفيه حاول المؤتمرون، على مدى أسبوع من الزمان، أن يحددوا مفهوم الأدب الإسلامي واصطلاحاته ومقوماته الفنية والموضوعية، وأن يضربوا أمثلة واضحة منه، في عصور الأدب السياسية، وأن يبينوا موقفه المتميز من سائر فنون الأدب العربي ومن فنون الأدب الوافد من شرق ومن غرب.

ولقد صحت عزائم القائمين على أمر الجامعة الإسلامية وكلية اللغة العربية على استحداث قسم للأدب الإسلامي في الكلية يضاف إلى قسميها: في اللغويات وفي الأدب؛ ولكن رُئِيَ أن هذا القسم ينبغي أن تسبقه مراحل تمهدُ له، فاكتُفي بأن يبدأ في تدريس مواد في الأدب الإسلامي لطلبة السنوات الأربع في الكلية، واستُحسن أن يطّلع طلبة السنة الأولى والثانية على نماذج ونصوص من هذا الأدب، يستطيعون بعدها أن يتابعوا الدراسة النظرية لمفهومه واصطلاحاته ومواقفه من ألوان الأدب الأخرى في السنتين الثالثة والرابعة، وكان أن عُيِّنَ لطلبة السنة الأولى أدب الفتوحات الإسلامية ولطلبة السنة الثانية أدب عصر الحروب الصليبية، ولقد دُرِّسَت هذه المواد، لأول مرة، في هذه الكلية في العام الدراسي ١٤٠٢ ـ ١٤٠٣ هـ، وكان نصيب طلاب السنة الثانية مذكرة في نحو من خمسين صفحة من أدب الجهاد في عصر الحروب الصليبية كانت هي نواة هذا البحث الذي منه هـذه السطور.

منهاج ونتائج:

هذا عن تطور فكرة تدريس مادة الأدب الإسلامي في بعض الجامعات في بلاد العرب والإسلام؛ أما عن هذا البحث، بوجه خاص، فربما أرى أنه تميز بأمور ينبغي إجلاؤها:

أولها ـ أنه آثر ملاحظة البُعد الاجتماعي في الأدب وتجاوبه مع الحياة

على التقسيم السياسي الذي اعتاد الباحثون أن يدرسوه من خلاله، فدرس أدب عصور الحروب الصليبية من تتبّع مراحلها وأهم أحداثها، لا من العهود السياسية التي عرفت في مجابهتها[1]، أو من الأشخاص الذين ارتبطت في أذهان الناس بذكرهم[2]، فأحرى بالأدب أن يدوّن جهاد المسلمين كلما هبّت عليهم رياح الغزو والعدوان وأن يرصد لآمالهم في بلوغ الأهداف لدى كل نصر، لا أن يدور في فلك العهود أو الأفراد.

وإذا استطاع أن يعايش البيئة المحيطة به ويحتفظ بها في ذاكرته فبحسبه أن يصبح مصدراً لا غناء عنه من مصادر دراسة الحياة والأحياء، ومن هنا نبعت مزية البحث الثانية ـ وهي استنطاق النصوص الأدبية لفهم حياة الناس فى هذه العصور. وربما كان هذا المنهاج صالحاً، إلى حدٍّ كبير، لدراسة العصور والبيئات، أَوَليس الأدب نتاج الفكر؟ وَأَلَيْسَ الفكر رمزاً لمنهاج الحياة؟.

لذا، فإن البحث قد حشد لكل مرحلة مجموعة من النصوص الشعرية تضاف إلى نصوص من الخطابة والرسائل، لتؤلف الصورة الأدبية العامة للحياة وفي كل مرحلة من هذا العصر.

الثالث ـ أنه حاول جاهداً أن يدافع عن أدب هذا العصر، لما رأى في كثير من كتب التأريخ الأدبي من رَمْيٍ له بالعناية بالصنعة اللفظية والبديعية عناية يقال إنها تذهب بالمعنى وبالمستوى الفني معاً!.

لقد حاول البحث أن يدفع هذه التهمة بما رأى، أولاً، أنها لا تطبع جميع أدباء العصر بطابعها الخاص، وأنها، ثانياً، ليست ملتزمة تماماً في كل

---

(١) فقد خصّص عز الدين بن الأثير (٦٣٠هـ) كتاباً للتأريخ للدولة الأتابكية، ومنه ندرس الأدب المعاصر لهم، وخصص الدكتور محمد زغلول سلام كتاباً للأدب في العصر الأيوبي وآخر للعصر المملوكي، وثمة بحثٌ يدور حول الأدب في عصر الغزو المغولي للسيد مأمون جرار.

(٢) يكاد كتاب الدكتور عبد اللطيف حمزة في أدب الحروب الصليبية يدور حول شخصيات عماد الدين زنكي ونور الدين وصلاح الدين. بينما تركزت أقسام بحثنا هذا على مراحل الحروب الصليبية من هجوم وغزو أولاً ومن معارك الجهاد والتحرير ثانياً ومن لحظات الثبات والتطهير ثالثاً.

الإنتاج الأدبي لدى بعض المغرمين بها، وأنها، ثالثاً، مفقودة تماماً في أدب بعض الأدباء من هذا العصر نفسه، وأنها، رابعاً، إذا وُجدت، فلا تطغى على جوانب الفكر والفن إلا لدى نفر قليل من المتأدبين!!.

بل إننا نجد، على الضد من ذلك، لدى بعض الأدباء المشاهير من المتهمين بهذه التهمة، مجموعة من عناصر الالتزام والإجادة في الفن وفي الصدق والواقعية في الفكر، ما يستحق ما دعا إليه البحث من قراءة جديدة، على أسس من الكشف عن معالم الفكر الملتزم بهموم الأمة وتراثها لبعض هؤلاء الأدباء مثل القاضي الفاضل، مثلاً!.

الرابع - أنه ميّز، في أدب هذا العصر، بين لونين مختلفين، كل الاختلاف، من الموضوعات الأدبية المطروقة فيه، وهذا من توابع الدفاع عن هذا الأدب ومحاولة توضيح دوره وأثره.

لقد وجد أن هذه الموضوعات إما أن تكون ذاتية الاتجاه فردية المنازع كالغزل والمدح والهجاء والوصف والرثاء وغيرها من الميادين التقليدية المطروقة، وإما أن تكون انعكاساً للأحداث التي هبّت على البيئة الزمانية والمكانية والسياسية وأعني لأحداث الحروب الصليبية.

وربما استكمل البحث، في هذا الصدد أيضاً ما يرى من واجب الدفاع عن هذا الأدب. فأكثر ما يتهم به الأدب من صنعة وضحالة معانٍ هو أدب الأفراد وما يمكن أن يكون فيه من حرية اللعب بالألفاظ وإظهار الاقتدار على اللغة؛ أما أدب الأحداث التي أيقظت كل نائم، كما يقول أحد شعرائهم، فإنه لا بدّ أن يلبّي داعي الواجب الملتزم بالفكر الإسلامي تنبهاً وإيقاظاً ودعوة، وهذا ما أسماه البحث، في أحيان كثيرة، أدب البيئة تمييزاً له عن الأدب الذاتي.

الخامس - إن البحث أشار في مواطن كثيرة، للعلاقة الحميمة بين أدب البيئة هذا وبين الفكر الإسلامي.

فلقد شاع في هذا الأدب، بمختلف مراحله، مقارنة دقيقة بين ما

يحمل المدافعون من دين الإسلام دين الإيمان بالله الواحد الأحد، وبين ما يُدين به المهاجمون النصارى من الشرك بالله وعدم الإقرار بوحدانيته تعالى. وشاع فيه، أيضاً، مدى خضوع المسلم في إسلامه لربه، في أفعاله وفي أقواله، وفي انتصاراته على الأعداء، كما شاعت في الدعوة إلى الجهاد، في ربوع العالم الإسلامي كله، لا في بلاد الشام ومصر وحدهما. وكان واضحاً، في هذا كله، أن الدوافع دينية وليست وطنية إقليمية جغرافية. فلقد استنجد الخليفة الفاطمي العاضد، في مصر، بنور الدين زنكي، في بلاد الشام، على ما ثار في بلاده من فتن داخلية وعلى ما يهدده من تعاون أهل الفتنة مع الفرنجة الطامعين في السواحل المصرية، فأنجده نور الدين بما يكفيه من عدّة وعتاد وجيوش على ما بين الفريقين من اختلافات مذهبية بين أهل السنّة والشيعة! وحينما كان صلاح الدين يرى ضرورة تجميع القوى الإسلامية لمقاتلة الفرنجة المعتدين كان يبلغ بذلك جميع الأقطار الإسلامية: في مركز الخلافة في بغداد، وفي بلاد المغرب، وفي اليمن ومصر وغيرها.

السادس - إن هذه النصوص لم تستدبر كلها الأحداث استدباراً فتتحدث عن أثرها على نفوس الناس فحسب، ولكنها كثيراً ما تهيء للأحداث وتوحي بها، فدورها لم يكن تسجيلياً فقط ولكنها كانت تضطلع بدور الأديب وتميزه بين الأمة بالإحساس الذي يسبق به سائر أفرادها. فلطالما استصرخ الأبيوردي الشاعر وسواه هِمم القاعدين عن الجهاد، ولطالما أشار ابن القيسراني وغيره بتحرير القدس كلما هَنَّأ بنصرٍ قبلها، كما أن خطبة القدس، بعد تحريرها، قد تضمنت لفت انتباه صلاح الدين، ومَن معه، لوجوب استكمال تحرير سائر الأراضي المقدسة.

ومع إدراك البحث لدور الأدب الريادي هذا إلَّا أنه انصبَّ في معظمه على رصد أثر الأحداث على النفوس.

أقسام البحث

أما عن ترتيب أقسامه فقد وقع في ثلاثة أبواب تسبقها مقدمة وتنهيها خاتمة.

أما المقدمة ففي تاريخ الحروب الصليبية لكشف أهدافها ومراحلها وأهم أحداثها ومراميها، في القديم وفي الحديث.

أما الباب الأول فلقد استنفد أغلب صفحات البحث، فهو فيه الجسم الأساسي، إذ استغرق مراحل هذه الحروب الثلاث، وعرض لنصوص شعرية ونثرية فيها، ثم استخلص منها الحالة النفسية والفكرية للمسلمين في كلٍّ من هذه المراحل، كما وقف على المستويات الفنية لأدب هذه المراحل.

وأما الباب الثاني فقد قصر على المقوِّمات الفنية لأدب العصر بشكل عام، وهو الصورة التي رُئِيَ أنها الأصح في المستوى الفني لهذا الأدب.

وأما الباب الأخير فلقد حاول أن يوضّح الموضوعات الجديدة التي طرقها أدب هذا العصر، مع ما مثّله من معالِم الفكر الإسلامي في جهاد الصليبيين، وفي نشر كلمة الله، في عصر حروبهم ضد المسلمين، في الشرق الإسلامي، في القرنين السادس والسابع الهجريين.

* * *

وبعد، فهذا ما أراد البحث أن يوضحه في دور الأدب في تصوير الردود العملية على الغزو الأجنبي لبلاد المسلمين، والجهاد بالأدب لون من الجهاد بالنفس. فطالما دعانا الله سبحانه إلى الجهاد بالنفس وبالمال، وطالما حضَّ رسولنا الكريم عليه السلام على استخدام هذا السلاح في وجه الأعداء. ولعلّ هؤلاء الأدباء الذين دافعوا بألسنتهم وأقلامهم هجوم الفرنجة المعتدين، هم من الذين أرادهم الله في آية الشعراء حينما استثنى من الذين يتّبعهم الغاوون الذين آمنوا منهم! ذلك أنهم، بعد أن آمنوا بالله وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً، انتصروا من بعد ما ظلموا. صدق الله العظيم. لقد شعروا جميعاً بما يتهدد دينهم من أخطار، وما يتهدد عزّة المسلمين، من بعد، فجاهدوا في الله حقّ جهاده، إلى جانب مَن كانوا يحملون من سيوف ورماح!

أما نحن، فإن استطعنا أن نبرز دورهم في هذا الميدان المقدس من

تصوير الجهاد فهو من توفيق الله ورعايته، فهم يستحقون أن تتضافر جهود كثيرة في تجلية جهادهم وجهودهم. وأمّا إن كانت الأخرى فبحسبنا المحاولة، وهو جهد المقلِّ، والله مولانا وهو نِعم الوكيل.

عمان ١٣ شوال ١٤٠٣ هـ
٢٣ تموز ١٩٨٣ م

د. عمر عبد الرحمن الساريسي

مقدّمة
في تاريخ الحروب الصّليبيّة

تعـريفهـا:

يعرِّفها أحد المؤرخين البارزين المعاصرين بأنها «حركة كبيرة نبعت من الغرب الأوربـي المسيحي، في العصور الوسطى، واتخذت شكل هجوم حربي استعماري على بلاد المسلمين، وبخاصة في الشرق الأدنى، بقصد امتلاكها»(١).

ومن هذا التعريف يتّضح حجم هذه الحـروب، فلم تكن غزواً عسكرياً تقوم به الجيوش فحسب ولكنها كانت تنتظم رجال الغزاة ونساءهم وأطفالهم ومواشيهم. كما يتّضح مصدر هذه الحـركة الكبيـرة، فالغـرب الأوربـي المسيحي المقصود هو بلاد أوربـا الغربية، فقد انطلقت من حواضر بريطانيا وفرنسا وإيطاليا.

أما العصور الوسطى فهو اصطلاح أُطلق على القرون التي سبقت عصر النهضة الأوربيـة المعروف أنها بدأت في القرن الثاني عشر الميلادي، أي أنها، وأعني الحروب، أخذت في الهجوم عام **٤٩٢** هـ أو قبلها بعامين وهي ما يوافق **١٠٩٨** ميلادية. ولقد استمرت نحواً من قرنين كاملين، من أواخر القرن الخامس الهجري وطول القرنين السادس والسابع، فقد عُرِف أن هذه الحركة، بالذات، قد انتهت عام **٦٩٢** هـ **١٢٩٤** م.

---

(١) الحركة الصليبية، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، الجزء الأول، ط ١، القاهرة.، ١٩٧١، ص ٢٥.

ويمكننا أن نفهم سائر التعريف بأنه مجموعة من الحملات الكبيرة الغازية كانت تريد أن تستوطن بلاد الشام عامّة وبيت المقدس خاصة، ولذلك ركزت الهجمات عليها وعلى مصر وبعض السواحل الأفريقية والمواقع الإسلامية.

بواعثها:

أما عن دوافع هذه الحركة فيقول المؤرخ الباحث:

«إنها قد نبعت عن الأوضاع الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والدينية التي سادت غرب أوربا في القرن الحادي عشر الميلادي، واتخذت من استغاثة المسيحيين، في الشرق، ضد المسلمين، شعاراً دينياً للتعبير عن نفسها تعبيراً عملياً واسع النطاق»[1].

ولتفصيل هذه الدوافع يذكر هذا الباحث الأمور التالية[2]:

١ ـ **الباعث الديني** : وهو، بزعمهم، إنقاذ حجاج النصارى في بيت المقدس من ظلم المسلمين، وإنقاذ قبر السيد المسيح، عليه السلام، من حكمهم!.

وقد تبين أن هذا الباعث لم يكن هو الوحيد لهذه الحركة؛ فقد استولى الصليبيون على أراضي في جنوب آسيا الصغرى، وحاولوا الاستيلاء على ديار المسلمين في شمالي أفريقيا وفي مصر، ولا ندري ما هي حاجتهم لسواحل البحر الأبيض المتوسط الشرقية؟؟.

٢ ـ **الباعث الاقتصادي**: فقد حملهم ما حلّ ببلادهم من المجاعات والفقر، كما بدا واضحاً في جنوب فرنسا، حملهم على البحث عن موانىء بحرية في بلاد الشرق لتصبح معابر للتجارة والعيش.

وآية ذلك أنهم آثروا البقاء في مدينة دمياط وسواحل مصر

(١) الحركة الصليبية، د. سعيد عاشور، الجزء الأول، ص ٢٥.
(٢) المرجع السابق، الصفحات من ٢٨ إلى ٤٢.

الأخرى، في الحملة الصليبية الخامسة، على احتلال بيت المقدس الذي زعموا أنهم يهبّون لإنقاذه من كل فج عميق!.

٣ ـ **الباعث الاجتماعي**: ساد أوربا، في القرن الحادي عشر الميلادي، نظام الطبقات، فكان رجال الدين، عندهم، يشكلون الطبقة العليا، والمحاربون من النبلاء والأشراف الثانية، بينما تتشكل الطبقة الثالثة من الفلاحين من الأقنان ورقيق الأرض، وهم أغلب مادة جيوش الحملات الصليبية.

٤ ـ **الباعث السياسي** : أثار أباطرةُ أوربا ملوكَها للاستيلاء على الأراضي الإسلامية المقدسة في بلاد الشام، ففي ذلك تحقيق لأطماعهم المختلفة ودفع لهم، في الوقت نفسه، عن مهاجمة ديارهم في عقر ديارهم؛ فلقد صرح بذلك أمبراطور الروم للبابا أوربان الثاني بعد مضايقة عسكرية سبّبها له أحد الأمراء السلجوقيين في بلاده، فقال له: «إن من الحكمة أن يحارب الأتراك في أرض آسيا بدل أن تنتظرهم حتى يقتحموا بجحافلهم بلاد البلقان إلى عواصم أوربا الغربية»[١]!.

٥٥ ـ **نظام الفروسية**: ولقد نتج عن نظام الطبقات الذي ساد عندهم، في ذلك الزمان، نظام الإقطاع، وكان من نتائج الإقطاع بروز طبقة من الفرسان المحترفين الذين رغبوا في إظهار بطولاتهم على أرض جديدة لكسب المال والشهرة[٢].

مراحلها وأهم أحداثها :

مرت الحروب الصليبية بثلاث مراحل:

الأولى: مرحلة ظفر الأفرنج أو مرحلة الغزو والاحتلال الصليبي. وقد

---

(١) الحركة الصليبية، د. سعيد عاشور، الجزء الأول، فيما بين الصفحات ٢٨ ـ ٤٢.

(٢) شعر الجهاد في الحروب الصليبية، د. محمد علي الهرفي، مؤسسة النهلة، ص ٣٧، ولمزيد من الحديث عن أسباب الحروب الصليبية راجع أيضاً، أدب الحروب الصليبية، د. عبد اللطيف حمزة، ص ١٦.

استغرقت نحواً من خمسين عاماً (٤٩٢ - ٥٣٩ هـ، ١٠٩٨ - ١١٤٤م)، وفيها استولى الصليبيون على بيت المقدس (عام ٤٩٢ هـ، ١٠٩٩ م) وكوّنوا فيها مملكة بيت المقدس؛ أما في سائر الحملات فقد جهدوا في المحافظة على ما استقرت عليه أيديهم.

الثانية: مرحلة الجهاد والمقاومة والتحرير. وقد دامت أكثر من أربعين عاماً (٥٣٩ - ٥٨٣ هـ، ١١٤٤ - ١١٧٨ م)، ولعلّ من الأدق أن نقول إنها بدأت عام ٥٢١ هـ حينما أخذ عماد الدين زنكي يركز جهوده في تجميع جهود المسلمين في سبيل التجمع والاستعداد للجهاد وصدِّ الغزاة؛ وقد نجحت هذه الجهود عام ٥٣٩ هـ حينما استردّ هذا المجاهد الكبير إمارة الرها، شمال شرقي سوريا، من أيدي المحتلين، فسمي هذا النصر «فتح الفتوح» لأنه كان بداية الانتصارات الإسلامية والتحرير الكبير الذي يسّر الله تعالى، له، فيما بعد، بطرد الصليبيين من بيت المقدس بتاريخ ٢٧ رجب ٥٨٣ هـ الموافق ٢ أكتوبر - كانون الأول ١١٨٧ م، أي بعد ثلاثة أشهر، فقط، من موقعة حطين الفاصلة (٢٥ ربيع الثاني ٥٨٣هـ، ٤ يوليو - تموز ١١٨٧ م).

وقد تخلل هذه المرحلة الحملة الصليبية الثانية التي قصدت سواحل الشام (٥٤٢ هـ ١١٤٧م)، والحملة الصليبية الثالثة التي استهدفت المكان نفسه (٥٨٤ - ١١٨٨ م).

الثالثة: مرحلة الثبات والتطهير. والثبات الذي نعني هو الصمود والإصرار على المحافظة على ديار المسلمين في وجه ما تهددها من الغزو الخارجي الصليبي مرة والمغولي مرة أخرى وفي وجه ما نجم بين السلاطين من خلافات داخلية محلية؛ إذ لا يكون ثبات إلّا بعد تهديد بتغيير الرقعة المكانية من تحت أرجل أصحابها؛ فلقد تغلب المسلمون، بعون الله، على جميع هذه الأخطار، على خطورتها وكثافتها، ثم مضوا يحررون بلادهم تماماً من بقايا الغزاة المحتلين، فشهد عام (٦٩٢ هـ ١٢٩٤م) خروج آخر فلول الصليبيين من بلاد الشام ومصر حينما أكرهوا على الخروج من عكا وحصونها

على يد أحد سلاطين المماليك وهو الأشرف خليل بن السلطان قلاوون.

وفي هذه المرحلة حاول الصليبيون، في الحملة الخامسة والسابعة، أن ينقذوا المُلْكَ الذي كوّنوه لأنفسهم في الشرق فلم يفلحوا، وقد توجهوا فيهما لغزو مصر؛ أما في الحملة السادسة فقد استطاعوا أن يعودوا لبيت المقدس ثانية عام (٦٢٥ هـ ١٢٢٨ م) ولكن المسلمين لم يلبثوا أن حرروها ثانية منهم على يد الملك الناصر داود الملقب بالعادل الثاني.

* * *

وممّا يلفت الانتباه في صدّ هذه الهجمات الأجنبية أن المسلمين ظلوا يكافحون الغزو ويناضلون الغزاة طيلة قرنين من الزمان، فلم يكلّوا ولم يملّوا، ولقد تعاون على صدّ هؤلاء المعتدين أكثر من عهد سياسي حاكم في بلاد الإسلام؛ فقد بدأ الرد والصدّ الأتابكة من آل زنكي وأشهرهم عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود، ثم تسلم راية الجهاد منهم سلاطين بني أيوب وأشهرهم على الإطلاق، السلطان الناصر صلاح الدين، وجاء بعده خلفاؤه من أبنائه وأبناء أخيه العادل، حيث تسلم منهم الراية سلاطين المماليك الشراكسة وأشهرهم قطز والسلطان الظاهر بيبرس، وقد تم في عهدهما صد الغزو المغولي في معركة عين جالوت الفاصلة عام (٦٥٨هـ ١٢٦٠ م) أي بعد عامين فقط من سقوط بغداد في أيدي التتار (٦٥٦ هـ ١٢٥٨م).

أما سبب اتّباعنا لتقسيم الحروب الصليبية إلى هـذه المراحل الثلاث المذكورة[1]، وعدم متابعة كثير من الدّارسين في اتخاذ الحملات الصليبية المتعدّدة وحدات للدراسة، فهو أنها أكثر مسايرة للناحية النفسية التي كان عليها المسلمون في معالجة هذا الخطر الداهم من لدن طرقه لأبوابهم إلى لحظة تخلصهم منه؛ ولقد كان الجهاد نابعاً من هذه المواقف التي وقفها المسلمون إزاء هذه الأخطار، وهذا ما حدا بنا لاتخاذ هذه المواقف والمراحل فواصل لدراسة أدب هذه المرحلة من مراحل التاريخ الإسلامي والحياة

(١) ولقد اتبع هذا التقسيم، من قبل، الباحث الإسلامي أنور الجندي في كتابه «نحو منهج إسلامي متكامل».

الإسلامية؛ ولا يخفى ما في التمسك بالحملات من تشبث بأثر الناحية السياسية والعسكرية، وهذه غالباً ما تكون لغايات في تسهيل الدراسة والتدريس، ناهيك عن أن الحملة الصليبية الأولى كانت هي أخطرهنَّ، أما سائر الحملات فلقد كانت على هوامشها من أخذ ومن رد.

ولكن.. هل انتهت الحروب الصليبية؟

وهذا السؤال يجر إلى سؤال آخر عن تاريخ بداية هذه الحروب، فما له نهاية لا يجوز في العقل إلا أن يكون له بداية، فهل بدأت حقاً عام (٤٩٢ هـ) كما تذكر كتب التاريخ؟

يبدو أنها قد بدأت قبل هذا التاريخ بزمن طويل. «فقد أجمع المؤرخون على أنها لم تبدأ، يوم بدأت، عام **٤٩٢ هـ ١٠٩٨**م، بل إنها تعود إلى الوراء سنوات طويلة، حيث تعتبر امتداداً لمعارك الدولة الرومانية البيزنطية مع عالم الإسلام منذ أن نشر المسلمون الإسلام في بقاع الأرض، وبخاصة في زمن العباسيين، وفي زمن دولة الحمدانيين بشكل أكثر تخصيصاً، كما أنها ترتبط بالصراع الذي دار بين المسلمين وبين الفرنجة في إسبانيا وحدود فرنسا»[1].

فلقد استعر الحقد في نفوس الصليبيين على المسلمين الذين أناروا بلادهم بنور التوحيد وأخرجوا الناس من ظلام الشرك والجهل، فاشتد قتالهم وامتد حتى شمال الأندلس بأكملها وتجمعوا، من كل صوب ومن كل مذهب، حتى أخرجوا المسلمين منها عام (٨٩٠ هـ ـ ١٤٩٢م)، أي قبل انقضاء قرنين على خروجهم من بلاد الشام؛ أليس معنى ذلك أنها لم تنته بخروجهم من عكا عام (٦٩٢ هـ)؟ وهذا أول خيط للوصول إلى الجواب على سؤالِ مُفْتَتَحِ هذه الفقرة.

ويؤيد ما وصلنا إليه قولٌ عُزِيَ إلى أحد قادتهم المعاصرين، وهو

---

(١) نحو منهج إسلامي متكامل، الأستاذ أنور الجندي، دار الانتصار، القاهرة، ص ١٣٤.

الجنرال الانجليزي اللنبي، حينما دخل مدينة القدس عام **١٩١٧** في نهاية الحرب العالمية الأولى: «الآن انتهت الحروب الصليبية»[١]!

إن العمل على استعادة الأرض التي نشر عليها المسلمون دينهم، من أيديهم، لم يكل لحظة واحدة، لا في محاولة إيقاف توسع المسلمين في أوربـا في حملة عبد الرحمن الغافقي عام **٦٣٢** هـ ولا فيما بعدها من القرون التي شهدت تكاتف دول أوربـا لمقاتلة الدولة العثمانية الإسلامية وإضعاف تيارها الإسلامي القوي فيما عامي (**٦٩٩ - ١٣٣٦** هـ **١٣٠٠ - ١٩١٧** م)، كما شهدت حملة نابليون على الشرق الإسلامي **١٧٩٩** م وشهدت تجهيز قوافل المبشرين والمستشرقين وإرسالهم لبلاد الشرق لأهداف صليبية غير معلنة؛ لذلك كله فإن الجنرال الفرنسي غورو حينما دخل دمشق عام **١٩٢٠** صرخ مباهياً: قم يا صلاح الدين أنا هُهنا[٢]!!! ولذلك أيضاً شهد القرن العشرون الميلادي والرابع عشر الهجري أكبر تواطؤ عرفه التاريخ بين القوى الصليبية والحاكمة في أوربـا وأمريكا وبين الحركة الصهيونية العالمية على البلاد المقدسة في فلسطين وما حولها!.

---

(١) جهاد شعب فلسطين في نصف قرن، صالح مسعود بويصير، دار الفتح - بيروت، ط ١، ١٩٦٨، ص ٦٥.

(٢) المرجع السابق، ص ٧١.



البَابُ الأوّل

دَوْرُ الأدَبُ الإسْلَامي

في تصوير الجهَاد في زمن الحرُوب الصّليبيّة

تمهيد

يعيش الأدباء تجاربهم الشعورية الخاصة كما يعايشون التجارب والأحداث العامة التي تنتاب الناس في البيئة المحيطة بهم. ويرتقي الأديب في خدمة أمته وتراثها إذا استطاع أن يوفق بين هاتين التجربتين، فيجعل من هموم بني قومه مجال اهتمامه الخاص ويعبر عن آلامهم وآمالهم وتطلعاتهم. فهل كان الأدباء المعاصرون للحروب الصليبية كذلك؟.

هذا ما سنحاول الكشف عنه في هذا البحث.

ولا بد، من أجل الوصول إلى جواب، من تقسيم هذه الحقبة التي امتدت حتى شملت قرنين من الزمان تقسيماً يتناسب مع طبيعة الأحداث التي ألمت بالمسلمين في بلاد الشرق الإسلامي، آنذاك، فضلاً عما في ذلك من تقريب مادة الدراسة من البحث والتناول.

لذا، فإننا سنقسم أدب هذا العصر إلى مراحل ثلاث تناسب أحوال الناس في زمن هذه الحروب. فلقد كان للأدب موقف ما من الغزو الصليبي الداهم، أول الأمر، وكان له ولا شك موقف معين في مرحلة الردود الجهادية والتحرير. وفي أخريات هذا العهد، المتراوح بين نبذ الخلافات وبين الإصرار على الجهاد، ضد أعداء الله، كان له موقف ثالث مناسب.

الفصل الأوّل

دور الأدب
في مواجهة الغزو في المرحلة الأولى
(٤٩٢-٥٣٨هـ)

لعل من أسهل السبل وأصوبها في دراسة الحياة الأدبية لعصر من العصور استقراء بعض النصوص الأدبية المعبّرة في هذا العصر.

لذلك، فإننا سوف نبدأ بنصوص نتخيرها من الأدب الذي انعكس عن أحوال الناس في مراحل هذه الحروب المختلفة، كل مرحلة على حدة، لنخرج منها بصورة تقريبية عن المواقف النفسية التي كان عليها المسلمون في تلك العهود.

دور الشعـر

١ ـ حال المسلمين إثر احتلال الصليبيين لبيت المقدس:

ورد في كتاب «النجوم الزاهرة»[١] النص التالي:

«ولما تمت هذه الحادثة (يعني استيلاء الفرنجة على القدس عام ٤٩٢ هـ) خرج المستنفرون من دمشق مع قاضيها زين الدين أبي سعد الهروي[٢]، فوصلوا بغداد، وحضروا في الديوان وقطعوا شعورهم! واستغاثوا

---

(١) تصنيف جمال الدين أبي المحاسن المشهور بابن تغري بردي، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٣٥، الجزء الخامس ص ١٥١.

(٢) هو محمد بن نصر بن منصور، فقيه مشهور، ولي القضاء في بلاد العجم وفي دمشق وبغداد، توفي عام ٥١٩ (طبقات الشافعية ٧/٢٢).

وبكوا!!. وقام القاضي في الديوان وقال كلاماً أبكى الحاضرين، وندب من الديوان من يمضي إلى المعسكر السلطاني (جيش الخلافة) ويعرفهم بهذه المصيبة، فوقع التقاعد لأمر يريده الله، فقال القاضي الهروي، وقيل هي لأبي المظفر الأَبِيْوَرْدِي[1]، القصيدة التي أولها:

١ - مزجنا دماءً بالدموع السواجم فلم يبق منا عرضة للمراجم[2]
٢ - وشر سلاح المرء دمع يفيضه إذا الحرب شُبَّت نارها بالصوارم[3]

إنه، في هذا المطلع، يصرّح ببكاء الناس بكاءً أنزل الدم من العيون لشدته واستمراره، وأنهم بكوا حتى لم يبق فيهم مجال للذم. ولكنه لا يلبث أن يفطن إلى أن البكاء، على شدته، لن يغني، في شيء، في معركة لا يسعّر نيرانها إلاّ السيوف القواطع.

ومنهـــا:

٣ - فإيهاً بني الإسلام إن وراءكم وقائع يلحقن الذُرا بالمَناسِم[4]
٤ - أتهويمةً في ظلِّ أمنٍ وغبطةٍ وعيشٍ كنوّار الخميلة ناعم[5]؟
٥ - وكيف تنام العين ملءَ جفونها على هفوات أيقظت كلَّ نائم
٦ - وأخوانكم بالشام يُضْحِي مقيلُهُم ظهورَ المذاكي أوبطونَ القشاعم[6]؟
٧ - تسومهم الرومُ الهوَانَ، وأنتم تجرون ذيل الخفض، فعل المسالم[7]

---

(١) الأغلب أنها للأبيوردي وأن القاضي الهروي قد تمثل بها، والأبيوردي هو محمد بن أحمد القرشي المتوفى بأصبهان عام ٥٥٧. وقد نسبت القصيدة إليه مصادر عديدة، وهي في ديوانه تحقيق د. عمر الأسعد، طبعه مجمع اللغة العربية بدمشق، في الزيادات.

(٢) المراجم جمع مرجم وهو القبيح من الكلام.

(٣) شُبَّت: سُعِّرت، اشتدت.

(٤) المناسم: جمع منسم وهو خف البعير.

(٥) الهَوْم: النوم الخفيف. نُوَّار: زهر. الخميلة: الشجر الملتف.

(٦) المذاكي: ج مذكية وهي الفرس التي عليها بعد قروحه سنة أو سنتان. قشاعم: جمع قشعم وهو النسر المسنّ.

(٧) الخفض: الغنى.

وهنا يستصرخ الشاعر المتخلفين عن القتال مع أخوانهم المسلمين في بلاد الشام، فيبدأ هذه المقطوعة بتوجيه نداء حار للمسلمين: «إيهاً بني الإسلام» أَنِ آصحُوا من نومكم فما دهمكم من الغزو يجعل أعزتكم أذلة. ثم يعجب لهم ولنومهم! إذ كيف ينامون ملء عيونهم ويعيشون عيشاً ناعماً آمناً وغير بعيد منهم تجري فظائع الأمور التي تقع على رؤوس أخوانهم من أهل الشام، فلا يجدون وقتاً قصيراً ينامون فيه في بيوتهم، فجلّ أوقاتهم على صهوات خيولهم يحاربون أو تكتب لهم الشهادة فتتخطفهم نسور الجو ولا من يدفن جثثهم، وربما يقعون تحت إذلال أعدائهم من الفرنجة، أما أنتم فيبدو عليكم التقلب في ثياب النعمة كما لو أنكم مسالمون أو متحالفون مع الأعداء!!.

ومنهـا:

٨ ـ وكم من دماءٍ قد أبيحت، ومن دمىً	تُوارِي حياءً حسنَها بالمعاصم[١]
٩ ـ بحيث السيوف البيض محمرةُ الظبا	وسمرُ العوالي داميات اللّهاذِم[٢]
١٠ ـ وبين اختلاسِ الطعنِ والضربِ وقفةٌ	تظل لها الولدان شيبَ القوادم[٣]
١١ ـ وتلك حروب من يَغِبْ عن غمارِها	، ليسلمَ، يقرعْ بعدها سنَّ نادم
١٢ ـ سَللن بأيدي المشركين قواضباً	ستُغمد منهم في الطُلا والجماجم[٤]
١٣ ـ يكـاد لهن المستجنُّ بـطَيْبـةٍ	ينادي، بأعلى الصوت، يا آل هاشم[٥]

وفي هذه الأبيات يصور شراسة المعارك التي وقعت بين المسلمين وأعدائهم من الفرنجة، فقد أُبيحت فيها دماء كثير من المسلمين ولقد اقتحم فيها على النساء خدورهن وما وجدن ما يدفعن به عن أجسامهن المصونة غير معاصمهن المشتبكة حياءً وخوفاً! وقد اشتدت هذه الحروب واستحرّ فيها القتل حتى بدت أسنَّة السيوف والرماح حمراء لاهبة، وحتى أن الصبيان ربما

(١) دمى: ج دمية وهي اللعبة شبهت بها المرأة.
(٢) اللهذمة: كل شيء قاطع من سنان أو سيف.
(٣) القوادم: مقدم شعر الرأس من جانبي الأذنين.
(٤) الطلا: الرقاب.
(٥) المستجنّ: المدفون.

يظهر في شعرهم الشيب لما فيها من هول الطعن والضرب.

ثم يعود لتنبيه المتخلفين بأنهم سوف يندمون على تخلفهم عن الاشتراك في هذه الحروب، التي يعود ليتحدث عن أخطارها فيهوّن من شأن الأعداء وأسلحتهم فما استلّوه من سيوف قاطعة سوف تعود إلى نحورهم وجماجمهم. وفي آخر الأبيات يؤكد فظاعة هذه الحروب بأن الرسول، عليه السلام، في ضريحه الطاهر في المدينة المنورة يستنجد، على الأعداء، بالعرب والمسلمين، وليس بآل هاشم فحسب!.

ومنهـا:

١٤ ـ أرى أمتي لا يَشْرعون إلى العدا ... رماحهم، والدين واهي الدعائم
١٥ ـ ويجتنبون النار خوفاً من الردى ... ولا يحسِبون العار ضربة لازم
١٦ ـ أترضى صناديدُ الأعاريب بالأذى ... ويغضي على ذلٍّ كماةُ الأعاجم[1]؟
١٧ ـ فليتهم، إذ لم يذودوا حمية ... عن الدين، ضنوا غيرة بالمحارم!
١٨ ـ وإن زهدوا في الأجر، إذ حمي الوغى، ... فهلّا أتوه رغبةً في الغنائم؟!

ويرى الشاعر قعود بعض بني قومه عن الجهاد فيتألم لذلك ألماً يصور معه واقعهم المتخاذل عن نصرة دينهم الذي يحاول الأعداء إضعافه، جبناً وخوفاً وغفلة عما يلحق بهم من العار في حالة الهزيمة، ويعجب لشجعان المسلمين، من عرب ومن عجم، كيف يقبلون بهذا كله. ثم يقلب لهم أسباب الدفاع عن الدين وعن البيضة تقليباً منطقياً، فيه الألم الذي يعصر قلبه والتبكيت الذي يهز أحاسيسهم من الأعماق، فيطالبهم بالدفاع عن الدين أولاً فإن لم ينهضوا له فليحموا محارمهم من النساء والبلدان والعقار، وهذا أضعف الإيمان، أن يهتموا بالدنيا وعَرَضها من غنائم وأسلاب إن فقدوا الثأر للدين والخروج للجهاد ونيل الشهادة!!

وفي نهاية القصيدة يبلغ به الألم مبلغاً أشد فعلاً وتأثيراً، فيكشف لهم عن مستقبل أيامهم وما يلاقون فيه من إذلال وصَغَارٍ في أيام أبنائهم الوارثين

(١) الصنديد: المقاتل الشديد، والكماة: جمع كمي، وهو لابس السلاح.

للخنوع إن قبلوا باحتلال الأعداء لبلادهم ، ثم يهددهم بعار تسليم النساء للأعداء إن هم ظلوا على ما هم عليه من الخنوع والجبن والقعود عن الجهاد ، ولم يزل الشاعر يستصرخهم، والحرب مستعرة، ليغيروا على المعتدين غارة شعواء تلقن الفرنجة درساً قاسياً، كما تعوّدوا في كل مرة يهاجمون فيها بلاد العرب الإسلامية :

١٩ ـ لئن أذعنت تلك الخياشيمُ للبُرَى فلا عطست إلا بأجدعَ راغم[١]
٢٠ ـ دعوناكم والحرب تدعو ملحةً إلينا بألحاظ النسور القشاعم[٢]
٢١ ـ تراقب فينا غارة عربية تطيل عليها الروم عَضَّ الأباهم[٣]
٢٢ ـ فإن أنتم لم تغضبوا بعد هذه رمينا إلى أعدائنا بالحرائم[٤]

٢ - **نص آخر :**

وقال شاعر آخر في هذه المناسبة[٥] :

١ ـ أحلَّ الكفرُ بالإسلام ضيماً يطول عليه، للدين، النحيبُ
٢ ـ فحقٌّ ضائعٌ وحمىً مباحٌ وسيفٌ قاطع ودمٌ صبيبُ[٦]
٣ ـ وكم من مسلمٍ أمسى سليباً ومسلمةٍ لها حرم سليبُ
٤ ـ وكم من مسجدٍ جعلوه ديراً على محرابه نُصبَ الصليب
٥ ـ دم الخنزير فيه لهم خَلوقٌ وتحريف المصاحف فيه طيب[٧]
٦ ـ أمور لو تأملهن طفل لطفَّل في عوارضه المشيب[٨]

---

(١) الخيشوم: أقصى الأنف، البُرى: جمع بُرَة وهي حلقة من صفر أو غيره في أحد جانبي أنف البعير للتذليل أو في أنف المرأة للزينة. أجدع: مكسور الأنف، كناية عن الذل.
(٢) القشعم: النسر المسنّ.
(٣) الأباهم: جمع الإبهام، كناية عن الندم.
(٤) الحرائم: جمع حريم وهو جميع ما حرّم فلا ينتهك. ويمكن أن توجد هذه القصيدة، أيضاً، في الكامل في التاريخ لابن الأثير الجزء العاشر ص ١٩٣ .
(٥) النجوم الزاهرة، ابن تغري بردي، الجزء الخامس ص ١٥١ .
(٦) أي سائل.
(٧) الخلوق والخِلاق: ضرب من الطيب أعظم أجزائه الزعفران.
(٨) أي برز وظهر. والعارضان: جانبا الوجه.

٧ - أتُسبى المسلماتُ بكـل ثغــرٍ؟ وعيشُ المسلمين، إذن، يطيب؟
٨ - أمــا لله والإســلام حــقٌ؟ يــدافــع عنــه شبــان وشيب؟
٩ - فقل لذوي البصائر، حيث كانوا: «أجيبوا الله، ويحكم، أجيبوا»(١)

وهنا نرى أن هذا الشاعر يفصّل في ذكر ألوان الذل التي حاقت بالإسلام أولاً وبالمسلمين ثانياً من جرّاء احتلال الصليبيين لديار المسلمين وبيت المقدس بشكل خاص؛ فمنها ضياع حقوق المسلمين، ومنها استباحة ديارهم ومحارمهم بقوة السيف الذي أسال من دمائهم الكثير، ومنها أن كثيراً من المسلمين قد وقعوا في ذل الإسار وكثيراً من المسلمات انتهكت حرماتهن، ومنها تحويل المساجد إلى أديرة للنصارى وارتفاع الصلبان على محاريب تلك المساجد، كما أفاحت رائحة لحم الخنزير فيها وأنها أصبحت رائحة يتلذذ بتشممها النصارى مع ما يحرقونه من المصاحف في المساجد المستباحة، إلى غير ذلك من «الأمور» التي لو تأملها صبي لشاب شعر رأسه! لفظاعتها ولشدة وقعها على المسلم الغيور على دينه وبلاده. إذ كيف تسبى المسلمات بأيدي الأعداء دون أن ينهض للنجدة سائر المسلمين؟ وكيف يتغاضى المتخلفون عن الجهاد وينسون حق الله في الأمر بالجهاد والدفاع عن حرمات الله؟!

وينهي قصيدته بدعوة صريحة، يرفع بها الصوت عالياً، يوجهه لذوي العقول المفكرة في المستقبل؛ أنْ لبوا داعي الله إلى الجهاد، وإلاَّ كانت نهايتكم في الدنيا مليئة بالهزائم وفي الآخرة لكم دار البوار!!.

٢ - حض على تحرير بيت المقدس من أيدي المعتدين:

لم يكتف الشعراء، في هذه المرحلة، بنقل أحاسيسهم وأحاسيس الناس من حولهم إزاء نكبة احتلال القدس، كما رأينا، من حزن وأسى ونداء إلى الجهاد العام ولكنهم خطوا في دعوتهم هذه خطوة أخرى محددة الأهداف واضحة المعالم فدعوا إلى تخليص قبلة المسلمين الأولى من أيدي المشركين

(١) البصائر: جمع بصيرة وهي قوة الإدراك والفطنة.

المعتدين، وظلت هذه الدعوة تتكرر حتى كتب الله لهم أن تُحَقّق آمالهم فيه.

فمنذ أن خلّص عماد الدين زنكي إمارة الرها من الفرنجة، عام (٥٣٩ هـ)، أهاب به ابن القيسراني، الشاعر المعاصر، أن ينهد لما هو فوق ذلك شأناً وخطراً على حياة المسلمين:

أما آن أن يزهق الباطل وأن ينجز العدة الماطل؟
فإن يك فتح الرها لجة فساحلها القدس والساحل[١]

إن إعادة القدس للمسلمين عهد يقطعه على نفسه كل حاكم، فعليه أن ينهض للوفاء به ولن يكون أصعب من الفتح الذي سبقه.

وحينما انتصر نور الدين محمود على «البرنس» صاحب أنطاكية عام (٥٤٤ هـ) هنأه هذا الشاعر، نفسه، بنصر الله، وذكّره بما ذكّر به أباه؛ أليس الذكرى تنفع المؤمنين؟

فانهضْ إلى المسجد الأقصى بذي لَجَبٍ يوليك أقصى المنى فالقدس مرتقب
وائذن لموجك في تطهير ساحله فإنما أنت بحر لجه لَجِبُ[٢]

وقال مثل ذلك في مواضع كثيرة مماثلة. وهو ـ هنا ـ يشدد على ما يؤمل منه المسلمون ويترقبون من إنفاذ الجيش الجرار لفك أسر المسجد الأسير المرتقب وإخراج المعتدين من الساحل الفلسطيني والشامي كله، وواضح ما يهدف إليه الشاعر في مدحه لهذا السلطان من خدمة للمسلمين ولدين الله، وليس لعلاقة شخصية فردية عرضية.

وحينما انتصر أسد الدين شيركوه، عم صلاح الدين، على الفتنة والفرنجة في مصر أرسل إليه العماد الكاتب قصيدة كان في أحد أبياتها قوله:

فتحت مصراً وأرجو أن تصير بها ميسراً فتح بيت المقدس عن كثب

ولما رأى هذا الشاعر نفسه أن السلطان صلاح الدين قد وحّد ما بين

---

(١) كتاب الروضتين، أبو شامة القدسي، طبعة ١٢٨٧هـ ١/٤٩، واللجة: معظم الماء.
(٢) المرجع السابق ١/٥٩ ـ ٦٠، اللَجَب: ارتفاع أصوات الأبطال واختلاطها.

مصر والشام تحت إمرته؛ أهاب به أن يمضي لاستغلال فرصة إنقاذ القدس فهي الثمرة المرجو قطفها بعدهما مباشرة:

اغزُ الفرنج، فهذا وقت غزوهم، واحطِم جموعَهم بالذابِلِ الخَطِم[1]
وطَهِّر القدسَ من رِجْس الصليب، وثِبْ على البغاةِ وثوبَ الأجدلَ القَطِم[2]
فملكُ مصرٍ وملكُ الشامَ قد نُظِمَا في عِقد عِزٍّ من الإسلام منتظم[3]

إنه يشير على مولاه بالغزو ويزينه له بأن هذا هو وقته المناسب ثم إنه يحاول أن يقنعه بفكرته إقناعاً عقلياً، وماذا بعد أن ينتظم في يده عقد الشام ومصر غير التوجه إلى القدس؟!.

بل إن فتح القدس غدا حلماً زاهياً يراه الراغبون فيه نبوءة تحدس بها قلوبهم ويثقون بشهودها ببصائرهم. فهذا قاضي دمشق محيي الدين بن الزكي القرشي يتنبأ بفتح القدس في شهر رجب! وكأنه حينما تنبأ بذلك كان ينظر من وراء أستار الغيب. يقول لصلاح الدين حينما فتح حلب عام (٥٧٩ هـ):

وفتحكم حلباً بالسيف في صفر قضى لكم بافتتاح القدس في رجب[4]

ولنستمع إلى هذه النبرة العالية في الدعوة إلى الله وإلى الجهاد في سبيله لاسترداد المقدسات الإسلامية يوجهها الشاعر علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي لنور الدين زنكي بعد توحيد مصر والشام بين يديه:

ولست تعذر في ترك الجهاد، وقد أصبحت تملك من مصر إلى حلب
وطهّر المسجد الأقصى وحوزته من النجاسات والإشراك والصُلُب

ألا هكذا فلتكن الدعوة إلى الله وهكذا فليكن الدعاة!

أما المكافأة التي ينتظرها، بعد هذه التضحية في سبيل الله، فهي ما

(١) الذابل: الرمح الدقيق (المعجم الوسيط)، الخطم: القاهر، الضارب للأنف.
(٢) الأجدل: الصقر، القطم المشتهي الضراب واللحم.
(٣) كتاب الروضتين، أبو شامة المقدسي، الجزء الأول ص ١٧٥.
(٤) وفيات الأعيان، ابن خلكان ١/٤٦٨، وللتفصيل في قصة هذه الرؤيا راجع البداية والنهاية، ابن كثير، دار الفكر العربي جـ ١٢ ص ١٣٤.

ينتظره كل مؤمن صادق:

عساك تظفر في الدنيا بحسن ثناً وفي القيامة تلقى حسن منقلب[1]

إننا ننظر فنرى أن الشعراء لم يهنئوا بنصر قبل فتح القدس إلاّ طالبوا بفتحها وأغروا به.

القيمة التاريخية لهذه النصوص:

يبدو للمتأمل في هذه النصوص أنها تسجل مشاعر الإنسان المسلم في مرحلة غزو الأفرنج وظفرهم من مراحل الحروب الصليبية:

١ - وأبرز هذه المشاعر هو الشعور الديني: فالأبيوردي يستصرخ بني الإسلام: «فإيهاً بني الإسلام» لأن الأعداء مشركون «سللن بـأيدي المشـركين». ولا يقلل من هذه الدعوة قوله: «تراقب فينا غارة عربية»، فهو بعد نداء المسلمين عامة يؤمل ألاّ يقبل بهذا الغزو لا صناديد الأعاريب ولا كماة الأعاجم، كما أنه يرى أن الرسول - عليه السلام - يستفظع هذا الغزو ويدعو قومه لدرئه؛ وفي الوقت الذي يمكن أن ننفي عن هذه القصيدة التعصب للجنس العربي في المعركة الإسلامية لا يمكن أن نغمط هذا الجنس دوره في حمل ما حمّله الله من تبليغ رسالة الإسلام إلى العالمين.

وحينما يدعوهم للصمود والثبات في وجه الغزاة يقلب لهم أسباب هذا الصمود وعوامله فيطالبهم بأن يتذكروا أولاً، ثواب الله في الآخرة عليه، فإن تناسـوا هذه، فيطالبهم، بألم، أن يذبوا عن محارمهم على الأقل!!!

وربما كان هذا الشعور الديني في القصيدة البائية أكثر بروزاً ووضوحاً من سابقتها؛ فمنذ الكلمة الأولى يطلعنا الشاعر على أن الضيم قد حل أولاً بالإسلام، ثم أخذ يعدد ألوان هذا الضيم المتعددة، مهتماً بما حدث للمساجد من تحويل إلى أديرة، وبما ارتفع على محاريبها من صلبان، ومما

---

(١) كتاب الروضتين ١/٣٧، ٣٨.

أخذ يفوح فيها من رائحة لحم الخنزير أو المصاحف المحروقة. وإنه ليربط ربطاً محكماً بين ما يكاد يقشعر له شعر رأسه من سبي النساء وبين العيش الهنيء للمسلمين المتخلفين عن الجهاد!، ويتجمع الحسّ الإسلامي عند هذا الشاعر المؤمن المجهود، فيصرخ في وجه القعدة المتخاذلين صرخة تهز أعماقهم ولو كانوا في نوم أهل الكهف «أما لله والإسلام حق؟؟!!»؛ إن هذا هو الأساس الثابت وراء هذا الأدب الإسلامي الملتزم بقضايا الأمة وهمومها؛ إن كل الحروب بما فيها من رد للغزو أو نفير للجهاد والدعوة ونشر الدين لا تعدو أن تكون إجابة لداعي الله في الجهاد: «أجيبوا الله ويحكم أجيبوا»، والويل والثبور لمن يتخلف عن تلبية نداء هذا الداعي.

أما مكانة القدس في قلوب المسلمين، في ذلك العهد وفي كل عهد، فهي مما يكمل هذا الشعور ويؤكد عليه؛ فبعد فتح الرها، الذي لقب بفتح الفتوح، وبعد الانتصار على حاكم مملكة أنطاكية النصراني، وبعد فتح مصر ثم توحيدها مع الشام تحت القبضة الإسلامية، وبعد فتح حلب؛ بعد هذا كله لم يكن النداء التالي إلا الشروع في العمل لتخليص القدس والمسجد الأقصى من أسر المشركين وتطهيره من مظاهر الشرك والدنس.

٢ ـ الشعور الاجتماعي: ويتبع الإحساس بما حاق بالدين إحساس بالهوان الذي ألم بالمسلمين أنفسهم، «تسومهم الروم الهوان» وهم إما على صهوات الخيل وإما في بطون طيور الجو، «وكم من دماءٍ قد أُبيحت»، «فحقٌّ ضائِع وحمىً مباحٌ»، «وكم من مسلم أمسى سليباً»، إنه شعور بالضياع والهزيمة أمام هذه الزحوف الغازية في حالة تقاعس بعض المسلمين عن شد أزر بعض في ساعات العسرة:

أرى أمتي لا يشرعون إلى العدا   رماحهم، والدين واهي الدعائم

ومما يثقل كاهل الإنسان المسلم، الذي يعيش هذه الآلام، ما يحيق بنساء المسلمين، في المجتمع الإسلامي، من سبي وقهر واغتصاب. فما عسى النساء الجميلات أن يدفعن عن أنفسهن إذا دُخلت عليهنَّ خدورهن من أقطارها؟ وما عسى المعاصم النسائية التي تشابكت لتواري النفس

من الخجل ولئلا تقع عيون علوج الأعداء المهاجمين في عيونهن، ما عساها أن تدفع عنهن من الشرور المقتحمة؟!!

وغاية ما يهدد به هذا الشاعر المتألم بني قومه أن يخلي بين النساء وسائر المحرمات وبين الأعداء إذا هم ظلوا متخاذلين عن المشاركة في الجهاد لدفع عدوان أعداء الله:

فإن أنتم لم تغضبوا بعد هذه   رمينا إلى أعدائنا بالحرائم

ومما يدلل على عمق تأثير هذا الشعور في النفس المسلمة أن شاعر القصيدة البائية عدد أصناف الشقاء التي حاقت بالمسلمين، إثر الغزو الصليبي، بألم، حتى إذا ما وصل إلى صورة سبي النساء المسلمات صرخ، بأعلى صوته، ومن أعماق إحساسه، بسؤال يهز أعماق السامعين «أتسبى المسلمات بكل ثغر؟؟» وذلك مقابل ما لا يليق لدى الطرف الثاني من اهتمام المسلمين «وعيش المسلمين إذن يطيب؟»، ويتبع هذه الأسئلة سؤال آخر يضرب في أعماق هذه المشاعر كلها، وهو ما ذكرنا من شعور ديني متألم «أما لله والإسلام حق». فالله، سبحانه، لا يرضى أن تسبى المسلمات وهو القائل: ﴿أُذِنَ للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير﴾[1]، وهو القائل: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾[2].

هل في هذا الإلحاح على الألم الشديد مما حاق بنساء المسلمين، إثر هذه الحروب، بقايا من الإحساس القبلي بعار العشيرة إذا أضيمت نساؤها؟ لو سلمنا بوجوده فإننا نلمح، في الوقت نفسه، أن الإسلام طالب بالدفاع عن الحمى والمحرمات، والنساء أولى هذه المحميات في الإسلام.

٣ ـ الشعور النفسي: وإذا كان الشعور الاجتماعي يتسع أفقه لحمل هموم المجتمع الإسلامي بجميع أفراده بأن الفرد المسلم، على النطاق الفردي، قد أخذ يحسُّ بمجموعة من الأحاسيس الطاحنة تحت وطأة هذا الغزو الغاشم من

(١) الآية: ٣٩ من سورة الحج.
(٢) الآية: ٨ من سورة المنافقون.

جهة، وتخلف الكثيرين من أبناء الإسلام من جهة أخرى.

وأولى مشاعر الفرد، في هذا الجو، هو الحزن الشديد الذي لف نفوس جميع الأفراد لفاً؛ فأول ما نطقت به كلمات الأبيوردي هو البكاء الذي لم يذرف الدموع فحسب، ولكنه استنزل الدم من العيون بعد أن جفت الدموع!! وسرعان ما يزداد هذا الحزن حينما يفتح الشاعر عينيه على الحقيقة المرة: ما نفع الدموع في معركة لا تتكلم فيها إلا السيوف المواضي؟. وهنا تحدق الشرور بنفسية هذا الشاعر؛ ومن هذا الإحساس العاصف ينبت استنجاد الشاعر بأهله من المسلمين، للنهوض والرد على هذا الخطر المحدق «فإيهاً بني الإسلام». وما نفع الفرد، حينما تحيط به الأخطار، إن لم يكن له أهل يمنعونه؟.

ونخرج بمثل هذا الحزن العاصف حينما نقرأ القصيدة البائية ونحس بخفقان قلب صاحبها المضطرب، لكثرة ما رأى وأحس وعاش من الأخطار التي تهددت وجوده ووجود أهله؛ فحقوقهم ضائعة، ودماؤهم سائلة، ورجالهم كنسائهم في السبي والنهب، وبلادهم مباحة، ومساجدهم غدت أديرة، وجدران صلبان! وحينما يبلغ الحزن مبلغ هز الأعماق تخرج الصرخات والاستنجاد والتذكر بحقوق الله في الجهاد والذب عن الحياض.

ونكاد نلمح مثل هذه المشاعر الفردية الحزينة حينما يأخذ الشعراء في تزيين فتح القدس للقادة الفاتحين بمختلف ضروب الإقناع، فقد كان هذا الأمل يداعب نفوس المسلمين، جميع المسلمين، منذ أن فتحوا عيونهم على قبلتهم الأولى فوجدوها في أيدي أعداء الله.

٤ ـ تصوير الحروب: وتكاد قصيدة الأبيوردي تنفرد بتصوير ما وقع بين المسلمين وبين أعدائهم المهاجمين من حروب، قبل استيلاء الصليبيين على مقدساتهم، وهذه مأثرة إيجابية تحسب لها؛ فالقدس لم يستول عليها الأعداء دون قتال، وإلاّ لكان هذا دليلاً على الضعف والخَور، فهذه الحروب تسعّرها السيوف القاطعة، وحينما كان الهجومُ صمد لهم أبناء الشام الأبطال حتى يظل الواحد منهم على صهوة جواده ليل نهار حتى تختلف رجلاه على

عنق فرسه فتتخطفهم سباع الأرض أو نسور الجو، كما قال أحد خطباء العصر الأموي، كما أن النساء اللواتي اقتحمت عليهن خدورهن دافعن ما دافعن بعد أن استحر القتال بين رجالهن وبين الأعداء:

بحيث السيوف البيض محمرة الظبا وسمر العوالي داميات اللهاذم
وبين اختلاس الطعن والضرب وقفة تظل لها الولدان شيب القوادم

إنها صدمات تصير لها الولدان شيباً، كما ورد في القرآن الكريم عن أهوال يوم القيامة؛ إنها حروب يستل فيها المشركون سيوفاً قاطعة لكن المدافعين عن حرمات الإسلام يردون هذه السيوف المعتدية إلى نحور أصحابها ورؤوسهم.

أجل! إن المقاومة الإسلامية قد هبّت في وجوه المعتدين منذ أن وطئت أقدامهم النجسة أراضي المسلمين في سواحل بلاد الشام الشمالية، وظلت راية الجهاد مرفوعة لرد المعتدين، حتى خرج آخر صليبي معتدٍ من هذه الديار الإسلامية، بعد قرنين من الصراع المستمر.

٥ ـ الدعوة إلى الجهاد: إن أحزان الشعراء والأفراد وشعورهم بالضياع أمام ما رأت أعينهم من مصير الدين الذي صار، بهذا الغزو الصليبي، واهي الدعائم، ومن فظائع شتتت شمل أهلهم المسلمين وسبت نساءهم وأذلت رجالهم، بعد القتال الشديد، وحولت مساجدهم إلى كنائس؛ إن هذا الحزن الجارف لم يقعد بهؤلاء الشعراء عند مرحلة البكاء وذرف الدموع وتصوير ما حاق بالناس من مصائب، إنه حملهم على أن يسلكوا السبيل الأصوب في مثل هذه المواقف؛ فقد أصبح الشاعر نذيراً لأمته بالشرور التي ستطبق عليهم في الدنيا وبغضب الله في الآخرة إذا هم ظلّوا متقاعدين عن الجهاد لدرء الأخطار، فلقد قال الشاعر لأهله إن الدموع لا تغني في حروب السيوف، فدعاهم للتجمع والرد فوراءهم ما يذل الأعزة. ويبكّتهم على تقاعدهم ليهبوا للجهاد:

أتهويمةً في ظل أمن وغبطة وعيش كنوّار الخميلة ناعم

وقابل لهم بين الصورتين غير المتوازنتين: قتال فريق من المسلمين وتقاعد الفريق الآخر. وما أفعل قوله وأشد تأثيره: أرى أمتي لا يشرعون إلى العدا... إلخ البيت.

فقوله أمتي فيها الإيجاز والتأثير ومنطقة النداء والدعوة. ومرة يمدحهم بالشجاعة والنخوة ويذكرهم بها ليهبوا للجهاد، ومرة يناقشهم في أسباب الدفاع والصمود؛ أما حينما يخامره الشك في أن يستمعوا إلى نداءاته هذه كلها يلجأ للتأثير عليهم من جهة أخرى هي جهة التذكير بالنساء والأعراض واحتمال وقوعها تحت أيدي الأعداء المهاجمين.

وكذلك يفعل الشاعر المجهول، فبعد أن يصور لهم ما حاق بأهاليهم من شقاء وهوانٍ يدعوهم، بصريح العبارة، إلى تلبية نداء الله بالجهاد والثأر للكرامة الإسلامية، ديناً ومتدينين وبلاداً ومسلمين.

القيمة الفنية لهذه النصوص:

إن من يقرأ قصيدة الأَبِيوَرْدي، إثر احتلال الصليبيين للقدس، يحس بقوة شخصيته إحساساً قوياً، كما أنه لا يملك إلاّ أن يتأثر، من بعد، بما فيها من عناصر التأثير المختلفة.

أما صياغة المفردات والتراكيب فنحسّ بما فيها من جزالة وقوة، تتناسب مع الموضوع الذي تصوره، موضوع مآسي الحروب وهزائم قوم ليس لهم إلاّ النصر؛ إنك تحسّ أن القصيدة قد نظمت أبياتها في عصور أدبية متقدمة، ومع ذلك فإن معانيها لا تدق إلاّ على العوام، وربما احتاج بعضها إلى الكشف عن بعض المعاني في المعاجم: اللهاذم، المراجم، الطُلا، البُرى.

ولقد أظهر الشاعر قدرة بيّنة على تطويع هذه التراكيب في الإتيان بالمعنى وما يكمله أو يعلق عليه؛ فبكاء الدم، في البيت الأول، مؤثر ولكنه، كما استدرك الشاعر في البيت الثاني، غير نافع في المعارك! وتتضح هذه القدرة أيضاً في تقليب معاني الجهاد الدينية والدنيوية:

فليتهم، إذ لم يــذودوا حميــة   عن الدين، ضنوا غيرة بالمحارم
وإن زهدوا في الأجر، إذ حميَ الوغى،   فهـلا أتـوه رغبـة في الغنـائم؟

ولعل قوة الشخصية تنبع، غالباً، من هذه القدرة على تقليب المعاني المختلفة ببيان عربي مبين، فبعد أن أنذر الشاعر قومه بما يراه من مآسٍ، إن هم لم يهبّوا لردع العدوان، وبعد أن صوّر لهم شراسة المعارك التي خاضها أخوانهم المتصدون للدفاع عن بلاد الإسلام، هددهم أن يلجأ المحاربون إلى مسالمة الأعداء! مع ما فيها من إذلال واستسلام.

ومن عناصر التأثير الأسلوب. إن الشاعر عرض موضوعه بأسلوب تقرير مباشر، ورد أكثره بطريقة الجمل الإخبارية، ووردت فيه أيضاً الجمل الإنشائية: فإيهاً بني الإسلام! أتهويمة؟ وكيف تنام العين؟ أترضى صناديد الأعاريب؟. ولقد خرج الاستفهام الكثير عنده إلى معنى الإنكار والتوبيخ ليعبر عن اللهجة التقريعية التي جعل يخاطب بها قومه، ومن الجمل الإنشائية حضه وتمنيه: فهلّا أتـوه، فليتهم... ويتكرر عنـده في الأبيات الأخيـرة الجمل الشرطية: لئن أذعنت... فلا عطست، فإن أنتم... رمينا.

كما أن من عناصر التأثير الصورة الأدبية. ولقد كان للشاعر منها نصيب بيّن، فهي تبدأ مع بداية القصيدة، في تصوير شدة البكاء بالدم بدلاً من الدموع، ثم في تصوير هوانِ سلاح الدموع أمام سلاح الأعداء في المعارك، ثم صورة إلحاق الـذُّرا بالمناسم، وما فيها من عنصر الإذلال للكبراء، ثم في التصوير الدقيق لحال المسلمين المحاربين مقابل أخوانهم الذين أركنوا إلى عيش هنيء ودَعَة «كنوّار الخميلة ناعم»! إنها صورة ناطقة بكل بلاغة وبيان؛ وهذه هي وظيفة الصورة الأدبية في توضيح الأفكار وجلائها جلاءً يكاد يصل إلى التجسيم والتشخيص.

ومن أروع الصور المعبّرة في هذه القصيدة مـا تكرر ذكـره في هذا التحليل، وهو صورة الحريم المدافعات عن أنفسهن بمعاصمهن ولا شيء غير معاصمهن!! هذا بعد تشبيههن بالدُّمى؛ إنها صورة مثيـرة للخيال مثيـرة للأعصاب والإحساس والفكر معاً.

كما أن تصويره للمعارك لا يمكن تناسيه في الأبيات التاسع والعاشر والثاني عشر، إنها تذكرنا بسيفيات المتنبي وروميات أبي فراس.

وثمة صورة رائعة رسمها الشاعر في أخريات قصيدته في قوله:

لئن أذعنت تلك الخياشيم للبُرى   فلا عطست إلا بأجدع راغم

إن صورة المشبه به واضحة في الدواب التي توضع في أجزاء من خياشيمها قطع مستديرة من المعدن لتسهل قيادتها، أما المشبه فهو واضح، فلئن قبل المسلمون اليوم بذل الهزيمة فإنهم لن يلدوا إلّا ذليلاً مهيناً.

ووراء كل عناصر التأثير هذه مؤثر العاطفة. وهو في هذه القصيدة حارّ حادّ النبرة شديد الدرجة؛ يتبيَّن ذلك من نداءات الشاعر المتعددة للمسلمين للجهاد ومن اللهجة التقريعية التي يوجه لهم بها تساؤلات استنكارية، كما رأينا في أسباب القعود والتخلف عن نصرة أخوانهم، ولو لم تكن التجربة الشعورية التي اجتازها الشاعر في خلال هذه القصيدة، صادقة؛ أي لو لم تكن أحاسيسه بموضوع قصيدته صادقة لما كان لها كل عناصر التأثير المؤثرة فينا من بعد نحو من تسعة قرون!!! وآية ذلك أننا نكاد نحس بنَفَس الشاعر اللاهب يلفح وجوهنا ونحن نستمع إلى زفراته ونداءاته[1]!

أما القصيدة البائية فيوحي لنا ظاهرها ببساطة الصياغة وسهولة التراكيب سهولة بيّنة. ولعل للشاعر عذراً في ذلك، فهو يريد أن تصل كلماته إلى جميع أفراد الأمة ليتمم التأثر والتأثير منها؛ وقديماً سئل بشار بن برد عن سبب إكثاره من شعر المقطعات وما فيها من سهولة فقال: إن ذلك أسير في الناس!

ولكن ما يلفت الانتباه في هذه القصيدة هو البناء الداخلي للأفكار الواردة فيها. فهو يلجأ إلى التفصيل بعد الإبهام؛ ففي البيت الأول غموض توضحه الأبيات الخمسة التالية له، توضيحاً كأن فيه التعداد والترتيب؛ كما يلجأ إلى ذكر الخاص بعد العام، كما عرف في بلاغة الإطناب، فبعد أن ذكر المسلمة

(١) ولا يفوتنا، في النهاية، هنا، إلى أن نشير إلى ما في البيت الثالث عشر من مبالغة لا نقبلها في حق الرسول، عليه السلام، وذلك بتأثره ودعوته لآل هاشم دون المسلمين، مع ما في كلمة «المستجنّ» من نبوّ في المعنى وفي اللفظ معاً.

المسلوبة المحرمات في البيت الثالث عاد إليه في البيت السابع ليقف عنده وقفة أطول ويدعو قومه منها نداء أطول وأشد تأثيراً؛ ويحسّ القارىء لهذه القصيدة، على صغر حجمها، أن فيها وحدة موضوعية بديعة الصنع، فالبداية فيها إيجاز وغموض لا يلبث أن يجد طريقه إلى التوضيح والتفصيل، ثم إن القصيدة تختتم ختاماً مناسباً لموضوعها متمماً له، فبعد التساؤلات الصارخة في البيتين السابع والثامن يستلّ الشاعر منهما نداء يوجهه لهؤلاء الذي كان يسائلهم، ولقد أودع، في النداء الأخير في القصيدة، كل ما يمكن أن ينهض به نداء مؤثر يتصل بالعقيدة الدينية التي يدين بها من يوجه إليهم النداء؛ وماذا بعد أن يعرضهم مباشرة لتوجيه دعاء الله، جل وعلا، لتلبية داعي الجهاد؟!.

إن هذه الوحدة الموضوعية تُحدث أثرها الفعّال في نفوس القرّاء والسامعين، فوحدة الأثر في العمل الأدبي من صفات الأدب الناجح.

ولا حاجة بنا أن نتلمس العاطفة التي أوحت بهذا كله، فهي بارزة بروزاً بيّناً من خلال ما يصعّد الشاعر من زفرات الألم، وهو يعدد مظاهر الضيم الملمّ بالدين وأصحابه، ومن خلال صرخات الشاعر العالية، ونداءاته المؤثِّرة لبني قومه ودينهِ، بالتجاوب مع هذه المأساة التي تثير الحزن من الأعماق، ومن خلال تكرار كلمة «أجيبوا» في النداء الأخير، وما في الجملة الدعائية «وَيْحَكُمْ» من الإنذار بشرور قادمة، في الدنيا وفي الآخرة، إذا استمر القعود عن الجهاد!!.

دور النثر

١ ـ استيلاء الصليبيين على بيت المقدس :

ورد في كتاب «فضائل القدس»[١] لأبي الفرج بن الجوزي (٥٩٧)[٢] النص التالي:

«أخذ الفرنج بيت المقدس يوم الجمعة ثالث وعشرين شعبان سنة اثنتين

(١) تحقيق د. جبرائيل جبور، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٠، ص ١٢٥.

(٢) هو جد سبط بن الجوزي الفقيه المتوفى عام ٦٥٤، وهو صاحب مؤلفات كثيرة منها عن سيرة عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز.

وتسعين وأربعمئة، وقتلوا زائداً على سبعين ألف مسلم، وأخذوا من عند الصخرة نيفاً وأربعين قنديلاً من فضة، كل قنديلٍ وزنه ثلاثة آلاف وستمئة درهم، وأخذوا تنوراً من فضة وزنه أربعون رطلاً بالشامي، وأخذوا نيفاً وعشرين قنديلاً من ذهب ومن الثياب وغيرها ما لا يحصى . . . » ا هـ.

وجاء في «تاريخ الخلفاء»[1] للسيوطي عن أحداث عام (٤٩٢ هـ) ما يلي:

«ومنها أخذت الفرنج بيت المقدس بعد حصار شهر ونصف، وقتلوا به أكثر من سبعين ألفاً، منهم جماعة من العلماء والعباد والزهاد، وهدموا المشاهد[2]، وجمعوا اليهود في الكنيسة وأحرقوها عليهم؛ وورد المستنفرون إلى بغداد فأوردوا كلاماً أبكى العيون، واختلفت السلاطين فتمكنت الفرنج من الشام» ا هـ.

يتخذ حديث ابن الجوزي، (٦٥٤ هـ)، عن سقوط القدس بأيدي الصليبيين، طابع البحث العلمي في إيراد الحقائق التاريخية؛ فهو يحدد تاريخ استيلاء الفرنجة عليها باليوم والشهر والسنة، ويحدد عدد القتلى، ويورد قائمة حسابية بخسائر المسلمين من موجودات المسجد الأقصى من قناديل الذهب والفضة، إلا أن في كلمة «غيرها» تعمياً يدل على الكثير ولكنه لا يدل على شيء بعينه.

ويضيف نص السيوطي (٩١١ هـ)، إلى النص الأول، بعض الحقائق التاريخية، مثل مدة الحصار ومثل الإشارة إلى طبقات القتلى من المسلمين أثناء الاستيلاء على المسجد الأقصى ومثل تغيير معالم المدينة الإسلامية؛ ومن المعروف أن قسماً كبيراً مما أتى به السيوطي في مصنفاته العديدة منقول من كتب الذين سبقوه. وفي هذا النص ما يدل أنه قد نقل عن النجوم الزاهرة وهو يمهِّد لقصيدة الأبيوردي؛ لكن أكثر ما يلفت الانتباه في نصه هو إشارته إلى أسباب تمكن الصليبيين من بلاد المسلمين، إنه اختلاف السلاطين، وكفى به مفرقاً ومضيعاً!.

---

(١) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد طبعة القاهرة، ١٩٥٩، ص ٤٢٧.

(٢) أي هدموا المعالم الإسلامية المميزة للحضارة الإسلامية.

٢ ـ حال المسلمين في عام (٥٢١ هـ):

جاء في كتاب «التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية»[١] لابن الأثير[٢]، عن حال المسلمين عام (٥٢١ هـ) ما يلي:

«... فنجوم سعد المسلمين منكدرة، وسماء عزهم منفطرة، وشمس إقبالهم مكوَّرة[٣]، ورايات المشركين خلال ديار الإسلام منشورة، وأنصارهم على الإيمان منصورة...».

«وكانت مملكة الإفرنج، حينئذ، قد امتدت من ناحية ماردين وشبختان[٤] إلى عريش مصر[٥]، لم يتخلله من ولاية المسلمين غيرُ حلب وحمص وحماة ودمشق. وكانت سراياهم تبلغ من ديار بكر[٦] إلى آمد[٧]، فلم يبقوا على موحد ولا جاحد، ومن ديار الجزيرة[٨] إلى نصيبين[٩] ورأس العين. فاستأصلوا ما لأهلها من أثاث وعين».

«وأما الرقة وحرّان فقد كان أهلها معهم في ذل وصغار واستضعاف وانتشار».

«وانقطعت الطرق إلى دمشق إلّا على الرحبة[١٠] والبر، فكان التجار والمسافرون يلقون من المخاوف مشقة ونصباً».

ثم زاد الأمر وعظم الشر حتى جعلوا على كل بلد جاورهم خراجاً وإتاوة

---

(١) تحقيق عبد القادر طليمات، دار الكتب الحديثة، ١٩٦٣، ص ٣٢، ٣٣.
(٢) عز الدين ابن الأثير الشيباني الجزري (٥٥٥ ـ ٦٣٠) مؤرخ ومحدث، صاحب كتاب «الكامل في التاريخ».
(٣) التكوّر: التقطر والسقوط (القاموس المحيط).
(٤) مدينتان في أقصى شمال سوريا.
(٥) مدينة في أقصى جنوب فلسطين.
(٦) منطقة في شمال شرقي سوريا.
(٧) مدينة في شمال غربي سوريا.
(٨) الجزيرة الفراتية: ما بين دجلة والفرات من الأراضي السورية.
(٩) مدينة في شمالي سوريا.
(١٠) اسم لأحد أبواب دمشق، وتنسب لمالك بن طوق فيقال رحبة مالك أو رحبة ابن طوق.

يأخذونها منهم ليكفوا أيديهم عنهم، ثم لم يقنعوا بذلك حتى أرسلوا إلى مدينة دمشق واستعرضوا الرقيق ممن أخذ من الروم والأرمن وسائر البلاد النصرانية، وخيَّروهم بين المُقام عند أربابهم أو العودة إلى أوطانهم».

وأما حلب فإنهم أخذوا مناصفةً أعمالها، حتى في الرحى[1] التي على باب الجنان[2]، وبينها وبين المدينة نحو عشرين خطوة» اهـ.

يتناول المؤرخ عز الدين بن الأثير الحديث عن أحوال المسلمين بعد ثلاثة عقود من استيلاء الصليبيين على القدس، فيقدم لكلمته بجمل ذات طابع إنشائي أدبي، متأثرة بآي القرآن الكريم، تدل، جميعها أو كل واحدة منها، على ما يعاني المسلم إذا هزمه أعداء دينه. ولعلِ أبلغ هذه الجمل قوله: ورايات المشركين خلال ديار الإسلام منشورة!! فبدلاً من أن ترفرف راية التوحيد على كل الأمصار انقلبت الأوضاع!

ولا يلبث أن يغلب على كتابته روح المؤرخ الذي يورد الحقائق العلمية، لذلك تراه رسم لديار الإسلام الشامية خريطة جغرافية دقيقة، أوضح فيها مدى تحكم الفرنجة بأغلب رقاع هذه الديار، في أريافها وبواديها وفي حواضرها التي تدخلوا في شؤونها الداخلية وفرضوا على أهلها إتاوات وخراجاً!! وما رواه عما حدث لأسرى النصارى في بلاد الإسلام يدل دلالة معبرة على مبلغ ما وصل إليه أمر المسلمين، حينذاك، من الهوان على أيدي الفرنجة المعتدين.

٣ ـ حض على تخليص بيت المقدس من أيدي المحتلين:

أرسل نور الدين محمود برسالة إلى الخليفة العباسي، المستضيء بالله، في بغداد، وقد جاء في بعضها:

«... وقسطنطينية والقدس يجريان إلى أمد الفتوح في مضمار المنافسة، وكلاهما في وحشة ليل الظلام المدلهم على انتظار صباح المؤانسة، والله تعالى

---

(١) إحدى ضواحي حلب.

(٢) أحد أبواب حلب.

بكرمه، يدني قطاف الفتحين لأهل الإسلام ويوفق الخادم لحيازة مرامي الإمام . . . »[1] ا هـ.

إن هذا السلطان المجاهد يحلم بفتح القدس وغيرها ويطلب إلى الله أن يعينه ويعين المسلمين على بلوغ هذا الهدف السامي.

نص آخــر :

أرسل السلطان الناصر، صلاح الدين، رسالة إلى الخليفة العباسي، في بغداد، وصف فيها استيلاءه على معظم مدن الساحل الشامي وانتصاراته في عكا وحطين، وهو يتهيأ لاستعادة القدس، وقد جاء في آخرها، وهي بقلم العماد الكاتب:

« . . . . . .وما يتأخر النهوض إلى القدس، فهذا أوان فتحه، ولقد دام عليه ليل الضلال، وقد آن أن يسفر فيه الهدى عن صبحه. . . »[2] ا هـ.

وهذا خليفتهم السلطان صلاح الدين ينهض لفتح القدس بعد أن أعدَّ لها العدّة، فهي تعيش في ظلام الكفر ولا بدّ من إعادتها إلى نور الإسلام!!.

القيمة التاريخية في هذه النصوص :

توضح هذه النصوص ما لحق بالمسلمين من قتل وإذلال ونهب لدى احتلال الصليبيين لبيت المقدس، كما توضح مبلغ الهوان الذي تعرضوا له حينما استحكم الأعداء في إدارة شؤون بلادهم المحتلة، فيما بعد وهي، في الوقت نفسه، تنبىء عن إعداد المسلمين لاستعادتها وتصميمهم عليه وشروعهم بالعمل على دفع المعتدين.

---

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، أبو شامة القدسي، الجزء الأول، القسم الثاني، ص ٥٤٧.

(٢) المرجع السابق، طبعة ١٢٨٧هـ الجزء الثاني ٨٩، وهنا نستذكر نصاً آخر بهذا الخصوص، مرّ بنا، وأرسله صلاح الدين إلى الخلافة، بقلم القاضي الفاضل، انظر مفرج الكروب، ابن واصل، الجزء الثالث ص ٢٨٩.

أما التقتيل فقد وصل إلى السبعين ألفاً عدّاً، وهـو في حد ذاته، كافٍ لتصور حجم المأساة البشرية وشراسة الهجمة الوحشية التي لا تفرق بين عالم وعابد وبين أي ضحية بشرية مسلمة أخرى! وأما التخريب فيتمثل في هدم معالم المدينة المقدسة وإحراقها، وأما النهب فيبدو في سلب المعادن الثمينة من ذهب ومن فضة من محتويات الحرم المحتل.

وأما إحكام قبضة الأعداء على ما احتلوا من بلاد المسلمين فيتضح من اتساع مملكتهم حتى تشمل أغلب بلاد الشام من ماردين في الشمال إلى العريش في الجنوب، ومن السواحل الشامية إلى أواخر الجزيرة الفراتية شرقاً، لم يكد يسلم من احتلالهم إلّا بعض الحواضر.

وهذه الحواضر أيضاً كانت محتلة بمعنى من معاني الاحتلال؛ فمدن الجزيرة نهب منها الغالي والرخيص من الممتلكات وعاش أهلها مع الأعداء عيشاً ذليلاً أخف منه الحمام، كما يقول المتنبي، وحلب حملت على أن تضع لهم نصف محاصيلها من الثمار والزروع، وأما دمشق فكانت مصيبتها بهم أعظم، فلقد أغلقت الطرق المؤدية إليها وحمل المتاجرون على سبل ضيقة حدّدت لهم، ثم اقتحموها واستخرجوا منها ما كان قد أسر من نصاراهم من قبل واشتغل فيها! وهذا غاية الاستهتار والامتهان!!! كيف لا وقد ارتفعت رايات الشرك والمشركين على بلاد التوحيد والإيمان؟

غير أن كل هذه المظاهر المحزنة لاحتلال الصليبيين لديار الإسلام لم تذهب سُدىً، فقد كانت حافزاً قوياً على الثأر لدين الله وعلى الاستمرار في الجهاد في سبيل الله طيلة مدة الصراع؛ فالقدس لم تقع بيد الأعداء غنيمة باردة، لقد قاومت الزحوف الغاشمة، على قلة إمكاناتها وانفراد الأعداء بها، شهراً ونصف الشهر، في معركة غير متكافئة الجبهات، ودونما عون من جهة من بلاد المسلمين الشاسعة الأطراف! فقد كان السلاطين مختلفين، كما يذكر النص، فالفاطميون في مصر وشمال إفريقيا رفضوا الإغاثة لأنهم على مذهب الشيعة ولا يغيثون أهل السنة، ومركز الخلافة في بغداد لم يقدم شيئاً من العون، على الرغم مما وصل إلى أعتابه من بُكاة ومن شُكاة، كما حدثنا نص

سابق مَهَّد لقصيدة الأبيوردي في كتاب النجوم الزاهرة، ولعل في هذا إشارة إلى تشخيص السبب فيما آلت إليه أحوال المسلمين؛ لكنها لم تقعد بهم عن التفكير برد العدوان، فهذا نور الدين زنكي يعقد العزم على تحرير القدس ومعها القسطنطينية من أيدي المحتلين، وقد انتقل هذا العزم إلى خليفته صلاح الدين وظل أملاً يرغب فيه كل المسلمين حتى صار، ذات يوم، حقيقة بهرت الأعداء والأصدقاء.

وفي النصوص ما يدل على فهم منطق التاريخ، فلكل شيء آن، ولن يكون تخليص حاضرة المسلمين في بلاد الشام في يوم وليلة. إن الأمر يحتاج إلى الكثير من الإعداد والاستعداد وجمع القوة وتجميع القدرات، وهذا ما أدركه القائل في تخليص القدس: «اغز الفرنج، فهذا وقت غزوهم».

ومما يلحظ في النصوص أيضاً أن الكُتَّاب كانوا يقرنون بين حكم الفرنجة لبلاد المسلمين وبين الظلام والضلال والجهل، كما يقرنون بين تخليصها وإعادتها إلى حوزتهم وبين الصبح والإسلام والهدى، وهذا إدراك لسر الانتصار على الكفار في معركة الإيمان؛ ألسنا نرى أن نور الدين يسأل الله تعالى أن ييسّر له فتح القدس للمسلمين؟ إنه استيعاب لقوله تعالى ﴿ وما النصر إلاَّ من عند الله ﴾.

القيمة الفنية في هذه النصوص:

إن من ينظر في هذه النصوص التي عاصرت أحداث هذه المرحلة من مراحل الحروب الصليبية وأرَّخت لها، يستطيع أن يشير إلى شيء من أثر الصنعة في الصياغة فيها؛ فابن الأثير يلتزم بالسجع في السطر الأول والثاني، كما يكاد يلتزم به ما كتب في عهد نور الدين وعهد صلاح الدين.

غير أن الباحث يرى أن هذا المحسّن البديعي، أو غيره، لم يفرض على جميع هذه النصوص فرضاً لا تنازل فيه؛ فلا يلبث ابن الأثير حينما يأخذ في وصف مملكة الأفرنج أن يتخلّص منه، إلاّ في القليل النادر، أما أبو الفرج بن الجوزي فلا يأتي منه بشيء.

إن مظاهر الصبغة البديعية لم تتحكم في الكتابة الفنية في هذا العهد تحكماً تاماً. وفي النصوص المعاصرة ما لا ترى فيه منها شيئاً.

ويلفت الانتباه في كتابي ابن الأثير وابن الجوزي طغيان الحقيقة العلمية على الأسلوب، فقد ضحى الواحد منهما بالجمال الفني فيما يكتب في سبيل ذكر الحقيقة العلمية التاريخية التي يعرضها.

كما يلفت الانتباه أن ما كتب على لسان نور الدين وعلى لسان صلاح الدين، لم تَجْرِ الصنعة فيه على المعنى، بالرغم من الإكثار منها، فلقد أوفى الكاتب فيهما على ما أراد من معنى.

* * *

وبعد، فربما اتضح ما قامت به النصوص الأدبية في هذه المرحلة من عصور الحروب الصليبية من تسجيل أحاسيس النفس الإسلامية التي عاشت هذه الأحداث.

فلقد عرضت هذه النصوص لأحزان النفوس المعاصرة بسبب ما حاق بالدين أولاً من ضيم ثم عرضت، من بعد، لما لحق المسلمين من ضروب الهوان على أيدي غزاة المعتدين، وبسبب ما تقاعس عنهم من أخوانهم المسلمين؛ وما أفظع ما عرضت له من الإذلال والتقتيل والنهب والاغتصاب وتغيير الهوية الإسلامية عن المساجد.

ولكن ما لا يمكن إنكاره أيضاً أن هذه النصوص، منذ اللحظة الأولى من الهجوم الصليبي قد أخذت في تذكير المتقاعسين عن الجهاد من المسلمين بنتائج هذا التقاعس عليهم وعلى ذراريهم، في الدنيا وفي الآخرة.

ولم تقف عند هذه الخطوة من التذكير والإنذار، ولكنها جعلت ترسم لهم سبل الخلاص، في العمل الجاد وفي الجهاد في سبيل إعادة ما وضع عليه الأعداء أيديهم إلى الحوض الإسلامي؛ وقد ارتبطت هذه النصوص كلها أولاً بالانطلاق من العقيدة الإسلامية في الجهاد وفي الذب عن حياض الإسلام والمسلمين.

الفصل الثاني

دور الأدب
في تصوير الجهاد والتحرير في المرحلة الثانية
(٥٣٨ - ٥٨٣هـ)

تمهيد:

لقد قاوم المسلمون في بلاد الشام الغزوَ الصليبي منذ اللحظة الأولى، كما تبين لنا في دعوات أدب المرحلة السابقة بالثبات والصمود على الجهاد وبتجميع القوى لإعادة ما أخذ من البلاد، ولكن هذه المقاومة لم تكن قد اكتملت لها أسباب النجاح بعد، فظلت في زوايا التاريخ والأدب، إلى أن قيض الله لهذه الأمة القادة المجاهدين المخلصين، الذين استشعروا حق الله عليهم وحق الدين والوطن، وشرعوا يعدّون، بكل ما أوتوا من قوة الروح والجسد، من أجل إعادة نشر كلمة الله على ما نزعت عنه من ديار المسلمين.

وإذا درج الباحثون على أن يؤرخوا بانتصار عماد الدين زنكي في تحرير

---

(١) من المفيد أن نميز، هنا، بين دلالات بعض الألفاظ وتطورها خلال العصور. فكلمة «تحرير» مثلاً نستخدمها، اليوم، مشتقة من الحرية وهي الخلوص من الشوائب أو الرق أو اللؤم أو الأسر، لكنها كانت فيما مضى تدل على إصلاح الكتاب وتجويد خطه إذا قلنا حرّر كتاباً، ووردت في القرآن الكريم بمعنى عتق الرقبة (فتحرير رقبة)، والتحرير بهذا المعنى المادي في اللغة هو، عادة، الأقدم، ثم يأتي، من بعد، المعنى الاصطلاحي.
وترد في هذا البحث كثير من مثل هذه المفردات، «فشحنة» مثلاً كانت تعني في عصر الحروب الصليبية مركز الوالي الذي يعينه السلطان في بلد ما، ولكننا نستعملها اليوم بمعنى ما نضع في الشيء من قوة الدفع والتأثير. وكلمة «قائمة» وما كانت تعني من أحد أطراف الحيوان أو إحدى أرجل بني الإنسان وما صارت تعني من مجموعة أسماء مرتبة، وأمثالها كثير.

إمارة الرها عام(٥٣٩ هـ)بداية لهذه المرحلة فإن الانتصارات كان قد أحرزت، حقّاً، قبل هذا التاريخ،فقد انتصر عماد الدين على الفرنجة عام (٥٢٣ هـ)، ولكن هذا النصر لم يكن فاصلاً حتى يشار إليه بأنه علامة مميزة في هذا التاريخ.

ولقد رصد الأدب، في هذه المرحلة، لجميع أحداثها، فسجل الانتصارات المجيدة في المعارك الفاصلة تسجيلاً كان يتابع، من خلالها، تفاصيل هذه المعارك، كما يتابع أثر هذه المعارك على نفوس المسلمين، كما يمكن أن تقفنا على ذلك كله مجموعة النصوص المناسبة.

أولاً ـ دور الشعــــر

١ ـ في التهنئة بفتح إمارة الرها:

يقول الشاعر محمد بن نصر المعروف بابن القيسراني[1] مهنئاً عماد الدين زنكي بفتح إمارة الرها عام (٥٣٩ هـ) من قصيدة طويلة:

١ ـ هو السيف لا يغنيك إلا جلاده وهل طوّق الأملاك إلّا نجادُه[2]
٢ ـ سمت قبة الإسلام فخراً بطوله ولم يك يسمو الدين لولا عماده[3]

إنه يفتتح قصيدته بذكر السيف فيفضله، في علاج الأمور المستعصية، على سائر الحلول، فلا يحمي البلاد إلّا القوة، ولا يعلو عِزّ للدين إلّا بها، ولا بدّ لهذا الدين من رجال تسنده وتقف وراءه من أمثال هذا القائد المجاهد، عماد الدين زنكي.

ثم يهنىء المسلمين بما توفر لهم من الأمن، الذي كان مفقوداً من قبل، ويهنِّئهم بهذا الفتح الذي يلذّ للأسماع أن تستمع إليه منذ الآن إلى يوم القيامة!.

٣ ـ ليهنِ بني الإيمان أمن ترفعت رواسيه عزّاً واطمأن مِهادُه[4]

---

(١) توفي عام ٥٤٧هـ.
(٢) الجلاد: المجالدة وهي المضاربة بالسيف، الأملاك: الممالك، النجاد: حمالة السيف.
(٣) في كلمة عماد تورية. (٤) المهاد: الأرض المنخفضة المستوية.

٤ ـ وفتحُ حديثٌ في السماع، حديثه شهيٌّ إلى يوم المَعاد مُعاده[1]

ومنهـــا:

٥ ـ مدينة أفك منذ خمسين حجة يفل حديدَ الهند عنها جِداذُه[2]
٦ ـ فلا مطلق إلاّ وشُدّ وثاقهُ ولا موثق إلاّ وحل صفادُه
٧ ـ ولا منبر إلاّ ترنح عوده ولا مصحف إلاّ أنار مدادُه[3]

لقد تحكم المشركون في هذه المدينة نحواً من خمسين عاماً، من (٤٩٢) إلى (٥٣٩ هـ). ولقد غلبت سيوفه القاطعة دفاع الفرنجة عنها، ونتج عن ذلك أن أسر الأعداء جميعاً، وأطلق سراح أسرى المسلمين، وعادت الخطب الإسلامية إلى المنابر التي كانت مهجورة، وعاد الناس لقراءة آيات القرآن الكريم.

ويختتم قصيدته بتوجيه نداء إلى أسرى المشركين يخبرهم فيه أن ليس لهم مفر من قبضة عماد الدين، ويطلب ممّن لم ينهزم من المشركين أمامه أن يكفّ عن القتال ويسلِّم ما تحت يده من البلاد، فالقائد المسلم تؤيده ملائكة السماء، وهو منتصر على أعدائه، لا محالة، أينما ثقفوا:

إلى أين يا أسرى الضلالة بعدها لقد ذَلَّ غاويكم وعز رشاده[4]
وقل لملوك الكفر تسلمُ بعدها ممالكَها، إنَّ البلادَ بلادُه
ومن كان أملاك السماوات جندَه فأية أرض لم تَرُضْها جياده[5]

٢ ـ في التهنئة بتحرر حصن حارم:

وقال الشاعر نفسه يهنيء نور الدين محمود بتخليص حصن حارم من

---

(١) يوم المعاد: يوم القيامة، مُعادُه: من الإعادة والتكرار.
(٢) أي أن أسلحته الحادة تحطم سيوفهم.
(٣) ترنح أعواد المنابر بسبب الخطب المؤثرة.
(٤) عز: ندر وقل.
(٥) أملاك: أي الملائكة. راجع، لهذه القصيدة، كتاب الروضتين، طبعة ١٢٨٧ هـ الجزء الأول ص ٣٧.

الفرنجة وبقتل صاحب أنطاكية عند حصن إِنِّبْ عام (٥٤٤ هـ)، من قصيدة مطلعَها:

هذي العزائم لا ما تدّعي القضب　　وذي المكارم لا ما قالت الكتب[١]

ومنهـــا:

أغـرت سيوفُـك بالإفـرنـج راجفـةً　　فؤادَ روميـة الكبـرى فـــا يَجِبُ[٢]
ضـــربت كبشهم منهـا بقـــاصمـــة　　أودى بها الصُلْب وانحطت بها الصُلُب[٣]
غضبت للدين حتى لم يفتك رضىً　　وكان دين الهدى مرضاتـه الغضب
من كان يغزو بلاد الشرك مكتسباً　　من الملوك، فنور الدين محتسب[٤]

ويستعير الشاعر، هنا من بائية أبي تمام في مدح المعتصم حينما فتح عمورية، يستعير نفسيته وقالبه الشعري، فيرفع منزلة الهمة العالية للقائد عن جميع الأسلحة، فالهمة هي الدافع لكل حرب، وهي أشد تأثيراً من كل ما تحدثنا به الكتب؛ ولكنه لا يلبث أن يذكر أثر السيوف على قلب روما، حاضرة الفرنجة، فهو صاعق قد يمنعها من الدفاع عن نفسها.

وحينما يمدح نور الدين ويذكر قتله لقائد المشركين، قتلاً أذل الرجال وهزم الصلبان، يرجع سبب انتصاره عليه إلى البحث عن رضى الله، فهذا القائد المجاهد لا يغضب لنفسه، وإنما يغضب لنصرة كلمة الله، يحتسبها عند الله يوم القيامة، في حين أن غيره قد يبحث، في جهاده، عن المطامع الدنيوية!.

٣ ـ في التهنئة بالانتصار في معركة حطين:

وحينما يهيىء الله تعالى للنصر، على يد صلاح الدين، في معركة حطين، عام (٥٨٣ هـ)، يكثر الشعراء، على اختلاف أقدارهم، من مدحه وتهنئته بهذا النصر المبين، حتى أنه:

---

(١) القضيب: هو الغصن اللدن يشبه به السيف القطّاع.
(٢) يجب: من الوجيب وهو الاضطراب والحركة.
(٣) الكبش: رئيس القوم، الصلْب: الظهر، الصلُب: ج صليب.
(٤) محتسب: منتظر الأجر من الله يوم القيامة.

لم يخل سمعٌ من هناءٍ مهنئٍ للمسلمين ومن سماعٍ مبشرِ

كما قال أحد الشعراء(1)، وحتى بلغ الشعراء الذين أطروا هذا النصر وقائده وجنده خمسين شاعراً(2)، نختار منهم واحداً فقط هو العماد الكاتب الأصبهاني، ونكتفي منها بأبيات معدودة من قصيدته:

يا يوم حطين والأيام عابسة وبالعجاجة وجه الشمس قد عَبَسَا(3)
رأيت فيها عظيم الكفر محتقراً معفراً خدُّه والأنفَ قد تَعِسَا
يا طهرَ سيف برى رأس «البرنس»، فقد أصاب أعظم من بالشرك قد نجسا(4)

لقد كان وجه المعركة باسماً للمسلمين مع أن الأيام قد عبست للأعداء، وارتفع غبار المعركة حتى غطى عين الشمس، وفيها قتل قائد الفرنجة قتلة شنيعة معفراً في التراب، فما أطهر السيف الذي قطع رأس هذا القائد المشرك النجس!!!.

٤ ـ التهنئة بفتح القدس:

أما فتح القدس فلقد عمّق الأثر في قلوب المسلمين، إذ كان الأمل المنشود منذ أيام استيلاء الصليبيين عليها، قبل نحو من قرن؛ لذا كثرت فيها الأشعار والخطب كثرة تستغرق أبحاثاً موسعة، ولن يسعفنا المقام بغير أمثلة قليلة منها.

يقول رشيد بن بدر النابلسي في هذه المناسبة:

١ ـ هذا الذي كانت الآمال تنتظر فلْيُوفِ لله أقوام بما نذروا
٢ ـ بمثل ذا الفتح، لا والله، ما حُكيت ، في سالف الدهر، أخبارٌ ولا سِيَرُ
٣ ـ حين به حان هُلكُ المشركين، فيا لله طيبُ العشايا فيه والبُكَرُ(5)

---

(1) كتاب الروضتين، طبعة ١٢٨٧ هـ الجزء الأول ص ٨٤.
(2) راجع لذلك الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية، د. أحمد أحمد بدوي ص ٤٣٤.
(3) العجاجة والعجاج: غبار المعركة.
(4) الروضتين ٢/١٠٢.
(5) العشايا: جمع عشية وهي آخر النهار، البُكَر: جمع بكرة وهي الصباح الباكر.

٤ ـ الآن قرّت جنوبٌ في مضاجعها ... ونام من لم يزل حلفاً له السهر[١]

يطالب الشاعر الذين نذروا لله نذوراً، إن فتح الله القدس للمسلمين، يطالبهم بالوفاء، فقد تحققت الآمال التي كانت منتظرة منذ زمن طويل، وتجيش نفس الشاعر بهذا النصر جيشاناً شديداً حتى يقسم بالله أنه أروع ما شهد المسلمون من انتصارات متناسياً، سامحه الله، غزوات الرسول عليه السلام، وحروب صحابته الأبرار، وأثرها جميعاً على الإسلام والمسلمين.

وفي وصفه لهذا النصر يذكر أن أيام المسلمين قد طابت، بإصباحها وإمسائها، كما يذكر أن موتى المسلمين قد استراحوا، به، في مضاجعهم، أما أحياؤهم فقد أخذ النوم يجد طريقه لعيونهم بعد أن طال سهرها في الجهاد!

ومنهـــا:

٥ ـ يا بهجة القدس! إذ أضحى به علم الإسلام، من بعد طي، وهو منتشر

٦ ـ يا نور مسجده الأقصى! وقد رفعت ... بعد الصليب، به الآيات والسور

إنها لصورة رائعة حقاً، يتمناها كل مسلم ويفرح بتحقيقها، أن يرتفع علم التوحيد على ربوع مدينة القدس من بعدما انقضت فترة كان فيها مطروداً منها! ويتبع هذه الصورة من الخارج صورة داخلية ترى فيها الناس، لحظة عودة الأقصى إليهم، وهم يزيلون ما علّق النصارى من صلبان على جدرانه ليثبتوا في مكانها آيات من القرآن الكريم! حقاً إن الفرق لكبير وإن البون لشاسع بين ما كان وما يجب أن يكون، بين الصلبان وآيات القرآن، بين ناقوس النصارى الذي يدق في الكنائس دونما معنى وبين فقرات الأذان، التي يصغي لها كل شيء وتكاد تؤثر في الحجارة التي يضرب بها المثل في القسوة، وفي رؤوس القمم وفي صخور الأرض!

٧ ـ شتان ما بين ناقوس يدان به ... وبين ذي منطق يصغي له الحجر[٢]

---

(١) قرت: استقرت.

(٢) يدان به: أي يستمع إليه النصارى فيأتون لدى سماع أجراسه إلى الكنائس.

٨ ـ الله أكبـر صـوت تقشعـر لـه   شم الـذرا ، وتكاد الأرض تنفطر[١]

ثم يأخذ في توجيه خطابه للقائد صلاح الدين، فيطالبه بتعهد الأراضي التي افتتحها بالغرس والزراعة، فهو أحق من يفعل ذلك كما كان أحق من يحررها من الأعداء؛ ألا ترى إن الأرض قد ازّينت واخضرّ ساحلها، فرحاً واستبشاراً بهذا النصر العظيم، الذي أصبح أعداؤك الروم، شقر البشرة، فيه، عبرة لغيرهم من الأعداء إذا هم أرادوا أن يعتدوا على أرض المسلمين من بعد؟! ذلك أنهم أصبحوا حكاية تحكى على كل لسان، مثلاً على نصر المؤمنين، وكانوا قبلها خطراً كبيراً على الناس، من بدوٍ وحاضرة؛ لقد أَضَعْتَ عليهم دنياهم وآخرتهم!

٩ ـ يا مالك الأرض مهِّدْها فما أحد   سواك من قائم للمهـد ينتظر[٢]
١٠ ـ ما اخضرّ هذا الطراز الساحلي ثرىً   إلا لتعلو بـه أعـلامـك الصفـر
١١ ـ أضحى بنو الأصفر الأنكاس موعظة   فيها لأعدائـك الآيات والنـذر[٣]
١٢ ـ صاروا حديثاً! وكانوا، قبلُ، حادثة   على الورى يتقيها البدو والحضر
١٣ ـ سلبتهم دولـة الـدنيـا وعيشتهـا   حتى لقد ضجرت من وفدهم سقر[٤]!

ومنهـا:

١٤ ـ هذا الذي سلب الإفرنج دولتهم   وملكهم، يا ملوك الأرض فاعتبروا

وفيه تحذير لملوك الدنيا كلها من أن يفعلوا فعل الصليبيين فيلاقوا مثل مصيرهم!

ومنهـا:

١٥ ـ مراكز ما اختطاها الخوف مذ مئة   عاماً، ولا ريع أهلوها ولا ذعروا[٥]

---

(١) شم الذرا : قمم الجبال العالية.
(٢) مهدها: تعهدها بالغرس والزراعة.
(٣) بنو الأصفر: الروم الشقر البشرة، الأنكاس: جمع نِكْس وهو الضعيف المهزول.
(٤) وفدهم: جماعة القتلى منهم، سقر: اسم من أسماء جهنم.
(٥) والقصيدة من كتاب الروضتين، طبعة ١٢٨٧ هـ الجزء الثاني ص ١١٨.

إن مدينة القدس كانت منذ نحو من مئة عام، من(٤٩٢ هـ) إلى يوم تحريرها (٥٨٣ هـ)، محظورة على المسلمين، فلم يقدروا أن يهيجوا محتليها أو يخيفوهم؛ فالحمد لله على أن عادت لحياض الإسلام!.

نص آخــــر :

ومن القصائد المؤثرة التي قيلت أيضاً، في فتح القدس قول الشريف محمد بن أسعد بن معمر، نقيب الأشراف بمصر:

١ - أتـرى منـامـاً مـا بعينيَ أنــظرُ؟ القدس يفتح والفـرنجة تكسـرُ!
٢ - ومليكهم في القيــد مصفـود ولم يُرَ قبل ذاك لهم مليك يؤسرُ[1]

إن هذا المطلع يلتقي مع مطلع القصيدة السابقة، وهما تلتقيان مع مطالع أخرى مشابهة، في أن فتح القدس كان للمسلمين حُلُماً يرى في النوم وأملاً يراود النفوس، مع سائر الآمال الصعبة التحقق؛ لم يكن يظن مسلم أن هذا الأمر يتم، وأنَّ مَلِكَ الفرنجة يرزح في قيود المسلمين المنتصرين؟ إن ذلك كان صعباً تصوره، فلم يكن قد مر عليهم شيء من هذا القبيل من قبل!!

ومنهـــا:

٣ - قد جاء نصـر الله والفتح الـذي وُعِدَ الرسولُ فسبحوا واستغفروا[2]
٤ - فُتِحَ الشآمُ وطُهِّرَ القدس الـذي هو في القيامة للأنـام المحشر[3]
٥ - مَن كــان هـذا فتحَــه لمحمــد مـاذا يقال لـه، ومـاذا يـذكـر؟

إن الشاعر يستذكر سورة النصر من القرآن الكريم، ويطالب بما تطالب به من التسبيح والاستغفار حينما يفتح الله عليهم وينصرهم. وليس هذا الفتح

(١) مصفود: مقيد من الصَّفد، والصفاد: الوثاق.

(٢) من قول الله تعالى ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، فسبّح بحمد ربك واستغفره، إنه كان تواباً ﴾ سورة النصر.

(٣) في سنن ابن ماجة، الجزء الأول ص ٤٥١ وجدت الحديث رقم ١٤٠٧ بالنص التالي: عن ميمونة، مولاة النبي، ﷺ، قالت: قلت: يا رسول الله! افتنا في بيت المقدس. قال: «أرض المحشر والمنشر، ائتوه فصلّوا فيه».

من الأمور الهينة، بل إنه يكاد لا يستطيع بليغ أن يصف أثره على النفوس! ذلك أن فتح الشام عامة والقدس خاصة تحسب من الأمور العظيمة، فهذه الأماكن هي التي روي أن الناس سيحشرون يوم القيامة في ودیانها وشعابها!

ومنهـــا:

٦ - مَلِكٌ غدا الإسلام، من عَجَبٍ به يختـال، والدنيـا، بـه، تتبخـتر
٧ - نثـرٌ ونـظم طعنُـه وضِـرابُـه فـالرمـح ينـظُم والمهنـد ينـثر[١]
٨ - حيث الرقاب خواضع، حيث العيـ ـون خواشع، حيث الجباه تُعَفَّرُ
٩ - غـاراته جُمَعٌ، فإن خَـطَبت لـه فيها السيوف فكل هامٍ مِنبَرُ[٢]

ويختم الشاعر أبياته بحديث عن قائد هذا النصر وما ترك من أثر على الإسلام، الذي غدا به مفتخراً ومعتزاً، فهو يفرّق بسيفه جموع الأعداء ويخترق برمحه صفوفهم، وما زال كذلك حتى خضعت له رقاب الأعداء وذلوا وتعفرت الدنيا في وجوههم، وإن غاراته على أعدائه لمشهورة بين الأيام شهرة يوم الجمعة من الأسبوع، وإنه في هذه الغارات ليفلق رؤوس الأعداء.

القيمة التاريخية في هذه النصوص:

تعكس لنا هذه النصوص أموراً يمكن أن تتخذ دلائل خاصة على حياة الناس في هذه المرحلة من عصر الحروب الصليبية، منها أنهم يمجدون القوة ويرون ضرورة استخدامها أولاً في معالجة أمور الحرب خاصة: (هو السيف لا يغنيك إلا جلاده، وذي المكارم لا ما تدعي الكتب).

وربما حفز إلى هذا الموقف ما جرَّ عليهم الاحتلال الصليبي من متاعب جمة، فلقد انعدم الأمن حتى صار توفره موجباً للتهنئة بحصوله: (ليهن بني الإيمان أمن...). ولقد شعر بالخوف من سطوة المحتلين البدو والحضر: (وكانوا قبلُ حادثة على الورى يتقيها البدو والحضر). ولقد عانى كثير من

(١) في نثر ونظم تورية.

(٢) كتاب الروضتين ط ١٢٨٧ هـ الجزء الثاني ص ١٠٥.

المسلمين ذل الإسار (ولا موثق إلا وحُلَّ صفاده)، ولم يكن يعرف النوم أبناء المسلمين من المجاهدين (ونام من لم يزل حلفاً له السهر).

وقد يتبع ذكر البأس في الحرب ذكر بعض ما يتصل به من الأدوات ووصف المعارك. فالرمح ينظم قتلى الأعداء بعضهم مع بعض أما السيف فينثر جموعهم ويفرقها، والسيف لا يغني إلا جلادُه، وهو يضرب في كل هام، بضربة قاصمة تحطِم الظهر وتحطّم صلبان الأعداء!، وإن الخيول لتثير في المعركة غباراً يؤثر في إنارة الشمس على الأرض!

وربما يلمس القارىء لهذه النصوص أنَّ المسلمين كان يغمرهم السرور لدى كل نصر يحرزونه على الأعداء. لكن النصر الأعظم، على قلوبهم، هو فتح القدس، فإن أحدهم قد بالغ في تقديره حتى رأى أنه أعظم ما لقي المسلمون من نصر!

وقد ارتفعت أصوات بعض الشعراء المطالبة بإعمار الأرض وزرعها واستصلاحها، بعد تحريرها من يد الأعداء، وهي دعوة تدل على قيمة حضارية في معايشة البيئة بشكل دائم:

يا مالك الأرض مهدها فما أحد سواك من قائم للمهد ينتظر

أثر الفكر الإسلامي:

ولقد ينعكس، مع هذا كله، عن هذه النصوص ملامح أخرى قد تكون أكثر منها وضوحاً، وأعني ملامح الفكر الإسلامي الذي كان وراء هذه المواقف جميعها.

ولعلّ أبرز هذه الملامح أن الحافز الأكبر لقتال غزاة الصليبيين هو مرضاة الله، سبحانه، في الدفاع عن دينه ونشر كلمته والغضب لأجله ولرفعته:

غضبت للدين حتى لم يفتك رضىً وكان دين الهدى مرضاته الغضب[1]

---

(١) ومن هذا المنطلق أن القادة المجاهدين يحتسبون جهادهم عند الله تعالى لنيل ثوابه في الآخرة، =

ومنها أن الشعراء يربطون بين عداوتهم لأعدائهم وبين الفارق الديني الذي يفصل بينهم، فهم لشركهم يقاتلونهم ولكفرهم يشتدون في طلبهم، فهي حرب دينية مقدسة قبل أن تكون دفاعاً عن تراب وحمى: «رأيت فيها عظيم الكفر محتقراً»، «أصاب أعظم من بالشرك قد نجسا»، فالنجاسة ليست من العدوان ولكن من الشرك. وأوضح ما يوضّح هذه الفكرة قول ابن القيسراني في «الدالية»: «وقل لملوك الكفر... إلخ البيت»، فتسليم البلاد سببه كفر المحتلين. وعندما ينتصر المسلمون يشعر الشاعر أن هذا وفاء بوعد الله تعالى، للرسول عليه السلام، في قوله في سورة النصر: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح...﴾ إلى آخر السورة، فعليهم إذن أن يكثروا من حمد الله تعالى، وتسبيحه.

وقد كان يحلو للشعراء، لذلك، أن ينظّروا لهذه الحرب ويقدموا لها الأسباب المقنعة، وذلك بالمقارنة بين النصرانية التي دفعت المعتدين للعدوان وبين الإسلام الذي ينبغي أن يقف في وجوه المعتدين ويخرجهم من ديارهم. والمقارنة لون من ألوان تثبيت الحقائق وتجليتها أمام العيون.

شتان ما بين ناقوس يدان به ... وبين ذي منطق يصغي له الحجر
الله أكبر صوت تقشعر له ... شم الذرا، وتكاد الأرض تنفطر

ومن هنا صار منظر إزاحة ما علّق المشركون على جدران المسجد الأقصى من صلبان لوضع سور وآيات قرآنية، في مكانها، صار منظراً حلو الوقع على القلب وفي الإحساس، كما صارت رفرفة العلم الإسلامي على هذه الربوع المقدسة، من بعد سنوات الاحتلال الطويلة الحزينة، صارت صورة تكاد تأخذ بالألباب!

يا بهجة القدس! إذ أضحى به علم الإسلام، من بعد طي، وهو منتشر
يا نور مسجده الأقصى! وقد رفعت ... بعد الصليب به الآيات والسور

= ولكن ليس كل القادة كذلك، كما يوحي لنا هذا القول عن نور الدين:
من كان يغزو بلاد الشرك مكتسباً ... من الملوك، فنور الدين محتسب!

كما عاد للمنابر عزّها في الخطب، وعاد للقرآن الكريم الإكثار من التلاوة في المساجد العائدة إلى أهلها:

ولا منبـر إلا تـرنـح عـوده   ولا مصحف إلا أنـار مـدادُه

وقد حرص الشعراء على تأكيد العناية الربانية في إحراز هذه الانتصارات:

ومن كان أملاك السماوات جنده   فأية أرض لم ترضها جياده؟

ولكن هذا لا ينفي الإعداد الكافي للقاء العدو بالقوة المناسبة لمكافحته ودفعه عن حرمات المسلمين:

هو السيف لا يغنيك إلا جلاده   وهل طوّق الأملاك إلا نجاده
سمت قبة الإسلام فخراً بطوله   ولم يكُ يسمو الدين لولا عماده

فالاعتماد على الله لا يتعارض مع الإعداد وهو القائل سبحانه ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ﴾(١).

وفي هذه النصوص ما يشي بمنزلة بيت المقدس، عامة، والمسجد الأقصى، خاصة، في قلوب المسلمين. ذلك الأمر الذي حمل أحد شعرائهم بأن يقسم بالله، جلّ وعلا، إنه لم يمر بالمسلمين نصر أعظم من انتصارهم يوم طردوا الصليبيين منه!! وهي مبالغة أملتها العواطف الفائرة والنظرة العجلى. لكن هذا الشاعر، نفسه، لا يلبث أن يرسم لعودة الأقصى للعهد الإسلامي صوراً زاهية يهوى أن يراها كل مسلم.

ولفرط حبهم للقدس وللأقصى كانوا ينتظرون خروجه من الأسر بفارغ الصبر وحينما رأوه يعود إليهم لم يفرقوا بين الحلم والحقيقة!!

وفي ساحة المعركة كان يزدهيهم النصر ويملأ أعطافهم الإعجاب بقادة النصر:

---

(١) الآية ٦٠ من سورة الأنفال.

مَلِكٌ غدا الإسلام من عجب به   يختــال، والــدنيــا بــه تتبخــتر

فهذا هو الموقف الوحيد الذي لا يكره فيه الإسلام العجب والاختيال، كما أُثر عن الرسول، عليه السلام، في قوله لأبي دجانة في معركة أُحد: «إن هذه مشية يكرهها الله إلا في مثل هذا الموضع»[1].

القيمة الفنية:

تلتقي هذه النصوص، من الناحية الفنية في أُمور، وتختلف في أخرى.

فمما تلتقي فيه سهولة التراكيب وقربها من البساطة في الصياغة وفي المدلول. وربما كانت السهولة في الصياغة ظاهرة عامة في أدب هذا العصر، وقد لا تحوج معانيها إلى المعاجم إلا في القليل، ولعل لما تعالجه من موضوعات عامة أثراً في ذلك، فأشعار الحروب مما يهم الجميع أن يفهمه وأن يعلم به إن كان بعيداً عن أحداثه؛ على أنها، مع ذلك كله، لا ينبغي لها أن تتحدر إلى مستوى لغة النثر، كما نرى في مطلع قصيدة فتح القدس.

وتلتقي في العاطفة الدينية الصادقة الحارة التي أوحت بها الانتصارات الحربية في معارك تدور بين الإيمان والكفر. ولعل فوران العاطفة هو الذي حدا بأحدهم أن يقسم بالله أنه ما مرّ على المسلمين نصر أعظم من فتح القدس!!. ولعل هذا الفوران هو الذي أفرز، أيضاً، صيغ التعجب المتعددة في هذه النصوص: يا يوم حطين، يا بهجة القدس، يا نور مسجده الأقصى، لله طيب العشايا، يا طهر سيف برى... وكلها تدل على مبلغ عظيم من الاندهاش والاغتباط.

كما تلتقي هذه النصوص فيما يسمى ببراعة الاستهلال. فقد جاءت افتتاحياتها حافلة بالإحساس العميق بموضوعها، وعلى جانب لا يستهان به من جانب الصياغة الفنية: «هو السيف لا يغنيك إلا جلاده»، ولننظر ما أتى به ضمير الشأن «هو» من تركيز الاهتمام إلى السيف للتنبيه على دور القوة في مجاهدة المشركين المعتدين، إن في هذا المطلع تهديداً وتلويحاً بالسيف لا يخفى

(١) فقه السيرة، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، ٢٤٥.

على أحد. «هذي العزائم لا ما تدعي القضب» لقد هجم الشاعر على موضوعه هجوماً مباشراً، واستنتج من المعركة التي يتحدث عنها نتيجة أترعت نفسه بالإعجاب بعزيمة نور الدين، فمضى يراها، وراء كل مسلك حربي، دافعاً قوياً للنصر والتحرير؛ ولا يشين هذه المقدمة ما استوحته من بائية أبي تمام، في الشطر الثاني منها خاصة، أو ما تأثرت به من مطلع قصيدة أبي الطيب المتنبي في ذكر بناء سيف الدولة لقلعة الحدث: «على قدر أهل العزم تأتي العزائم»، فقد جهدت، بعد ذلك كله، أن يظل لها طابعها الخاص، مع عدم الإخلال بفضل هذين الشاعرين الكبيرين، فقد كان لهما فضل الريادة والإجادة معاً في القوالب اللفظية وفي المعاني.

أما مطلع رائية القدس فهو، أيضاً، خلاصة نفسية لما يريد الشاعر أن يوافي به أول من يلقاه من الناس بعد سماعه بهذا الفتح العظيم. وفي المراوحة، بين أسلوبي الخبر والإنشاء، في بيت المطلع مراوحة تجعل الشطر الثاني متسبباً عن الأول فيما يدل على تدفق الشعور الصادق لدى صاحبه.

أما مطلع القصيدة الأخيرة فربما جمع من إيحاء المعنى من نظم الألفاظ وترتيب التراكيب ما لم يجمعه مطلع آخر من هذه القصائد! إنه يحمل شحنة كبيرة من الدهشة والتساؤل عن حقيقة ما يرى وما يسمع إلى درجة أنه تشابه عليه أفي حلم هو أم في حقيقة؟! أما موضوع هذا التساؤل فهو الشطر الثاني وما فيه من حقائق تكاد لا تصدق «القدس يفتح» وهذا إنجاز عظيم بعد احتلال نحو من قرن من الزمان ، و«الفرنجة تكسر» هؤلاء الذين قعدوا على صدور المسلمين، في هذه الديار، كل هذه الفترة؟ وتفصيل ذلك وارد في البيت الثاني. لقد رأى الشاعر ما لم يكن يرى من قبل! رأى الملك موثقاً مقيداً ذليلاً[1]!

هذا ما نرى أنَّ هذه القصائد قد اتفقت عليه. أما ما يمكن أن تكون قد انفردت كل واحدة منها به فأوله المعارضة في الشعر، كما رأينا في شعر ابن القيسراني في تحرير حصن حارم على يد نور الدين.

---

(١) وربما التقى بعضها في التأثر بالقرآن الكريم في قول الواحد «صاروا حديثاً» وفي قول الآخر «قد جاء نصر الله والفتح» إلى آخر البيت.

ومنه انفراد قصيدة العماد الكاتب بما يبدو من العناية بالصبغة اللغوية والبديعية، وربما كانت هذه الأبيات من شعره أقل قصائده احتفالاً بالبديع، فلا يكاد يرى منها إلا الطباق في الطهر والنجاسة. وربما بدا أن هذه الصيغة في بائية ابن القيسراني أكثر وضوحاً ولكن فن العماد الشعري والنثري أيضاً متسم بطابع الغرام بالبديع حتى في إيراد الأخبار التاريخية(١).

ومما يقابل الصنعة وقيودها نجد أن غيرها لا تحفل بها أو لا تكاد. بل إن في رائية رشيد بن بدر النابلسي انسيابية في التراكيب توافق ما ينشأ في النفس من نشاط وزهو وفرح عند السماع بموضوعها، وهو فتح القدس.

وما دمنا في مجال هذه القصيدة فإننا نرى أن الشاعر قد وفّق بشكل خاص في بيتين منها توفيقاً جمع بين إجادة التراكيب وعمق المعنى وجمال الصورة المعبّرة وهما قوله:

يا بهجة القدس. إذ أضحى به علم الإسلام، من بعد طي، وهو منتشر

وقولــه:

صاروا حديثاً، وكانوا قبلُ حادثة   على الورى يتقيها البدو والحضر

على أن هذه الإجادة كلها لا تعفيه مما في قوله: «بمثل ذا الفتح.. إلى آخر البيت»، من مبالغة شديدة تحمل على الظن أن هذا الشاعر، وبعض أمثاله من شعراء عصره، كان قليل التزود من التراث في حقائقه التاريخية وفي أساليبه الأدبية، كما لا تعفيه من ركاكة بيّنة في التراكيب اقتربت بها من الكلام المحكي بين العوام، كما تقدم.

وما قلنا عن إجادة هذا الشاعر لرسم الصورة الموحية المعبّرة عن المسجد الأقصى، وهو يعود إليه السمت الإسلامي، في البيت المذكور، وفي الذي يليه في القصيدة، يحملنا على النظر في نصيب شعراء هذه القصائد في هذا الصدد. وهنا نجد أنفسنا نشير إلى رائية ابن أسعد في فتح القدس؛ إنه منذ مطلع القصيدة يجيد رسم الصور الناطقة، كما تبين لنا، كما أنه يجيد حينما يقول:

---

(١) كما نجد في دالية ابن القيسراني تورية في «عماده» وفي رائية ابن أسعد «نثر ونظم».

غاراته جمع، فإن خطبت له   فيها السيوف فكل هام منبر

ففي البيت تشبيهان بليغان واستعارة تصريحية، ولكن الصورة العامة الكلية أنطق من هذه الجزئيات بكثير.

* * *

ومهما يكن من أمر فربما يشعر الباحث أن الشعر في مرحلة الجهاد والتحرير قد قام بدوره خير قيام. فمنذ اللحظة الأولى من لحظات الانتصار المحسوس على الأعداء هبّ الشعراء يسجلون ما انتعشت به نفوسهم، ونفوس المسلمين، من الآمال التي يعلقونها على هؤلاء القادة المجاهدين، فمضوا يمدحونهم، لهذا السبب، ويشيدون بأعمالهم ومآثرهم ويرسمون لهم خططاً أخرى للتقدم نحو النصر الأكبر نحو القدس، عاصمة بلاد المسلمين في بلاد الشام، لتخليصها من ربقة الأسر الصليبي. وهو أمر لمسناه بالخمس في التهنئة بفتح الرها وتحرير حصن حارم وفي انتصار حطين. حتى إذا هيأ الله لنصر القدس طارت قلوب شعرائنا من الفرح وطارت أشعارهم في الآفاق، حمداً لله وشكراً، على ما أعاد للمسلمين من كرامة الدين والدنيا.

ولقد جمعت هذه الأشعار، إلى هذا التسجيل التاريخي الأمين لأحاسيس المعاصرين من المسلمين، إجادةً فنية احتوت على عناصر الفن الشعري الأصيل؛ وإذا كان في الشعر هذه المعاني كلها أمكن أن يوصف بالحيوية في خدمة البيئة والعصر.

ثانياً ـ دور النثر في تصوير الجهاد والتحرير

ذكر بعض الباحثين[1] أن النثر قد تخلّف عن الشعر في حمل رسالة الجهاد في عصر الحروب الصليبية، وذلك لأن الشعر، فيما يرى، «كان تعبيراً شعبياً عن عواطف المسلمين أثناء تلك الحروب». فهو يثير الشعور في الدعوة إلى التحرير أو في التهنئة بالنصر، أما الرسائل الديوانية فلا تؤدي إلا الوظيفة الرسمية بين السلاطين وبين الناس!

---

(١) د. عبد اللطيف حمزة، أدب الحروب الصليبية، ص ١٩.

ولئن صح هذا الزعم في دور الرسائل الديوانية إلى حدٍّ، فإنه لا يصح إطلاقاً غير محدد؛ فلقد نشط كتّاب العصر في إرسال الرسائل التي تبشّر بالفتوحات الإسلامية وتهنىء الخلفاء والولاة في الأمصار بها. وقد تعددت هذه الرسائل في نثر القاضي الفاضل والعماد الكاتب الأصفهاني وضياء الدين بن الأثير، كما سيأتي بيانه.

كما أن النثر الفني قد قام بدوره، في هذا الشأن، في ميدان آخر هو ميدان الخطابة وهل كانت دواعي الخطابة في عصر أكثر منها إلحاحاً في عصر هذا الغزو الصليبي؟

لذلك، فإننا سنحاول أنْ نتعرف إلى هذا الدور من خلال الوقوف عند الرسائل الديوانية المعاصرة لهذه الفتوحات، أولاً، وعند بعض الخطب المناسبة لها ثانياً.

أما الرسائل فقد كانت من الفنون النثرية التي ازدهرت في هذا العصر. فقد عظم شأنها وازداد الاحتفال بها في شكل رسائل إخوانية حيناً أو سلطانية حيناً آخر.

ولئن كانت الأولى خاصة، تصل ما بين صديقين على نحو من الأنحاء، فإن الثانية عامة، تصل ما بين الديوان السلطاني والناس، من مسلمين وغيرهم في مناسبات عامة، وفي كتب العهود والأمان، أو في البيانات الحربية والمراسلات العسكرية[١].

١ ـ رسائل البشرى:

وثمة صنف آخر من الرسائل السلطانية لم يبرزه الباحثون كما ينبغي له ولم يعدوه من هذه الرسائل عند تصنيفها، وأعني به رسائل البشرى.

ورسائل البشرى هي التي كانت تكتب بأقلام القادة العسكريين أو على ألسنتهم، يكتبها وزراؤهم وكتّابهم، لترسل إلى الخلفاء والولاة والحكام في مركز الخلافة وفي الأمصار، إثْر ما يحرزه المسلمون من انتصارات على أعدائهم في

(١) راجع، لذلك، كتاب الأدب في العهد الأيوبي، د. زغلول سلام، الصفحات ١٧٧ ـ ١٨٤.

ساحات القتال، أو حول الحصون، أو في اجتياز المدن، وقد تترجم هذه الرسائل، أيضاً، أفراح المسلمين بموت ملك أو قائد من الأعداء أو سخريتهم من هزائم المهزومين منهم.

ولقد يرى الباحث أن هذه الرسائل تستحق أن يوقف عندها بشيء من الدراسة لسببين: أولهما أنها من الكثرة بمكان الذكر والاستحقاق؛ فلقد عرفت منذ عصر نور الدين محمود، وكثرت على ألسنة كتّاب صلاح الدين، وفي عهد توران شاه (حيث أرسل إلى نائب الشام رسالة يخبره فيها عن هزيمة الإفرنج في المنصورة عام ٦٤٨ هـ)[١]، كما أرسل الظاهر بيبرس إلى بوهمند السادس، أمير أنطاكية وطرابلس، رسالة بعد فتح أنطاكية عام ٦٦٧[٢]، تنضح بالسخرية وروح الانتصار؛ وقد حفلت كتب الأدب بهذا اللون من الرسائل[٣].

وثانيهما أن هذه الرسائل أقرب مساساً لمعنى الأدب الإسلامي من كثير من الأعمال الأدبية المعاصرة لها، في شعر وفي نثر. ذلك أنها تنطلق من فهم سليم لمعنى الجهاد في الإسلام، ولما ينجم عنه من انتصارات، كلها بيد الله وتوفيقه، في إرادته العليا، التي تتمثل في نشر دينه على العالمين.

ولعل من أشهر ما كتب في هذا الموضوع من رسائل هي التي سجلت انتصار المسلمين، بقيادة السلطان صلاح الدين، في معركة حطين، وما تلاها من إعادة بيت المقدس إلى الحوض الإسلامي.

وقد أسهم في إرسال هذه الرسائل ضياء الدين بن الأثير[٤] والعماد الكاتب الأصبهاني الذي قال: «كتبت في ذلك اليوم سبعين كتاب بشارة، كل كتاب بمعنى بديع وعبارة»[٥]، والقاضي الفاضل الذي كتب على لسان مولاه صلاح الدين رسالة إلى الخليفة العباسي. وربما كانت هذه الرسالة أدخلهنّ في معنى الأدب وروح الفن، وهو ما يستحق منا وقفة تعرّف وتحليل.

---

(١) النجوم الزاهرة، ابن تغري بردي، ٣٦٧/٦.

(٢) السلوك، المقريزي، ٩٦٦/١.

(٣) صبح الأعشى، القلقشندي، ٤٤٩/٦، ٥١٧، ٣٥٣/٧، ٣٦٦، ١٣٩/١٤.

(٤) كتاب الروضتين، أبو شامة القدسي ٩٨/١.

(٥) المرجع السابق ٩٦/٢.

رسالة صلاح الدين الأيوبي إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله يبشره فيها بفتح بيت المقدس ويذكر المعارك التي سبقت تحريره وعملية التحرير

وهي من إنشاء القاضي الفاضل (مقتطفات)

النـــص :

١ ـ أدام اللَّهُ أيامَ الديوان العزيز النبوي الناصري، ولا زال مظفرَ الجَد بكل جاحد[١]، غنيَّ التوفيق عن رأي كل رائد، موقوفَ المساعي على اقتناء مطلقات المحامد، مستيقظَ النصر والسيفُ في جفنه راقد. . .

٢ ـ كتب الخادم هذه الخدمة تِلْوَ ما صدر منه، مما كانَ يجري مجرى التباشير لصبح هذه الخدمة ، والعنـوان لكتابِ مصنف هذه النعمة. فإنها بحرٌ للأقلام فيه سَبْحٌ طويل، ولطفُ الحَق للشكرِ فيه عبءٌ ثقيل. . .

٣ ـ واسترد المسلمون تراثاً كان عنهم آبقاً[٢]، وظفروا يقظةً بما لم يصدقوا أنهم يظفرون به طيفاً على النأي طارقاً. واستقرت على الأعلى أقدامُهم، وخفقت على الأقصى أعلامُهم، وتلاقت على الصخرة قُبَلُهم، وشُفيت، وإن كانت صخرة، كما تُشفى بالماء غُلَلُهم. ولما قدم الدينُ عليها عرف منها سويداءَ قلبه، وهنأ كفؤُها[٣] الحجرُ الأسودُ ببتِّ[٤] عصمتها من الكافر بحربِه.

٤ ـ وكان الخادم لا يسعى سعيَه إلا لهذه المنقبة العظمى، ولا يقاسي تلك البؤسىٰ إلا رجاءَ هذه النعمى، ولا يناجز من استمطلَه في حربـه، ولا يعاتب بأطراف القنا من تمادى في عُتبه[٥] إلا لتكون الكلمةُ مجموعةً والدعوةُ إلى سامعها مرفوعةً، فتكونَ كلمة الله هي العليا، وليفوز بجوهر الآخرة لا بالعرض الأدنى من الدنيا. .

(١) جاحد: منكر للفضل، أي منتصراً على أعدائه.
(٢) محتلاً في قبضة الأعداء.
(٣) أي مثيلها.
(٤) أي تحريرها.
(٥) أي عَنَته وصلفه.

٥ ـ ومن طلب خطيراً خاطر، ومن رام صفقة رابحة تجاسر، ومن سما لأَنْ يجلّيَ غمرة غامر، وإلا فإن القعودَ يُلينُ، تحتَ نيوب الأعداء، المعاجمَ[١] فتعضَّها، ويُضْعِف في أيديها، مهرَ القوائم[٢]، فتفضَّها. هذا إلى كون القعود لا يقضي فرضَ الله في الجهاد، ولا يُرعى به حقُّ الله في العباد، ولا يُوفي به واجبَ التقليد، الذي تَطوَّقه الخادم من أئمةٍ قضوا بالحق، وبه كانوا يعدِلون.

٦ ـ وكتابُ الخادم هذا، وقد أظفر الله بالعدو، الذي تشظّت قناته شَفَقاً[٣]، وطارت فِرَقُه فَرَقاً، وفُلَّ سيفُه فصار عصا، وصُدِعت حصاتُه[٤] وكان الأكثرَ عدداً وحصاً... وأصبحت الأرضُ المقدسةُ الطاهرةَ وكانت الطامثَ[٥]، والربُّ المعبودُ الواحدَ وكان عندهم الثالث، فبيوتُ الشرك مهدومة ونيوبُ الكفر مهتومةٌ[٦]، وطوائفه الحامية مجتمعة على تسليم البلاد الحامية، وشجعانه المتوانية مُذْعِنَةٌ ببذل المطامع الوافية.

٧ ـ ولقد كان الخادم لقيهم اللَّقاة الأولى، فأمدّه الله بمداركته[٧] وأنجده بملائكته، فكسرهم كَسرةً ما بعدها جَبْرٌ، وصرعهم صَرْعَةً لا يعيش معها، بمشيئة الله، كفرٌ، وأسرَ منهم من أسرت به السلاسلُ وقتل منهم من فتكت به المناصلُ[٨]، وأجْلَت[٩] المعركةُ عن صرعىً من الخيلِ والسلاح والكفار، وعن أنصافِ محيل[١٠] فإنه قتلهم بالسيوف الأفلاقِ[١١]

(١) جمع مُعْجم وهو العود الذي يعض بالأسنان لتختبر صلابته.
(٢) لعله يقصد بالقوائم السيوف.
(٣) تكسرت رماحه فزعاً.
(٤) كناية عن هزيمته، والحصاة: الرأي.
(٥) من الطمث ـ دم الحيض.
(٦) أي مكسورة ـ هتماء.
(٧) بعونه.
(٨) ج مُنْصُل وهو السيف.
(٩) أي انجلت وانكشفت.
(١٠) جاء في القاموس المحيط أن المرأة المحيل هي التي تلد غلاماً إثر جارية فلعله شبه بذلك الحال السيوف المقطعة.
(١١) أي التي تفلقت لكثرة الضرب بها.

والرماحِ الأكْسارِ[1]، فنيلوا بثأرٍ من السلاح ونـالوه، أيضاً، بثأر. فكم أهلّةِ سيوفٍ[2] تقارض الضِّراب[3] بها حتى عادت كالعراجين[4]، وكم أنجمِ رماحٍ[5] تبادلت الطِّعانَ حتى صارت كالمطاعين[6]، وكم فارسيةٍ[7] ركض عليها فارسُها الشهمُ إلى أجلٍ[8] فاختلَسَه، وفغرت تلك القوسُ فاها[9] فإذا فوها قد نَهَشَ القِرنَ[10]، على بعد المسافة، فافترسَه.

٨ ـ وكان اليوم مشهوداً وكانت الملائكة شهوداً، وكان الكفر مفقوداً والإسلام مولوداً، وجعل الله ضلوع الكفار كنار جهنم وقوداً. وأَسَرَ الملكَ وبيده أوثقَ وِثاقَه وأكد وصْلَه بالدين وعلائقَه وهو صليبُ الصلبوت وقائدُ أهل الجَبروت.

٩ ـ وبعد الكسرة مرَّ الخادم على البلاد فطواها بما نشر عليها من الراية العباسية السوداءِ صبغاً، البيضاءِ صنعاً، الخافقةِ هي وقلوبُ أعدائِها، الغـالبةِ هي[11] وعزائمُ أوليائها، المستضاءِ بأنوارِها إذا فتح عينها البِشْرُ وإشارات بأنامل العَذَبات[12] إلى وجه النصر.

١٠ ـ ولما لم يبقَ إلا القدسُ، وقد اجتمع إليها كلُّ شريد منهم وطريد، واعتصم بمنَعَتِها كلُّ قريب منهم وبعيد، وظنوا أنها من الله مانعتُهم، وأَنَّ كنيستها إلى الله شافعتُهم، فلما نازلها الخادم رأى بلداً كبلادٍ وجمعاً كيوم

(١) التي تكسّرت بسبب الضرب، أيضاً.
(٢) سيوف كالأهلة تشبيه بليغ بجامع التحدّب فيهما.
(٣) الضـــرب.
(٤) ج عرجون وهو جذع عذق النخلة القديم.
(٥) شبه الرماح بالأنجم (ج نجم وهو الغصن الطري) بجامع اللدونة فيهما.
(٦) ج مطعون ولعله المصاب بمرض الطاعون.
(٧) أي قوس فارسية.
(٨) إلى حتف خصمه.
(٩) كناية عن تلوي القوس حينما يخرج فيها السهم
(١٠) أي الخصم.
(١١) أي أنها عزيزة كعزة المسلمين.
(١٢) ج عَذَبه وهي طرف الراية.

التنادِ[١] ، وعزائمَ قد تألّفت وتألّبت على الموت، فنزلت بعَرَصَتِه[٢]، وهان عليها موردُ السيفِ وأن تموتَ بغَصَّتِهِ. فزاول البلد من جانب فإذا أوديةٌ عميقةٌ ولُجَجٌ[٣] وَعْرة عريقة، وسورٌ قد انعطف عِطْفَ السوار، وأبرجةٌ[٤] قد نزلت مكانَ الواسطةِ من عقد الدر. فعدل إلى جهة أخرى كان للطامع عليها مُعَرَّج[٥] والخيل فيها متولّج[٦]، فنزل عليها وأحاط بها وقَرُب منها، وضُربت خيمتُه بحيث ينالُه السلاح بأطرافِه، ويزاحمُه السور بأكنافه[٧]. وقابلها ثم قاتلها، ونزلها ثم نازلها، وبرز إليها ثم بارزها، وحاجزَها[٨] ثم ناجزَها[٩]، فضمها ضمةً ارتقب بعدها الفتح، وصَدَعَ[١٠]أهلها فإذا هم لا يصبرون على عبودية الجدِّ من عِتْقِ الصفح[١١]، فراسلوه ببذل القطيعة[١٢] إلى مدة، وقصدوا نَظِرةً[١٣] إلى شدة وانتظاراً لنجده، فعَرَفَهم في لحن القول[١٤]، وأجابهم بلسان الطَوْل[١٥]، وقدم المنجنيقات[١٦] التي تتولى عقوباتِ الحصون عِصِيُّها وحِبالُها، وأوتر لهم قِسيَّها[١٧] التي تضرب فلا تفارقُها سهامُها، ولا

(١) يوم التنادي أي يوم القيامة.
(٢) أي بساحته.
(٣) اللجة هي الماء العميق وشبه بها هنا الطرق.
(٤) ج الجمع للبرج.
(٥) أي قيل.
(٦) من وَلَج إذا دخل فهو مكان الدخول.
(٧) بجوانبه.
(٨) أي حاصرها.
(٩) أي قاتلها.
(١٠) شق جماعتهم.
(١١) أي طلبوا الصلح مع ما فيه مما يشبه عتق الرقاب.
(١٢) الأرض والمال.
(١٣) إمهالاً.
(١٤) أدرك عدم صدقهم، من الآية القرآنية الكريمة ﴿ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول﴾ الآية ٣٠ من سورة محمد.
(١٥) أي القدرة.
(١٦) ج منجنيق وهو آلة حربية فخمة تلقى بها الحجارة والنيران لفتح أسوار الأعداء.
(١٧) أي وضع الأوتار في القسي.

يفارق سهامَها نِصالُها، فصافحت السور بأكنافها[1] فإذا سهمها في ثنايا شرفاتها سواك![2]. وقدم النصر نسراً من المنجنيق يُخلد[3] إخلادَه إلى الأرضِ ويعلوه علوَّه إلى السِّماك[4]، فشجَّ مرادِعَ[5] أبراجِها وأسمعَ صوتَ عجيجِها[6] ورفَع مثارَ عَجَاجِها[7]، فأخلى السور من السيارة والحرب من النظارة[8]، فأمكن النَّقَّاب[9] أن يُسْفِرَ للحرب النِّقاب[10]، وأن يعيد الحجر إلى سيرته من التراب، فتقدم الصخر فمَضَغَ سَرْدَهَ[11] بأنيـاب مِعْوَلِه وحَلَّ عَقْدَه بضربهِ الأخرقِ[12] الدَّالِّ على لطافة أنْمُلِه، واسمع الصخرةَ الشريدةَ حنينَه واستغاثته إلى أَنْ كادت تَرِقُّ لمُقَبِّلِه[13]، وتبرّأ بعضُ الحجارة من بعض[14]، وأخذ الخرابُ عليها موثقاً[15] فلن تبرحَ الأرضِ. وفُتِحَ في السور بابٌ سدَّ من نجاتهم أبواباً، وأخذ ينقب في حِجْره[16] فقال عنده الكافر: ﴿ يا ليتني كنت تراباً ﴾[17]. فحينئذ يئس الكفار من أصحاب الدور، كما يئس الكفار من أصحاب القبور، ﴿ وجاء أمر الله وغَرَّهم بالله الغَرور ﴾[18].

---

(١) بأطرافها.

(٢) يشبه السهم وهو يخترق السور بالسواك بين الأسنان.

(٣) يستقر ويهدأ.

(٤) نجم في السماء يضرب به المثل في العلو.

(٥) جمع مَرْدَع من ركب ردعه إذا خرّ لوجهه ورأسه.

(٦) من عج إذا صاح ورفع صوته.

(٧) العجاج: الغبار.

(٨) أي لم يبق على السور من جنود الأعداء من يسير أو ينظر.

(٩) على صيغة فَعَّال من نقب إذا أزال حجارة السور.

(١٠) الحجاب أي أزال ما كان مانعاً.

(١١) السرد: نسج الدرع، شبه حجارة السور بنسج الدرع.

(١٢) أي الشديد.

(١٣) أي لتقبيله.

(١٤) أي تفتتت.

(١٥) أي عهداً.

(١٦) أي يبحث عن الأعداء داخل السور.

(١٧) الآية ٤٠ من سورة النبأ.

(١٨) الآية ١٤ من سورة الحديد والغرور هنا بمعنى الشيطان.

١١ ـ وأوعزَ الخادمُ[١] بردِّ الأقصى إلى عهده المعهود، وأقام له من الأئمة من يوفّيه وِرْدَه[٢] المورود. وأُقيمت الخطبة[٣] يومَ الجمعة رابعَ شهر شعبان، فكادت السماوات يتفطّرْن للسُّجوم[٤] لا للوُجوم، والكواكبُ ينتثرن للطرب لا للرجوم[٥]. ورُفعت إلى الله كلمةُ التوحيد وكانت طرائقُها مسدودةً، وطُهِّرت قبورُ الأنبياء وكانت، بينهم بالنجاسات، مكدودة. وأُقيمت الخمسُ[٦]، وكان التثليث[٧] يقعدها، وجهرت الألسنُ بالله أكبر وكان سحرُ الكفر يعقدها، وجُهِرَ باسم أمير المؤمنين في قطبه[٨] الأقرب من المنبر، فَرُحِّب به ترحيبَ مَن بُرَّ بمن بَرَّ[٩]، وخفق علماه في حفافيه[١٠]، فلو طار به سروراً لطار بجناحيه.

١٢ ـ وهذه البشائر لها تفاصيل لا تكاد من غير الألسنة تتشخص[١١]، ولا بما سوى المشافهة تتلخص. فلذلك أنفذنا لساناً شارحاً ومبشراً صادحاً[١٢]، ينشر الخبرَ على سياقته[١٣] ويعرِض جيشَ المسرّة[١٤] من طليعته إلى ساقتهِ[١٥].

---

(١) أي خادم الخليفة العباسي ويعني به السلطان صلاح الدين.

(٢) الورْد: الجزء من القرآن، ولعله الدعاء والدعوة.

(٣) يعني خطبة الجمعة التي سنعرفها بعد قليل.

(٤) من سجم الدمع إذا تقطر وسال قليلاً أو كثيراً (القاموس المحيط).

(٥) ج رُجُم وهي حجارة تنصب على القبر علامة عليه.

(٦) أي الصلوات.

(٧) وهو شرك النصارى بالله ـ جل وعلا ـ واعتقادهم الباطل بالآب والابن والروح القدس.

(٨) لعله يريد في مُصَلّاه.

(٩) أي أن المسجد الأقصى يرحب بصلاح الدين لأنه جاهد في سبيل الله ورده إلى عهده المعهود.

(١٠) أي جانبيه.　　(١١) تمثل وتجسد بشكل حسيّ.

(١٢) يعني به القاضي ضياء الدين الشهرزوري، الذي أرسله السلطان صلاح الدين إلى الخليفة العباسي ومعه هذه الرسالة ليوصلها إلى الخليفة ويحدثه عن معركة فتح بيت المقدس، والشهرزوري ولي قضاء حلب ثم انتقل إلى الموصل فولي قضاءها. (وفيات الأعيان ـ لابن خلكان، ١/٤٧٣).

(١٣) أي كاملاً شاملاً.

(١٤) شبه السرور بالجيش، وإذا حكى للخليفة الخبر من أوله إلى آخره فكأنه أطلعه على جيش من مقدمته إلى سائر جنوده وعساكره.

(١٥) أوردت هذه الرسالة الشهيرة مراجع كثيرة أشهرها: =

نظرة تحليلية في هذه الرسالة

أولاً ـ الأفكـــار

تتضمن الرسالة الأفكار الجزئية التالية:

١ ـ لمن أُنشئت الرسالة.
٢ ـ المناسبـــة.
٣ ـ موضوع الرسالة ـ بإيجاز.
٤ ـ رسالة صلاح الدين (رفع كلمة الله).
٥ ـ الجهاد المناسب لهذه الغاية.
٦ ـ من حصاد المعركة.
٧ ـ اللقاة الأولى (لعلها معركة حطين).
٨ ـ حصادهـــا.
٩ ـ بلدان أخرى.
١٠ ـ معركة تحرير القدس.
١١ ـ رد الأقصى إلى عهده.
١٢ ـ ما راءٍ كمن سمعا.

ويمكن النظر إلى هذه المعاني على أنها تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

فقسم يتصل بالعقيدة الإسلامية وآخر بالحكم والخلافة وثالث بعامة المسلمين.

= ـ صبح الأعشى للقلقشندي جـ ٦/٤٩٦ ـ ٥٠٤، وجـ ٨ / ٢٨٢ ـ ٢٨٩.
ـ كتاب الروضتين لأبي شامة القدسي جـ ٢/٩٦ ـ ٩٧.
ـ وفيات الأعيان لابن خلكان جـ ٦/١٧٠ ـ ١٨٠.
ـ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ـ ابن واصل ـ ٢/٢٣٩ ـ ٢٤٨.
ـ الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم اختيار محيي الدين بن عبد الظاهر (٦٩٢هـ) وتحقيق د. أحمد بدوي ١٥ ـ ٣٤.
ـ رسائل القاضي الفاضل جمع موفق الدين بن الديباجي (٦١٥) تحقيق د. محمد نقش ص ١٦٦.
ـ معجم الأدباء لياقوت جـ ٩/٢٠ ـ ٢٢.

أما الأول فخلاصته أنَّ الله، سبحانه، هو وحده واهب النصر، ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾؛ فهو يقول: «وقد أظفر الله بالعدو» ثم يقول: «ولقد كان الخادم لقيهم اللقاة الأولى فأمدّه الله بمداركته، وأنجده بملائكته، فكسرهم كسرة ما بعدها جبر»، ولنلاحظ أن لقاء السلطان بالعدو ما كان ليثمر لو لم يمدّه الله بعونه وينجده بملائكته.

والنصر عندما يحرزه المسلمون يكون نصراً لدينهم ولعقيدتهم وليس نصراً لهم فحسب، «وكان اليوم مشهوداً وكانت الملائكة شهوداً، وكان الكفر مفقوداً والإسلام مولوداً». إنها معركة بين الإسلام وبين الكفر في جوهرها، «فبيوت الشرك مهدومة ونيوب الكفر مهتومة». ولا يفتأ كاتب الرسالة أن ينتقد الكفار في عقيدتهم: «وأصبحت الأرض المقدسة الطاهرة وكانت الطامث والرب المعبود الواحد وكان عندهم الثالث» إنه صراع من أجل التوحيد: «ورفعت إلى الله كلمة التوحيد وكانت طرائقها مسدودة... وأُقيمت الخمس وكان التثليث يقعدها، وجهرت الألسنة بالله أكبر وكان سحر الكفر يعقدها».

ومما يتمّم صدق هذه النية في الرسالة عمق المعنى الإسلامي في أسباب الجهاد الذي كانت تقوم عليه أعمال صلاح الدين العسكرية.

فبعد أن يذكر كاتبها استرداد المسلمين لبيت المقدس يقول: «وكان الخادم لا يسعى سعيه إلا لهذه المنقبة العظمى، ولا يقاسي تلك البؤسى رجاء هذه النعمى». إن تخليص القدس من الاحتلال الصليبي كان وكد صلاح الدين والمسلمين وشغلهم الشاغل. ولم تكن هذه المدينة، في الوقت نفسه، هي الهدف الأسمى لهم فإن وراءها هدفاً آخر أعلى وأغلى، يقول كاتب الرسالة: ولا يناجز من استمطله في حربه... إلا لتكون الكلمة مجموعة والدعوة إلى سامعها مرفوعة، فتكون كلمة الله هي العليا، وليفوز بجوهر الآخرة لا بالعرض الأدنى من الدنيا»، إنه رضوان الله في الآخرة، وليس شيئاً في هذه الدنيا، مهما غلا وعزّ.

وإذا كانت الأهداف عظيمة فإن الوصول إليها لن يكون هيناً، كما يقول القاضي الفاضل في الحديث عن أسباب الخوض في هذه المعارك «ومن طلب

خطيراً خاطر، ومن رام صفقة رابحة تجاسر». ولم تكن الدنيا هي الدافع الوحيد لركوب هذه المخاطر، فمع أن «القعود يلين، تحت نيوب الأعداء، المعاجم فتعضها» أي إن التخاذل عن الجهاد يضعف منزلة المسلمين في أعين الأعداء، إلا أن ثمة هدفاً أكبر ودافعاً أقوى هو الذي يمنع من القعود ويغري بالخروج للقتال من أجل نشر كلمة الله: «هذا إلى كون القعود لا يقضي غرض الله في الجهاد ولا يرعى به حق الله في العباد»، إنه الالتزام بأوامر الله في الجهاد من أجل أن تظل كلمته هي العليا[1].

أما الثاني فنلمحه في توجيه الرسالة أصلاً إلى الخليفة ولمّا يمض على الفتح شهر من الزمان[2]. إن ذلك يدل على تقدير إمام المسلمين في أعين الولاة والسلاطين، ولم تكن هذه الرسالة هي الوحيدة بل لقد اعتاد سلاطين الأسرة الزنكية والنورية والمماليك أن يفعلوا مثلها.

وها هو ذا يفتتح الرسالة الموجهة إلى الخليفة، والمُعَنْوَنَة باسمه، بالدعاء إلى الله أن يديم أيام هذا الأمير بالنصر والعزّة والمنعة؛ وإنه لا يرسلها مع رجل من عامة رجاله بل حمّلها للقاضي ضياء الدين الشهرزوري[3] ليحدث الخليفة بتفاصيل المعركة التي لم تستطع الرسالة أن تنقلها، وبين البدء والختام كان يكني عن مرسلها بالخادم، وفي هذا ما فيه من معاني الاحترام والتقدير، ثم إنه ينقل إليه أن السلطان بعد أن هزم الأعداء في حطين أضاف إليها ما يحيط بها من المدن والقرى ونشر عليها جميعاً الرايات العباسية السوداء صبغاً البيضاء صنعاً.

أما الثالث وهو ما يتصل بعامة المسلمين والمحاربين وما قاموا به من أعمال حربية فنلمحه من مدى فرحهم بالنصر على الصليبي المحتل حينما استردوا تراثهم، وهو ما كان إليهم حلماً عالياً، «ولما خفقت على الأقصى

(١) وحتى بعد تحرير القدس ظلت غاية صلاح الدين نشر كلمة الله، فهو يقول حينئذ: «في نفسي أنه متى يسّر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد وأوصيت وودعت وركبت هذا البحر إلى جزائره وأتبعهم فيها حتى لا ألقى على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت». النوادر السلطانية ـ ابن شداد، ص١٧، ومفرج الكروب ـ ابن واصل ٢/٤٣٢.

(٢) الروضتين ـ أبو شامة، ٢/٩٦، ٩٧.

(٣) المرجع السابق.

أعلامهم تلاقت على الصخرة قبلهم وشفيت غللهم». ولم يكن الأمر يدور حول هذا المكان المقدس لذاته بل لأنه من الدين سويداء القلب ولأنه ثاني الحرمين الشريفين، والحجر الأسود للصخرة كفؤٌ ومثيل. وفي الحديث النبوي الشريف أنه سئل عليه السلام عن أي المساجد كان أول فقال: «المسجد الحرام؟ فقيل: ثم ماذا؟ قال: المسجد الأقصى، قيل: وكم بينهما؟ قال: أربعون سنة»[1]. وهي الفترة بين بناء سيدنا إبراهيم الكعبة وبناء سيدنا يعقوب للمسجد الأقصى.

ولقد رد صلاح الدين لهذا المسجد عهده، بعد طرد المحتلين، وأقام له من يخطب فيه ويعظ ويقوم على العناية به، وأقيمت الخطبة الأولى بعد التحرير حيث كادت السماوات يتفطرن للسجوم لا للوجوم والكواكب ينتثرن للطرب لا للرجوم؛ كل ذلك من أجل أن ترتفع كلمة التوحيد التي كانت طرائقها مسدودة وتجهر الألسن بالأذان للصلاة وقد كان، زمن الاحتلال، معطلاً.

هذه هي منزلة القدس والمسجد الحرام والأقصى في قلوب المسلمين وقلب صلاح الدين، إنها منزلة تستحق أن يستخدم لها هذا القائد المسلم أقصى ما تصل إليه يداه من سلاح ومن تدبير وخبرة عسكرية.

إن الأسلحة التي يذكرها القاضي الفاضل في هذه الرسالة كثيرة؛ فمنها السيوف المواضي والسيوف المثلّمة من مقارعة أسلحة الأعداء، ومنها الرماح القوية والرماح المكسرة، ومنها الأقواس والسهام، ومنها سلاسل القيود، ومنها السلاح الأفتك، في ذلك الوقت، وهو المنجنيق الذي يتولى عقاب الحصون بعصيه وحباله ويمضغ حجارة الأسوار مضغاً ويردها إلى سيرتها الأولى من التراب ويسدّ على الهاربين سبيل النجاة، ولو أنهم كانوا الأكثر عدداً وإحصاءً.

وقد أفاض أيضاً في شرح دهاء قائده العسكري؛ فهو حينما كان يجد القتال غير مجدٍ من جهة من جهات سور القدس يعدل إلى جهة أخرى أكثر نفعاً وفائدة، وحينما يطلب الأعداء نظرة إلى ميسرة يرفض كيدهم فما هو منهم

(١) صحيح مسلم، الجزء الأول الصفحة ٣٧٠ الحديث رقم ٥٢٠.

إلّا من لحن القول وما هم في الحقيقة غير منتظري المعونات والإمدادات من أتباعهم.

ثانياً ـ الخصائص الفنية :

أشار بعض الباحثين[1] إلى مميزات فنية في نثر القاضي تبدو جلية في هذه الرسالة:

١ ـ فمنها أنه يكثر من السجع إكثاراً يلقاه القارىء في كل سطر.

٢ ـ ومنها الإكثار من الطباق كقوله: مر الخادم على البلاد فطواها بما نشر عليها من الراية العباسية.

٣ ـ ومنها الإكثار من الجناس كقوله: وقدم النصر نسراً من المنجنيق.

وهو في هذه المحسنات يشترك مع غيره من كتاب عصره الذين كانوا يكثرون منها ويلتزمون بها. غير أن له، فيما أشير، خصائص أخرى يربى فيها على غيره ومنها:

٤ ـ تجسيم المعاني، وهو تصوير المعنى المجرد في صورة محسّسة ملموسة، وذلك في مثل قوله: وصدع أهلها فإذا هم لا يصبرون على عبودية الجد عن عتق الصفح، وقوله: ورفعت إلى الله كلمة التوحيد وكانت طرائقها مسدودة.

ففي الأولى عرض علينا الجد والنزال في الحرب في صورة العبودية والاستعباد للمكابرة والعزة بالإثم وعرض صفح السلطان صلاح الدين عن النصارى المتضايقين داخل أسوار القدس في صورة عتق الرقاب، وفي الثانية شبه تعطيل ذكر الشهادتين في الأقصى زمن الاحتلال الصليبي بالطريق المقفلة.

إن هذا التجسيم يوضح الأفكار ويقربها من الأذهان.

٥ ـ تشخيص الجماد: وهو إنطاق ما لا ينطق ونفخ الروح فيها لم يضع فيه الله

(١) د. عبد اللطيف حمزة، أدب الحروب الصليبية، ص ١٨٦، ١٨٧.

روحاً، كقوله: «وهنأ كفؤها الحجر الأسود ببتّ عصمتها من الكافر». إنه جعل من الحجر رجلاً وجعل من الصخرة امرأة ذات عصمة تقطّع عن الزوج إذا كفر، ولم تتخلص منه إلّا بالجهاد. وكقوله عن الصخرة المشرفة: «ولما قدم الدين عليها عرف منها سويداء قلبه». إن الدين قد استحال، في قلم القاضي عبد الرحيم البيساني إلى مخلوق بشري له قلب وللقلب سويداء وشغاف. وغير خافٍ مما في هذه التعابير من الاستعارة المكنية.

ولعل التجسيم والتشخيص لم يغب، بمعنى مقارب، عن ذهن الكاتب. فهو في آخر الرسالة يقول: «وهذه البشائر لها تفاصيل لا تكاد من غير الألسنة تتشخص» أي تصبح ماثلة أمام العيون تسمع وترى ولا يخطئها اللمس.

وثمّة مميزات فنيّة، بعد هذه وتلك، في نظر الباحث، تميّز نثر القاضي الفاضل وحده لم يأت بها غيره بمستوى هذه الإجادة، ومنها:

٦ ـ نثر آي القرآن الكريم. لقد أُوتي كاتبنا قدرة متميزة في الإفادة من آيات القرآن الكريم في غضون كتابته النثرية، فهو يستخدمها في أنسب مكان لمعناها ومبناها فتبدو وكأنها من أصل صياغة كاتبها.

ففي أوائل الرسالة يقول عن نعمة النصر إنها بحر للأقلام فيه سبح طويل[1]، وعن النصارى والقدس حينما أحكم عليها المسلمون الطوق أنهم ظنوا أنها من الله ما نعتهم[2]، وعنهم حينما طلبوا الإمهال في النزال أنه عرفهم في لحن القول[3]، وعن أسوار القدس التي تهاوت من بعد عصيان أن الخراب أخذ عليها موثقاً فلن تبرح الأرض[4]، وعن الكافر حينما اشتد الجد أنه قال: «يا ليتني كُنت تُراباً[5]»، وعندما يئس كفار الدور يأس كفار القبور قال إنه «جاء أمر الله وغرّهم بالله الغرور»[6].

(١) من الآية ٧ المزمل ﴿إن لك في النهار سبحاً طويلاً﴾.
(٢) من الآية ٢ الحشر ﴿ وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ﴾.
(٣) من الآية ٣٠ محمد ﴿ فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول ﴾.
(٤) من الآية ٨٠ يوسف ﴿ فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي ﴾.
(٥) من الآية ٤٠ النبأ ﴿ يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً ﴾.
(٦) الآية ١٤ الحديد.

إن الأمر لم يقف عند حد حفظ آي القرآن أو عند الاقتباس منها فحسب ولكنه يتعداه إلى حل لهذه الآيات ونثرها في ثنايا الجمل نثراً متقناً بديعاً.

٧ ـ المعادلات اللفظيّة، ويعني بها الجمل المتقاربة في أطوالها وأنغامها الداخلية وفواصلها الموسيقية. كقوله: وأصبحت الأرض المُقَدّسة الطاهرة وكانت الطامثّ، والرب المعبود الواحد وكان عندهم الثالث، وكقوله: وقابلها ثم قاتلها، ونزلها ثم نازلها، وبرز إليها ثم بارزها، وحاجزها ثم ناجزها.

وربما يستطيع المتأمل أن يجد في نثر القاضي الفاضل مزيداً من الخصائص الفنيّة.

٨ ـ فإن السجع الذي يبدو ملتزماً في نثره لم يأت على المعاني فيه. فهو ليس إلاّ وسيلة لغاية إيصال الأفكار[١]. ومن الغريب أن هذه الأفكار لم تتكرر في رسائله التي كثرت كثرة بارزة وتعدّدت موضوعاتها في الديوانية والإخوانية والوصفية والاجتماعية؛ كما أن من الثابت أن القاضي قد تحرّر من السجع في رسائل أخرى كثيرة كان يفضي بها لأصفيائه وأحبابه[٢].

٩ ـ براعة الوصف ـ إن الكاتب قد أجاد في نقل صور حيّة من صور المعركة، كقوله: «فكم أهلة سيوف تقارض الضراب بها حتى عادت كالعراجين، وكم أنجم رماح تبادلت الطعان حتى صارت كالمطاعين، وكم فارسيةٍ ركض عليها فارسها الشهم إلى أجلٍ فاختلسه».

إنها صورة حيّة لمعركة تصبح فيها السيوف المحدّبة كجذوع النخل المقطوعة من زمن طويل، وتصبح الرماح مشرشرة كمن ضربه مرض الطاعون وتصبح الأقواس معينات على الأعداء. ونجد مثل هذا الوصف الدقيق فيما فعله المنجنيق في السور وقد اخترقه كما تخترق السواك أسنان بني

(١) ولذلك يقول بعض الباحثين إنَّ القاضي الفاضل قد وفق بين القالب والمضمون في صورة تدعو إلى الإعجاب، (د. زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي ص ٢٢١).

(٢) راجع أدب الحروب الصليبية، د. عبد اللطيف حمزة، ص ١٩٩ والروضتين ١/١٦٦، ١٦٨، ١٦٩.

الإنسان وهو يحملها على الصوت المستغيث وعلى الغبار المثار وهو يعيد الحجارة إلى مادة التراب التي صنعت منها.

٢ ـ الخطابـــة :

وربما كان من أبلغ ما قيل في التأريخ لتخليص المسجد الأقصى من قبضة غزاة الفرنجة وأثر ذلك على قلوب المسلمين الخطبة المنبريّة التي ألقيت من على منبر نور الدين محمود[١]، في المسجد المحرَّر، بعد صلاة الجمعة التالية ليوم التحرير، ألقاها قاضي دمشق، محيي الدين بن الزكي القرشي[٢]، كما يحدّثنا النص التالي نقتطفه من كتاب «مفرج الكروب[٣] في أخبار بني أيوب».

خطبـة القـــدس

جو الخطبـــة :

«ذِكْرُ أولِ خطبةٍ خُطِبَ بها ببيت المقدس بعد الفتح.

«ولما كان يوم الجمعة التالية لجمعة الفتح، وهو الرابع من شعبان[٤]، حضر المسلمون الحرم الشريف فغصّ بالزحام. فإنه حين تسامع الناس به في سائر الأطراف وكسر العدو والقصد إلى بيت المقدس توافى الناس من كل صقع، وجاءوا من كل فج، ليفوزوا بالزيارة ويحظوا بالمشاهدة للفتح. فاجتمع من أهل الإسلام عدد عظيم لا يقع عليهم الإحصاء.

---

(١) «أمر نور الدين محمود أمهرَ النجارين في حلب بصنع منبر جميل يليق بالمسجد الأقصى لينقل إليه يوم فتحه، وقد أوصاه أن يأتي على أحسن نعت يمكن» (مفرج الكروب، ابن واصل ٢/٢١٨). وهو المنبر الذي استمرّ في المسجد الأقصى منذئذ حتى امتدت إليه يد العبث في الاحتلال الصليبي (الثاني) والصهيوني فأحرقته مع حريق المسجد الأقصى في عام ١٣٨٨ هـ (١٩٦٨ م).

(٢) هو أبو المعالي محمد بن علي بن محمد، كان فقيهاً أديباً له نظم حسن وخطب ورسائل. تولى القضاء بدمشق، وكان له عند صلاح الدين منزلة عالية ومكانة مكينة، توفي عام ٥٩٨ (وفيات الأعيان ٣/٣٦٥).

(٣) تأليف جمال الدين بن واصل تحقيق د. جمال الشيّال، الجزء الثاني ص ٢١٨.

(٤) عام ٥٨٣هـ والفتح كان في الجمعة السابقة الموافقة ٢٧ رجب.

فلمّا أُذِّنَ للظهر من يوم هذه الجمعة المباركة حضر السلطان بقبة الصخرة المقدسة وهو في غاية السرور والفرح، إذ جعله الله تعالى، في هذا الفتح، ثانياً لعمرَ بنِ الخطاب، رضي الله عنه، الفاتحِ الأول، وميّزه بهذه المنقبة دون سائر الملوك من ملوك الإسلام.

وامتلأت عِراص المسجد وصحونه بالخلائق، واستعبرت العيون من شدّة الفرح وخشعت الأصوات ووجلت القلوب!

وكان جماعَة من الأكابر والعلماء قد رشحوا أنفسهم للخطبة في هذا المسجد المعظم، وأخذوا لذلك أهبته وألّفوا ما يخطبون به. ومنهم من عرَّض للسلطان بطلب ذلك، ومنهم من صرّح. والسلطان ساكت لا يبدي سرَّه. فلما حان وقت الخطبة نص على القاضي محيي الدين بن زكي الدين وقدّمه لهذا الأمر الجليل[1]، فرقي المنبر بالأهبة السوداء العباسية وخطب خطبة بديعة بليغة هي:

النـــص

١ ـ المقدمــة:

أ ـ حمد الله تعالى:

«فقُطع دابرُ القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين»[2].

«الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين»[3].

«الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون»[4].

---

(١) قدّمه لأنه مدحه حينما فتح حلب عام ٥٧٩هـ، وكان في مدحته هذه، هذا البيت الذي تنبأ فيه بفتح القدس في رجب:

وفتحكم حلب الشهباء في صفر ... مبشر فتح بيت القدس في رجب

يقول ابن كثير: «فتاقت نفس السلطان إلى ذلك». (البداية والنهاية ابن كثير، دار الفكر العربي ٣١٤/١٢).

(٢) الآية ٤٥ من سورة الأنعام.

(٣) الفاتحة.

(٤) الآية ١ من سورة الأنعام.

«وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له وليّ من الذل، وكبره تكبيراً»(١).

«الحمد لله الذي أنزلَ على عبده الكتاب، ولم يجعل له عوجاً، قيّماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً، ماكثين فيه أبداً، وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً، ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمةً تخرج من أفواههم، إن يقولون إلاّ كذباً»(٢).

«قُلْ الحمد لله وسلام على عباده الذين آصطفى أَللَّهُ خير أمّا يشركون»(٣).

«الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير، يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور»(٤).

«الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رُسُلًا»(٥).

ب ـ قدرة الله تعالى على تحقيق النصر:

الحمد لله، معزِّ الإسلام بنصره ومذلِّ الشرك بقهره، ومصرِّفِ(٦) الأمور بأمره، ومديمِ النعم بشكره، ومُستدرجِ الكافرين بمكره، الذي قدّر الأيام دولاً(٧) بعدلِه، وجعل العاقبة للمتقين بفضلِه وأفاض(٨) على عبادِهِ من ظله، وأظهر دينه على الدين كله، القاهرِ فوق عباده فلا يُمانَعُ، والظاهرِ على خليقته فلا يُنازَع، والآمرِ بما يشاء فلا يُراجَع، والحاكمِ بما يريد فلا يدافع.

أحَمدُه على إظفاره وإظهارِهِ(٩)، وإعزازه لأوليائه، ونَصْره لأنصاره، وتطهير بيته المقدس من أدناسِ الشرك وأوضارِه(١٠)، حمدَ من استشعر الحمدَ

---

(١) الآية ١١ من سورة الاسراء.
(٢) الآيات ١ ـ ٥ من سورة الكهف.
(٣) الآية ٥٦ من سورة النحل.
(٤) الآية ١، ٢ من سورة سبأ.
(٥) الآية ١ من سورة فاطر.
(٦) مدبّـر.
(٧) متداولة بين الجهتين مرة لهؤلاء ومرة لغيرهم.
(٨) أنعم إنعاماً كثيراً.
(٩) نصـره.
(١٠) أوساخـه.

باطِنُ سره وظاهرُ جهاده.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، الواحدَ الأحد، الفردَ الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، شهادةَ من طهَّر بالتوحيد قلبَهَ، وأرضى به ربّه.

جـ ـ الثناء على الرسول الكريم ﷺ وعلى صحابته:

وأشهد أن محمداً عبدُه ورسولُه، دافعُ الشرك، وداحضُ الإفك، الذي أُسريَ به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وعُرج به منه إلى السماوات العلى، إلى سُدرة المنتهى عندها جنة المأوى، ما زاغ البصر وما طغى[1].

صلى الله عليه وعلى خليفته أبي بكر الصديق، السابقِ إلى الإيمان. وعلى أميرِ المؤمنين عمرَ بنِ الخطاب أولِ من رفع عن هذا البيت شعارَ الصلبان[2]، وعلَى أميرِ المؤمنينَ عثمانَ بنِ عفان، ذي النورين جامعِ القرآن، وعلى أميرِ المؤمنين علَي بن أبي طالب، مزلزلِ الشرك ومكسِر الأوثان، وعلى آله وأصحابهَ والتابعين لهم بإحسان.

٢، ٣ ـ رضى الله عن المجاهدين، الأقصى بين حالين:

أيها الناس!! أبشروا برضوانِ الله الذي هو الغايةُ القُصوى والدرجةُ العليا، لما يسّره الله على أيديكم من استردادِ هذه الضالّة[3] من الأمة الضالّة، وردِّها إلى مقرها من الإسلام بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريباً من مئة عام[4]، وتطهير هذا البيت الذي أذن الله أن يُرفعَ ويذكرَ فيه اسمُه، وإماطةِ الشرك عن طرقه، بعد أن امتد عليها رواقهُ واستقر فيها رسمُه؛ ورَفْعِ قواعده بالتوحيد، فإنه بُني عليه، وإنَّه أسس بالتقوى من خلفه ومن بين يديه.

---

(١) من سورة النجم.

(٢) إشارة إلى فتح القدس وتسليمها للخليفة عمر، رضي الله عنه.

(٣) الهدف المنشود والحق الضائع.

(٤) من ٤٩٢هـ ـ إلى ٥٨٣هـ.

٤ ـ مآثر المسجد الأقصى:

وهو موطنُ أبيكم إبراهيم[١] ومعراجُ نبيكم محمد، عليهما السلام، وقبلتُكم التي كنتم تصلّون إليها في ابتداء الإسلام، وهو مقرُّ الأنبياء ومقصدُ الأولياء، ومقرُّ الرسل[٢]، ومهبط الوحي، ومنزل تنزُّلِ الأمر والنهي، وهو في أرض المحشر وصعيد المنشر[٣]، وهو في الأرض المقدسة التي ذكرها في كتابه المبين[٤]، وهو المسجد الذي صلى فيه رسول الله، ﷺ، بالملائكة المقربين[٥] وهو البلد الذي بعث الله إليه عبدَهُ ورسولَهُ وكلمتَهُ التي ألقاها إلى مريم وروحَه عيسى، الذي شرفه الله به برسالته، وكرَّمه بنبوته، ولم يزحزِحْه عن رتبة عبوديته، فقال تعالى: ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ﴾[٦]، وقال: ﴿ لقد كفر الذين قالُوا إن الله هو المسيح بن مريم ﴾[٧].

وهو أولى القبلتين، وثاني المسجدين[٨]، وثالث الحرمين، لاتُشَدُّ الرحال بعد المسجدين، إلا إليه[٩]، ولا تعقد الخناصر، بعد الموطنين، إلاَّ عليه.

٥ ـ تهنئة صلاح الدين وجنده والمسلمين بالنصر:

ولولا أنكم ممّن اختاره الله من عباده، وآصطفاه من سكان بلاده، لما خصكم بهذه الفضيلة، التي لا يجاريكم فيها مجارٍ، ولا يباريكم فيها مبارٍ.

---

(١) إشارة إلى قرب المكان الذي مر منه إبراهيم، عليه السلام، ويقال إن قبره موجود فيه، في الحرم الإبراهيمي في مدينة الخليل بفلسطين.

(٢) موسى وعيسى ومحمد، عليهم السلام.

(٣) عن ميمونة مولاة النبي، ﷺ، قالت: قلت: يا رسول الله: افتنا في بيت المقدس. قال: أرض المحشر والمنشر، ائتوه فصلوا فيه» سنن ابن ماجة، جـ ١ ص ٤٥١ الحديث ١٤٠٧.

(٤) الآية ٢٠ من سورة المائدة.

(٥) كما جاء في حديث الإسراء والمعراج في صحيح البخاري.

(٦) الآية ١٧٢ من سورة النساء.

(٧) الآية ١٧ من سورة المائدة.

(٨) لقول الرسول عليه السلام: «إن أول ما بني في المساجد المسجد الحرام، ثم المسجد الأقصى وبينهما أربعون عاماً». (صحيح مسلم، الجزء الأول ص ٣٧٠ الحديث رقم ٥٢٠).

(٩) لقول الرسول عليه السلام: «لا تشد الرحال إلاَّ إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي هذا»: (صحيح البخاري مجلد ١ ص ١٨١).

فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبويةُ، والوقعاتُ البدريةُ، والعَزَماتُ الصدِّيقية، والفتوحُ العمرية، والجيوش العثمانية، والفتكات العلويّة. جدّدتهم للإسلام أيامَ القادسية، والوقعاتِ اليرموكية والمنازلاتِ الخيبرية والهجماتِ الخالدية. فجزاكم الله عن محمد، نبيِّه، أفضلَ الجزاء، وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم في مقارعة الأعداء، وتقبّل منا ومنكم ما تقربتم به إليه من مهراق الدماء، وأثابكم الجنة فهي دار السعداء.

٦ ـ شكر الله على النصر:

فاقدرُوا، رحمكم الله، هذه النعمة، حقَّ قدرها، وقوموا لله بواجب شكرها. فله النعمة عليكم بتخصيصكم بهذه النعمة، وترشيحكم[١] لهذه الخدمة. فهذا هو الفتح الذي فتحت له أبواب السماء[٢]، وتبلّجت[٣] بأنواره وجوه الظلماء، وابتهج به الملائكة المقربون، وقرَّ به عينا الأنبياء المرسلون. فماذا عليكم من النعمة بأن جعلكم الجيش الذي يفتح عليه البيت المقدس في آخر الزمان، والجندَ الذي تقوم بسيوفهم، بعد فترة من الرسل، أعلامُ الإيمان، فيوشك أن تكون التهاني به بين أهل الخضراء[٤] أكثر من التهاني به بين أهل الغبراء[٥]!.

٧ ـ فضائل الأقصى والقدس:

أليس هو البيت الذي ذكره الله في كتابه، ونص عليه في خطابه؟ فقال تعالى: ﴿سُبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى﴾[٦]؟

---

(١) رشّح الشيء للشيء إذا أهّله وربّاه.

(٢) لعله يشير لقول أبي تمام في وصف فتح المعتصم لعمورية:

فتح تفتح أبواب السماء له وتبرز الأرض في أثوابها القشب

(٣) أضاءت.

(٤) السماء للونها الأخضر. (المعجم الوسيط).

(٥) الأرض، وفي الحديث: ما أقلّت الغبراء (حملت) ولا أظلت الخضراء أصدق لهجة من أبي ذر. (سنن ابن ماجة، فضل أبي ذر، الحديث ١٥٦).

(٦) الآية الأولى من سورة الإسراء.

أليس هو البيتَ الذي عظمته الملوك، وأثنت عليه الرسل، وتليت فيه الكتب الأربعة من إلهكم عز وجل؟.

أليس هو البيتَ الذي أمسك الله، عز وجل، فيه الشمسَ على يوشعَ لأجله، أن تغرب، وباعد بين خطواتها ليتيسَّرَ فتحهُ ويقرب[1]؟.

أليس هو البيت الذي أمر الله، تعالى، موسى أن يأمر قومه باستنقاذه فلم يجبه إلا رجلان، وغضب عليهم من أجله، وألقاهم في التيه عقوبة العصيان[2]؟.

٨ ـ شكر الله وحمده:

فاحْمَدوا[3] الله الذي أمضى عَزائمكم لما نَكِلت عنه بنو إسرائيل، وقد فضلهم على العالمين، ووفقكم لما خُذِلَ عنه أمم ممن كان قبلكم من الأمم الماضية، وجمع كلمتكم وكانت شتى، وأغناكم بما أمضته «كان وقد» عن «سوف وحتى»[5].

٩ ـ الملائكة يشكرون الله للمجاهدين:

فليهْنِكم أن الله قد ذكركم فيمن عنده، وجعلكم، بعد أن كنتم جنوداً لا هويتكم، جندَه، وشكر لكم الملائكة المنَزَّلون[6] على ما أهديتم إلى هذا البيت من طيب[7] التوحيد ونشر التقديس والتحميد، وما أمطتم[8] فيه عن

(١) انظر تاريخ الطبري، الجزء السادس الصفحة ١١٧، وكذلك سفر يشوع ١٠/١٢، ١٣.
(٢) الآيات ٢٠ ـ ٢٢ من سورة المائدة. ﴿ يا قومي ادخلوا الأرض المقدسة... ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ﴾.
(٣) حَمد يَحْمِدَ من باب علم.
(٤) أي ضعفت.
(٥) أي أغنى العزم والتنفيذ الفوري عن التسويف والمماطلة.
(٦) من قول الله تعالى: ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ الآية ٦ من سورة غافر.
(٧) أي الرائحة الطيبة.
(٨) أي أزلتم.

طرقهم من أذى الشرك والتثليث[1]، والاعتقاد الفاسدَ الخبيث، فهو[2] الآن يستغفر لكم أملاك السماوات، ويصلي عليكم الصَلواتِ المباركات.

١٠ - نهي عن الغرور وارتكاب المعاصي:

فاحفظوا، رحمكم الله، هذه الموهبة[3] فيكم، واحرسوا هذه النعمة عندكم، بتقوى الله التي من تمسك بها سلم، ومن اعتصم بعروتها نجا وعُصِم. واحذروا من اتباعِ الهوى ومواقفِ الردى، ورجوعِ القهقرى، والنكولِ[4] عن العدا. وخذوا في انتهازِ[5] الفرصة وإزالة ما بقي من الغصّة، وجاهدوا في الله حق جهاده، وبيعوا أنفسكم، عباد الله، في رضاه إذ جعلكم من عباده.

١١ - وما النصر إلا من عند الله:

وإياكم أن يستذلكم الشيطان وأن يداخلكم الطغيان، فيخيّلَ إليكم أن هذا النصر بسيوفكم الحداد وبخيولكم الجياد وبجلادكم[5] في موضع الجلاد. والله، «ما النَصرُ إلاّ من عند الله، إن الله عزيز حكيم»[6].

١٢ - البعد عن المعاصي:

واحذروا، عبادَ الله، بعد أن شرّفكم بهذا الفتح الجليل والمنح الجزيل، وخصكم بهذا النصر المبين، وأعلق[7] أيديَكم بحبله المتين[8]؛ أن تقترفوا

---

(١) ما يقول به النصارى من الآب والابن والروح القدس، والعياذ بالله.
(٢) الضمير يرجع إلى (البيت) بيت المقدس.
(٣) أي العطية.
(٤) أي الرجوع عن المقاتلة.
(٥) أي اغتنام الفرصة.
(٦) الآية ٤ من سورة الأنفال: ﴿ وما النصر إلاّ من عند الله ﴾.
(٧) أي ربط.
(٨) وهو كلمة التوحيد المتمثلة في الدين الإسلامي.

كبيراً من مناهيه، وأن تأتوا عظيماً من معاصيه، فتكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً[١] و﴿الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين﴾[٢].

١٣ ـ دعوة للاستمرار في الجهاد:

والجهادَ! الجهاد! فهو أفضلُ عباداتكم وأشرفُ عاداتكم. انصروا الله ينصرْكم، اذكروا الله يذكرْكم، اشكروا الله يزدكم بشكركم. جُدُّوا في حسم الداء وقطع شأفة[٣] الأعداء، وتطهير بقية الأرض التي أغضبت الله ورسولَه، واقطعوا فروع الكفر واجتثوا أصولَه، فقد نادت الأيام بالثارات الإسلامية والمِلّة المحمدية.

الله أكبر! فَتَح اللَّهُ ونصر! وغَلَبَ اللَّهُ وقهر! وأذلَّ اللَّهُ من كفر!.

١٤ ـ دعوة لتحرير ما تبقى من الأرض المقدسة:

واعلموا، يرحمُكم الله، أن هذه فرصة فانتهزوها وفريسة فناجزوها[٤] ومهمة فاخرجوا إليها بعضَكم وأبرزوها، وسيِّروا إليها سرايا[٥] عَزَماتكم وجهّزوها. فَالأمور بأواخرها، والمكاسب بذخائرها[٦]. فقد أظفركم الله بهذا العدو المخذول وهو مثلكم أو دون، فكيف وقد أضحى في قبالة الواحد منهم منكم عشرون، وقد قال تعالى: ﴿ إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ﴾[٧].

---

(١) من الآية ٩٢ من سورة النحل: ﴿ وَلَا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً﴾.

(٢) من الآية ١٧٥ من سورة الأعراف: ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا. . . ﴾ إلخ الآية، وقيل إنه أمية بن أبي الصلت عرف الديانات السماوية ولم يصدق بما جاء عن محمد، وقيل أحد علماء بني إسرائيل (تفسير ابن كثير).

(٣) أي أزيلوهم من أصولهم، والشأفة في اللغة قرحة تخشن فتستأصل بالكي.

(٤) أي عاجلوها وأسرعوا بها.

(٥) جمع سرية وهي المجموعة العسكرية.

(٦) الذخيرة: ما يخبأ لوقت الحاجة إليه.

(٧) الآية ٦٥ من سورة الأنفال، وثمة رأي يأخذ بأن هذه الآية قد نسخت بما في الآية التالية لها: ﴿ فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ﴾.

أعاننا الله وإياكم على اتباع أوامره والازدجار[1] بزواجره، وأيَّدنا، معشر المسلمين، بنصر من عنده ﴿إنْ ينصركم الله فلا غالب لكم، وإنْ يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده﴾[2].

١٥ ـ الخطبة الثانية: أدعية للسلطان صلاح الدين وللمسلمين في دينهم ودنياهم:

اللهمّ وأَدِمْ سلطانَ عبدك الخاضعِ لهيبتك الشاكرِ لنعمتك، المعترفِ بموهبتك، سيفِك القاطع وشهابِك اللامعِ، والمحامي عَنِ دينك الدافعِ، والذابِّ عن حرمك وحرمَ رسولِك الممانعِ، السيدِ الأَجَلِّ الملكِ الناصر جامعِ كلمةِ الإيمان، وقامعِ عَبَدَةِ الصلبان، صلاحِ الدنيا والدين، سلطانِ الإسلام والمسلمين، مطَهِّرِ البيت المقدس، أبي المظفر يوسف صلاح الدين بن أيوب، محيي دولةِ أميرِ المؤمنين.

اللهمّ عِمَّ بدولته البسيطةَ واجعل ملائكتك براياته محيطة، وأحسنْ عن الدينِ الحنيفيِ جزاءَه واشكرْ عن الملة المحمدية عزمَه ومضاءَه.

اللهمّ ابقِ للإسلام مهجتَه، ووقِّ[3] للإيمان حوزتَه، وانشر في المشارق والمغارب دَعوتَه.

اللهمّ، فكما فتحت على يديه البيتَ المقدس، بعد أن ظُنت به الظنون، وابتلي المؤمنون، فافتحْ على يديه دانيَ الأرض وقواصيهَا وَمَلِّكه صياصي[4] الكفر ونواصيها، فلا يلقى منهم كتيبة إلاّ مزَّقها، ولا جماعة إلاّ فرّقها، ولا طائفة بعد طائفة إلاّ ألحقها بمن سبقها.

اللهمّ اشكر عن محمد، ﷺ، سعيَه، وأنفِذْ في المشارق والمغارب أمرَه ونهيَه، وأصلحْ به أوساط البلاد وأطرافها وأرجاء الممارك وأكنافها.

---

(١) عدم إتيان نواهيه.

(٢) الآية ١٦٠ من سورة آل عمران.

(٣) أي احفظ.

(٤) جمع صيصة وهو الحصن أو كل ما امتنع به.

اللهمّ ذلِّلْ به معاطسَ[1] الكفار، وارغم به أنوف الفجّار، وانشر ذوائب[2] ملكه على الأمصار، وأثبت سرايا جنوده في سبيل الأقطار.

اللهمّ ثَبّتْ الملك فيه وفي عَقِبِهِ إلى يوم الدين، واحفظه في بنيه وبني أبيه الملوك الميامين، واشدد عَضُدَه ببقائهم، واقضِ بإعزاز أوليائه وأوليائهم.

اللهمّ فكما أجريت على يده في الإسلام هذه الحسنة التي تبقىٰ على الأيام، وتتخلّد على مرور الشهور والأعوام، فارزقه الملك الأبدي الذي لا ينفذ في دار المتقين، وأجب دعوته ودعاءه في قوله:

«رب أَوْزِعْني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي، وأن أعمل صالحاً ترضاه، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين»[3].

نظرة تحليلية في خطبة القدس

أولاً: أقسامها وأفكارها الرئيسية:

قامت الخطبة، كأي عمل أدبي، على مقدمة وعرض وخاتمة:

أ ـ المقدمة:

١ ـ وقد تضمنت الأفكار التالية:

أ ـ حمد الله تعالى وشكره على نعمه وتفنيد دعاوى النصارى المشركين بالله (من أولها إلى جاعل الملائكة رسلاً).

ب ـ حمد الله تعالى وشكره على النصر وإظهار قدرته تعالى في تحقيقه (... وأرضى به ربه).

---

(١) جمع مَعْطس وهو الأنفس.

(٢) جمع ذؤبة وهو طرف كل شيء.

(٣) الآية ١٩ من سورة النمل. ويمكن أن توجد هذه الخطبة في مصادر كثيرة غير مفرج الكروب وأشهرها كتاب الروضتين، لأبي شامة القدسي، طبعة ١٢٨٧هـ الجزء الثاني ص ١١٠ وفي وفيات الأعيان الجزء الثالث ٣٦٥ ـ ٣٧١.

جـ ـ الثناء على النبي الكريم (عليه السلام) وعلى خلفائه الراشدين وأصحابه (. . . والتابعين لهم بإحسان).

ب ـ العــــرض:

وقد تضمن الأفكار التالية:

٢ ـ تبشير المجاهدين برضى الله (. . . إلى قوله: الأمة الضالّة).

٣ ـ المسجد الأقصى بين حالي الاحتلال الصليبي والعهد الإسلامي (. . . إلى قوله: من بين يديه).

٤ ـ مآثر المسجد الأقصى منذ أقدم العهود إلى أيام الفتح الإسلامي (. . . إلى قوله: بعد الموطنين إلا عليه).

٥ ـ تهنئة لجند صلاح الدين خاصة وللمسلمين عامة لاستمرار الفتوحات (. . . إلى قوله: فهي دار السعداء).

٦ ـ طلب من جند صلاح الدين شكر الله على ما خصّهم به من نعمة الفتح (. . . إلى قوله: بين أهل الغبراء).

٧ ـ عودة إلى ذكر فضائل بيت المقدس والمسجد الأقصى (. . . إلى قوله: عقوبة العصيان).

٨ ـ عودة إلى الحضّ على شكر الله على تحقيق النصر (. . . إلى قوله: سوى وحتى).

٩ ـ الملائكة تشكر جند صلاح الدين وتدعو الله لهم (. . . إلى قوله: الصلوات المباركات).

١٠ ـ تحذير من الزهو والغرور (. . . إلى قوله: جعلكم من عباده).

١١ ـ تذكير بأن النصر ما هو إلاّ من عند الله (. . . إلى قوله: عزيز حكيم).

١٢ ـ تحذير من اتخاذ النصر سبباً لاقتراف المعاصي (. . . إلى قوله: من الغاوين).

١٣ ـ دعوة إلى أن تظل راية الجهاد مرفوعة (. . . إلى قوله: أذلّ الله من كفر).

١٤ ـ تذكير آخر بإتمام تحرير سائر الأراضي المغتصبة وبالاعتصام بحبل الله (. . . إلى قوله: من بعده)[١].

جـ ـ الخاتمـــة:

١٥ ـ وهي الخطبة الثانية من خطبتي هذه الجمعة وقد تضمنت أدعيـة لله للمسلمين وللسلطان صلاح الدين.

أما المقدمة فهي متصلة بالموضوع ممهدة له، واضحة مناسبة لعقول المستمعين، وهي في طولها تتناسب مع طول الخطبة[٢]؛ ويلفت النظر فيها أنها تفتتح بآية مناسبة لموضوع الخطبة وهو الانتصار على الظالمين ﴿ فقطع دابر القوم الذين ظلموا ﴾. كما يلفت النظر أيضاً أن الخطيب قد حمد الله فيها ثماني مرات متتالية وكلها مما ورد فيه حمد الله تعالى من القرآن الكريم.

ولا يخفى ما لهذا كله من التأثير على قلوب جمهور المستمعين بما يشفي غليلهم حينما يبدأ بالإخبار عن هزيمة الأعداء وحينما يكون النصر من الله عظيماً لا تنهض به تحميدة واحدة لله تعالى. وهي مع ذلك، تشوّقهم إلى الاستماع إلى موضوع الخطبة بآذان صاغية.

كما لا يخفى أن هذه المقدمة قد استهلّت بحمد الله تعالى والثناء عليه وذكر نبيه والصلاة عليه، جرياً على سنن الخطابة المعروفة منذ عهد صدر الإسلام، في الموضوعات المختلفة بوجه عام، وفي المناسبات الدينية بوجه خاص.

أما المعاني التي أراد الخطيب أن يثبتها في نفوس الناس فممكن اختصارها في شكر الله تعالى على ما هيّأ من نصر، وما النصر إلاّ من عند الله، وفي تهنئة للمجاهدين على جهادهم المثمر وفي مجموعـة من المواعظ التي تنفعهم في دنياهم. فعليهم أن يستمروا في حمل راية الجهاد لتخليص البلاد كلها من أعداء

---

(١) انظر «أدب الحروب الصليبية»، د. عبد اللطيف حمزة، ص ٢٠٦.

(٢) راجع في شروط مقدمة الخطبة الناجحة كتاب «فن الخطابة» للدكتور أحمد محمد الحوفي، دار نهضة مصر، ط ٤، ص ١٢٠

الله، وعليهم بعدم الغرور من بعد النصر، كما عليهم أن يلتزموا بأوامر الله ويبتعدوا عن محارمه. ولم ينس الخطيب أن يذكّر بمنزلة القدس والمسجد الأقصىٰ في التاريخ ومكانتها عند المسلمين، كما لم ينسَ أن يفنّد دعاوىٰ النصارى في مزاعم الشرك.

وهذه المعاني تتّصف، كما يبدو، بصفات الوحدة والترتيب والوضوح، وهي الصفات التي ينبغي أن تتوفر في عرض أية خطبة تلقى على الجماهير بغية استمالتهم وإقناعهم[1]. فهي، في مجموعها، يمكن أن تنتظمها مشاعر خطيب مسلم صادق بعد فتح إسلامي تاريخي. وهذا يستتبع وحدة الأثر في نفوس المستمعين وكلهم يتجاوب مع أفكار الخطيب ويعيش التجربة الشعورية التي عاشها قبل موعد الخطبة وفي أبّانها. وهي نابعة أصلاً من التصور الإسلامي الصحيح في أسباب النصر ومشروعية الجهاد.

وقد تداخلت هذه الأفكار وتدرّجت على الرغم ممّا في بعضها من تكرار يتطلبه الأسلوب الخطابي، كما كان الوضوح فيها كافياً لتفاعل السامعين على اختلاف مداركهم وثقافاتهم.

أمّا الخاتمة فقد وردت في أدعيةٍ للّهِ تعالى أن يحفظ المسلمين، قادتهم وعامتهم، في عزٍّ في الدنيا وفي رضى وقبولٍ في الآخرة. وربما كانت الخاتمة على هذه الشاكلة أسوة بما عرف في خطب الجمع ولم يزل متبعاً، وأن الخاتمة آخر ما يبقى في أسماع المستمعين وأذهانهم، كما أن الافتتاحية هي أول ما يقرع اهتمامهم. ومن الملاحظ أن هذه وتلك قد أُخذتا من نصوص القرآن الكريم ليتم التأثير في الناس في الحالين.

ثانياً ـ الخصائص الفنية:

لقد توفّرت هذه الخطبة على الخصائص التي ينبغي أن تتوفر في الخطب الناجحة، والتي تتميز بها عن سائر فنون النثر:

(١) المرجع السابق ويراجع أيضاً كتاب الخطب والمواعظ، محمد عبد الغني حسن، ص ٤١.

١ ـ ففيها من الأطناب ما يكفي لتثبيت الأفكار في كل الأذهان. فمرة بالتكرار المعنوي الذي يوضح المعنى الواحد بجمل متعددة، كقوله: فتح الله ونصر وغلب الله وقهر وأذل الله من كفر. ومرة بالتفصيل والشرح وتوليد المعاني، كقوله: «فيخيّل إليكم أن هذا النصر بسيوفكم الحداد وبخيولكم الجياد»، وذلك توضيحاً لما سبقها من معنى يحتاج إلى توضيح: ﴿ وإياكم أن يستذلكم الشيطان وأن يداخلكم الطغيان﴾. وقوله: فالأمور بأواخرها والمكاسب بذخائرها بعد قوله: واعلموا أن هذه فرصة فانتهزوها وفريسة فناجزوها.

٢ ـ وفيها من الوضوح ما يدلّ على أن الخطيب يعني ما يقول ويختار ما يقول ولمن يقول، في جمل يعرضها عرضاً حسناً مؤثراً، وبترتيب منطقي مقنع.

٣ ـ وفيها من أساليب إثارة الشعور ما يجود وينفع؛ فمرة بالعاطفة الحارّة المتدفقة الصادقة كما رأينا في حمد الله بثماني آيات قرآنية متتالية ومرة بالقسم: «والله ما النصر إلاّ من عند الله»، وثالثة كقوله: «فهذا هو الفتح الذي فتحت له أبواب السماء وتبلّجت بأنواره وجوه الظلماء وابتهج به الملائكة المقربون، وقرَّ به عيناً الأنبياء والمرسلون»، ورابعة باختيار الجمل القصيرة المثيرة سريعة الفهم والتأثير، كقوله: «والجهادَ الجهادَ فهو أفضل عباداتكم وأشرف عاداتكم، انصروا الله ينصركم، اذكروا الله يذكركم، اشكروا الله يزدكم بشكركم، جُدوا في حسم الداء وقطع شأفة الأعداء»، وخامسة بالمراوحة بين أساليب الخبر والإنشاء: «أليس هو البيت الذي ذكره الله في كتابه؟... أليس هو البيت الذي عظمته الملوك»؟ وسادسة في الإكثار من مخاطبة المستمعين خطاباً مباشراً في أساليب النداء، وفي الجمل الدعائية، وفي نثر كاف الخطاب للجماعة نثراً كثيراً بين ثنايا الكلمات: فجزاكم الله عن محمد أفضل الجزاء وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم[1].

٤ ـ وفي الخطبة، من بعد، انسجام لفظي موسيقي يوقع في النفوس تأثيراً

(١) يراجع فصل خصائص الأسلوب الخطابي في كتاب فن الخطابة للدكتور أحمد محمد الحوفي ١٤٦ ـ ١٩٦ وكتاب الخطب والمواعظ، محمد عبد الغني حسن ص ٤٩.

وإعجاباً بمضامينها وأهدافها؛ فلقد كانت الجمل النثرية تكاد تحمل صفة الشعر والتقفية، وهي تتقارب في أطوالها وفواصلها وأجراسها: «ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية والوقعات البدرية والعزمات الصدِّيقية والفتوح العمرية... إلى الهجمات الخالدية».

وهنا يلحظ المرء أن الخطيب قد احتفل بالسجع وبالمزاوجة احتفالاً خاصاً. وإذا كان لا بدّ من دفاع عن تهمة الصنعة هنا فهو القول إن أسلوب الخطابة يقوم أصلاً، فيما يقوم عليه من أصول، على السجع والمزاوجة، وذلك لنفاذها في نفوس الجماهير وإلى قلوبهم. كما أن هذه الحلية اللفظية لم يبالغ في استعمالها في هذه الخطبة مبالغة أودت بالأفكار والتأثير.

٥ ـ ولم تَجْرِ الخطبةُ على سنن الخطب الإسلامية بالبدء بذكر الله وبالثناء عليه وعلى رَسوله وعلى صحابته وبالاختتام بآيات الله فحسب ولكنها اتخذت من القرآن الكريم مصدرها الأول في الألفاظ والتراكيب والمعاني والخيال والأثر العام، كما أنها أخذت من أحاديث الرسول الكريم ما يناسبها لموضوعها، ومن أخبار التاريخ الإسلامي والمقدسات الإسلامية..

* * *

وأخيراً فهل قام النثر بدوره الفني التاريخي؟ إن من ينظر في هذه الرسالة وهذه الخطبة لَيَشعُرُ أن صاحبيهما قد جمعا المجد من أطرافه، كما يقال، فلقد كانت القطعتان الأدبيتان سجلاً أميناً للأفكار الإسلامية في معايشة البيئة والعصر من حولهما، في الانطلاق من العقيدة الإسلامية في الجهاد والنصر وفي الإعداد للنصر والتحرير وفي تثبيت أركان الإيمان الذي هزم، بحول الله، مظاهر الشرك والعدوان. كما كانت القطعتان مثلاً بارزة على الإجادة الفنيّة التي تسخّر اللغة وأساليبها للفكر وضرورياته. وقد كان لهما تأثير على القلوب كما أن لهما تأثيراً على الفكر والإحساس، وكفى بهما، من بعد ذلك، مثلاً على حيوية أدب ذلك العصر في خدمته للأمة وفكرها.



الفصل الثالث

الأدب
في مرحلة الثبات والتطهير
(٥٨٥ - ٦٩٢هـ)

تبدأ هذه المرحلة بالسنوات الأخيرة من حياة السلطان الناصر صلاح الدين (٥٨٩ هـ)، وتشتمل، معها، على عهد خلفائه من أبنائه وأبناء أخيه العادل وأحفادهما من الأيوبيين، وعلى عهد من جاء بعدهم على الحكم من سلاطين المماليك، منذ عام ٦٤٨ هـ، وتنتهي عام ٦٩٢ هـ، الذي شهد إخراج فلول الفرنجة من حصن عكا، آخر معاقلهم فيها، في زمن السلطان خليل بن الأشرف قلاوون.

وقد تميّزت عهود الأيوبيين بفترات من الشقاق الداخلي الذي هيأ للفرنجة أن يعودوا إلى بعض مناطق بلاد الشام ومصر.

ففي عام ٥٩٤ احتلوا عكا[١]، وفي عام ٦١٦ احتلوا دمياط على السواحل المصرية[٢]، وفي عام ٦٢٦ عادوا إلى بيت المقدس التي أخلاها أصحابها لما سمعوا أن الفرنجة قد عادوا إليها بجموع غفيرة[٣]، وفي عام ٦٤٨ عادوا إلى احتلال دمياط مرة أخرى[٤].

ولكن هذه النكبات كانت، ولم تزل، توحد جهود المسلمين. فما لبث الفرنجة أن طردوا عن دمياط بعد عامين من احتلالهم لها. وإذا تآمر الملك

(١) كتاب الروضتين ٢/٢٣٣.
(٢) الكامل في التاريخ: ابن الأثير ١٢/٨٧.
(٣) المرجع السابق والصفحة.
(٤) النجوم الزاهرة ابن تغري بردي ٦/٣٦٦.

الكامل على مدينة القدس للفرنجة ليخرجوا من دمياط[1]! مع تآمره على ابن أخيه الملك الناصر داود ليطرده من دمشق؛ فإن هذا الملك الطريد هو الذي حرر مدينة القدس ثانية، عام ٦٣٧، من منفاه الذي أرسل إليه في مدينة الكرك في الأردن[2]! وإذا استغل الفرنجة توزع قيادة الحكم في أواخر عهد الأيوبيين، في مصر، فاحتلوا دمياط فإن الملك المعظم توران شاه قد استهل حكمه بطردهم منها طرداً شنيعاً عام ٦٤٨، بعد أن قتل منهم الآلاف، وسجن قائدهم الملك لويس التاسع ملك فرنسا في بيت متواضع في المنصورة هو بيت ابن لقمان!

ولذا قال ابن مطروح في فتح القدس:

المسجد الأقصى له عادة	سارت فصارت مثلاً سائراً
إذا عاد بالكفر مستوطناً	أن يبعث الله له ناصراً
فناصر طهَّره أولاً	وناصر طهّره آخرا[3]

وقال الشاعر نفسه في الحادثة الثانية:

قل للفرنسيس إذا جئته	مقال صدق من قئول فصيحْ
قد جئت مصراً تبتغي أخذها	تحسب أن الزمر، يا طبل، ريح
فساقك الحَيْنُ إلى أدهم	ضاق به عن ناظريك الفسيح
وقل لهم إن أضمروا عودة	لأخذ ثأر أو لقصد صحيح:
«دار ابن لقمان على حالها	، والقيدُ باقٍ، والطواشي صبيحْ»[4]!!

وإذا استهل المماليك عهدهم بملاحقة فلول الغزاة الصليبيين على السواحل المصرية، فلقد ثبتوا أمام الزحف المغولي الغاشم، بل إنهم تصدوا له وأوقفوا زحفه في معركة عين جالوت عام ٦٥٨، بقيادة السلطان قطز وقائد

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ١٢/٨٧.
(٢) المنهل الصافي ابن تغري بردي ٢/٨٤.
(٣) السلوك، المقريزي، جـ ١ قسم ٢ ص ٢٩٢.
(٤) ديوان ابن مطروح ص ١٨١.

عسكره الظاهر بيبرس[1]. ولو لم يكن هؤلاء من القوة بمكان لوَثَبت في وجوههم جيوش الصليبيين. ولقد قيل إن الصعود إلى القمة ليس أسهل من الثبات عليها، بل إن البقاء في منازل العزة يتطلب تضحيات جسيمة والتفافاً حول مبادىء ثابتة لا تتغير؛ ألم يقل الشاعر منذ القديم:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يـراق عـلى جـوانبـه الـدم؟

ولعل هذا ما سيتبدى لنا فيما خاضه خلفاء صلاح الدين من أبنائه وأبناء أخيه العادل من معارك، ومن كرٍّ ومن فرٍّ، في سبيل الحفاظ على الحمى الإسلامي. وسيظهر لنا، أيضاً، في حروب المماليك الذين جاءوا إلى الحكم في مصر وبلاد الشام، بعدهم، مع الفرنجة، طيلة مدة تزيد على الأربعين عاماً، وضد تهديدات المغول لبلاد الشرق الإسلامي، أيضاً.

دور الشعر في هذه المرحلة:

ولقد تكفل بتوضيح هذه الحروب ونقلها إلى التاريخ أشعار الشعراء الذين كانت الغيرة تدفعهم للدعوة إلى تحرير المزيد من البلاد الإسلامية المحتلة، مرة، وإلى التعاون على الأعداء ونبذ الخلافات الداخلية مرة أخرى، ولتحذير المسلمين من التفريط المؤدي إلى الاحتلال، مرة بعد مرة.

كما تكفلت أشعار بعض الشعراء بنقل أفراح المسلمين العارمة حينما استطاعوا، بقيادة بعض سلاطين المماليك، طرد غزاة الفرنجة المعتدين خارج الحياض الإسلامية في مصر والشام.

١ ـ دعوة لتحرير سائر المدن الشامية المحتلة:

فعندما فتح بيت المقدس جعل الشعراء يحثّون القائد المظفر صلاح الدين على أن يمضي إلى ما بقي تحت أيدي الفرنجة في بلاد الشام، فينقضّ عليها

---

(١) البداية والنهاية، لابن كثير، جـ ١٣ ص ٢٢٠، دار الفكر العربي. السلوك، المقريزي جـ ١ قسم ٢ ص ٣٦٣.

ليستردها، من أسرهم، إلى حياض الإسلام[1]. وممن أنشأ في ذلك العماد الكاتب، إذ يقول في قصيدة:

قل للمليكِ صلاحِ الدين أكرم من ... يمشي على الأرض أو من يركب الفرسا
من بعد فتحك بيت القدسِ ليس سوى ... صورٍ، فإن فُتحت فاقصدْ طَرابُلُسَا
أَثِرْ على يومِ انْطَرسوسَ ذا لَجَبٍ ... وابعث إلى ليل أنطاكية العَسَسَا[2]
وأَخْلِ ساحلَ هذا الشام أجمعَه ... من العُداة ومن في دينه وَكِسَا[3]
ولا تَدَعْ منهم نَفْساً ولا نَفَساً ... فإنهم يأخذون النَّفْس والنَّفَسا[4]

فها هُوَ ذَا العماد، الوزير الصلاحي، يحرض مولاه على إتمام مسيرته في التحرير، ليشمل بجهاده صور وطرابلس وطرسوس وأنطاكية، فهي لم تزل تنوء تحت نير الاحتلال الصليبي. وهو يستعديه على هؤلاء الأعداء ويهيب به أن يخلص ساحل بلاد الشام كله منهم، بل يطلب إليه أن يتخلص منهم جميعاً، فقد حاولوا أن يقضوا على جميع من في بلاد المسلمين.

٢ ـ دعوة للتعاون لرد العدوان الصليبي المتكرر:

وحينما يدبّ الخلاف بين سلاطين بني أيوب، بعد عهد صلاح الدين، تسنح الفرصة لأعداء الإسلام بالعودة إلى بلادهم في مصر وبلاد الشام، وتكون دمياط، على السواحل المصرية، هدفهم، فيحتلونها، ويتضايق أهلها ويبحثون عن العون والمساعدة. من ذلك ما أرسله الأمير جمال الدين الكناني، وهو مع المحصورين فيها، عام ٦١٦ هـ، إلى الملك الكامل في القاهرة:

أشكو إليك عدوَّ سوء أحدقت ... بجميعه فرسانُه وخيولُه
فالبَرُّ قد مُنعتْ إليه طريقُه ... والبحر عَزَّ لنُصرةٍ أسطولُه

(١) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية، د. أحمد أحمد بدوي، ص ٤٢٣.
(٢) انطرسوس اسم آخر لمدينة طرسوس على الساحل السوري، ذا لَجَب: الجيش بما يخرج عن مشاته من أصوات وَجَلَبَة، العسس: العيون.
(٣) وُكِسَ: أي خَسِر.
(٤) كتاب الروضتين، طبعة ١٢٨٧هـ، الجزء الثاني ص ١٠٢.

فاحرُسْ حِماه بعزمةٍ تشفي بها   داءً بمثلك يُرتجى تعليلُه(1)

إن دمياط يحاصرها الأعداء من البر الذي حالوا به بين الناس وبين الاتصال بأهاليهم، ومن البحر بأسطول قوي، فالنجدةَ النجدةَ.

ثم يحذره من الالتجاء إلى تقديم الأعذار عن الإقدام إلى الجهاد في سبيل الله، فكل هذه الأعذار غير مقبولة لدى المسلمين:

فالعذر في نصر الإلّه ودينه   ما ساغ عند المسلمين قبوله

أما إن قعد عن نصرة هذا الدين فإن الخسارة ستكون جسيمة:

ولئن قعدتَ عن القيام لنَصره   جفّت نضارتهُ وبان ذبولُه(2)
ووهت قوى القرآن فيه ورُفِّعت   صلبانُه وتلي به إنجيلُه(3)
وعلا صدى الناقوس في أرجائه   وخفي على سمع الورى تهليلُهُ(4)

وهذا هو أشد ما يخيف المسلمين ويهدد مشاعرهم الدينية بالخطر، أن يوضع الإنجيل، في مكان العبادة، مكان القرآن، وأن يرتفع صوت الناقوس بدلاً من الإصاخة لصوت الأذان.

٣ ـ دعوة لإنهاء التنابذ:

ولما وصل الأمر بين أبناء الملك العادل (أخي صلاح الدين) إلى القطيعة كان كأنما يوجه الخطاب إليهم الوزير المصري طلائع بن زُرِّيك، وهو يقول:

أمن بعدما ذاق العدا طعم حربكم   بفيهم وكانت وهي صاب وعلقم(5)
رجعتم إلى حكم التنافس بينكم   وفيكم من الشحناء نار تضرّم(6)

---

(1) من عَلَّل الشيء إذا عمل على إزالة علته، أي تمريضه ومعالجته.
(2) الضمير يعود للدين.
(3) وهت: ضعفت.
(4) السلوك لمعرفة دول الملوك، المقريزي، ١/١٩٩.
(5) الصاب: شجرٌ مرٌّ. العلقم: شجر الحنظل وكل شيء مر.
(6) الشحناء: العداوة، تضرّم: تتضرم، تشتعل.

أمـا عنـدكم من يتقي الله وحـده   أما في رعاياكم من الناس مسلم[1]؟

إنها دعوة صادقة لنبذ الخلافات الداخلية بين أمراء المسلمين من أجل أن يقفوا صفاً مرصوصاً في وجه الأخطار الخارجية التي تهددهم. فكيف يتقاتلون، فيما بينهم، وكانوا قد أحرزوا النصر على الأعداء بتلاقيهم على الجهاد في سبيل الله؟ إن هذا التقريع يخاطب ما في نفوسهم من كرامة الإنسان المدافع عن كيانه وعن ممتلكاته، ولكنه لا يلبث أن يوجه إليهم خطاباً أكثر تخصيصاً يتناسب مع ما يحملون من مسؤولية دينية أمام الله، تعالى، إذا اقتتل مع أخيه المسلم. فوراء ذلك كله تقوى الله واتباع أوامره واجتناب نواهيه، لا يستشعرها القادة والسلاطين فحسب ولكن يُطالَب بالإحساس بها ورعايتها عامة الناس أيضاً.

٤ ـ رثـــاء القدس :

ويبلغ الخصام بين حكام المسلمين في الشرق، حينئذ، أقصاه، فيسهل على أعدائهم الفرنجة العودة إلى الفردوس الذي أخرجوا منه عنوة قبل نيف وأربعين عاماً، إلى بيت المقدس أولى القبلتين وثاني المسجدين وثالث الحرمين الشريفين، فتنهمر الدموع من العيون ومن القلوب كما يحدثنا صاحب كتاب الروضتين[2] في النص التالي:

لم يزل البيت المقدس، شرفه الله تعالى، ملحوظاً بالعمارة والتحصين، من عهد السلطان صلاح الدين، رحمه الله، إلى سنة ست عشرة وستمائة[3]، فإنه ضرب في المحرم منها، بسبب خروج الفرنج، لعنهم الله، وانتشارهم في البلاد، فخيف من استيلائهم عليه. وفي السنة التي قبلها توفي الملك العادل، أخو السلطان، وتشتت الناس بعد خرابه ورغبوا عن السكنى به، ورثاه الرئيس

(١) راجع الكامل في التاريخ لابن الأثير، الجزء الحادي عشر الصفحة ١٤٢، وقد قيلت أصلاً زمن نور الدين محمود، وراجع أيضاً، ديوان طلائع بن رُزِّيك جمع وتبويب محمد هـادي الأميـني، ص ١٣٣، المكتبة الأهلية، النجف الأشرف.

(٢) كتاب الروضتين، أبو شامة القدسي، طبعة ١٢٨٧ هـ، الجزء الثاني، الصفحات ٢٠٥، ٢٠٦.

(٣) كذا ورد تاريخ عودة الصليبيين إلى القدس، في هذا المرجع، والصواب أنهم رجعوا إليه عام ٦٢٦ هـ. (راجع المرجع المذكور في الرقم التالي في هذا الهامش).

الفاضل شهاب الدين أبو يوسف يعقوب بن المجاور[1] بقصيدة منها:

أعينيَ لا تَــرْقَيْ من العَبَــرات صِلي، في البكا، الآصالَ بالبُكُرات[2]
لعل سَيولَ الدمع يطفىءُ فيضُها توقدَ ما في القلب من جَمَرات[3]
ويا قلب أسعِرْ نار وَجْدِك كلما خَبَتْ، بادّكارٍ يبعث الحَسَرات[4]
ويا فم بُحْ بالشجو منك، لعله يروّح ما ألقى من الكُـرُبات[5]

يحسّ الشاعر بالحاجة الملحّة للبكاء الشديد الذي يصل الليل بالنهار لتخفيف ماألـمَّ به من حزن بالغ بعد عودة النصارى لبيت المقدس. وليس هذا دعوة لتناسي الهموم بل إنه يذكّر نفسه بضرورة الإبقاء على هذه الذكرى الأليمة حيّة في النفس. وهو، إلى ذلك كله، يقول ما يقول في هذه القصيدة، من حزن وتحسّر، لعله يخفف ما أصابه من ألمٍ ممضّ؛ أليس في البَوْح ما يريح المكروب؟ وقد قيل قديماً «لا بد للمصدور أنْ ينفث».

أما موضوع هذه الأحزان جميعها فهو احتلال الصليبيين، مرة ثانية، للمسجد الأقصى بعد أن عمره الإيمان والصلوات والتسابيح. وهو في الفقرة الشعرية الثانية يعدّد مآثر هذا الحرم القدسي ويذكر منزلته في قلوب المسلمين منذ تاريخ الإسراء والمعراج ومن خلال ما توارثوه من أخبار عنه وأحداث؛ فهو موطن العبادة الأشهر في بلاد الشام، وفيه صلى رسول الله، عليه السلام، بالملائكة، وفيه أُوحي إلى الرسل، موسى وعيسى ومحمد، عليهم السلام، وفيه مسلمون مجاهدون يغارون على دينهم دائماً، والله أسرى بالرسول عليه السلام إليه،

---

(١) ابن المجاور هو وزير العزيز عثمان ابن صلاح الدين وخليفته على مصر. وأنشد هذه القصيدة سبط بن الجوزي على ملأ من الناس عام ٦٢٦هـ بين يدي السلطان الناصر داود حزناً على ضياع القدس (راجع السلوك، للمقريزي جـ ١ قسم ١ ص ٢٣٣).

(٢) رَقَأَ الدمع يرقأ رقئاً ورقوءاً إذا سكن وجف وانقطع بعد جريانه، وترقي تخفيف من ترقأي، العبرات: جمع عَبرة وهي، الآصال: جمع أصيل وهو وقت ما قبل الغروب، البكرات: جمع بكرة وهي الصباح الباكر من النهار.

(٣) فيضها: غزيرها، جمرات: حزن شديد يشبه الجمر.

(٤) أسعر: أشعل النار. الأدّكار: التذكر، خبت: انطفأت أو كادت.

(٥) الشجو: بث الحزن.

ومن ثمّ عرج به إلى السماوات العلى، وفيه الصخرة الأكثر شهرة في العالم، وإليه كان يتوجه المسلمون في صلاتهم أولاً، ولا بدع إذن إذا كان من خيّر ما بني من بيوت الله ليعمره أنبياء الله والمؤمنون:

١ ـ على المسجد الأقصى الذي جلّ قدره — على موطن الإخبات والصلوات(١)
٢ ـ على منزل الأملاك والوحي والهدى — على مشهد الأبدال والبَدَلات(٢)
٣ ـ على سلم المعراج والصخرة التي — أنافت بما في الأرض من صخرات(٣)
٤ ـ على القبلة الأولى التي اتجهت لها — صلاة البرايا في اختلاف جهات
د ـ على خير معمور وأكرم عامر — وأشرف مبنيٍّ لخير بناةِ

ثم يعرض الشاعر لحال المسجد الأقصى، وقد وقع في أسر الاحتلال الصليبي فخلا من الصلوات ومن المصلين الضارعين إلى الله بالعفو والمغفرة، خلا من بعد ما كان عزيزاً مشرفاً، وكان موطناً لفعل الخير والإحسان والتقرب إلى الله، وكان يقصده العابدون المعتكفون على العبادة.

٦ ـ عفا المسجد الأقصى المبارك حوله — الرفيع العماد العالي الشرفات(٤)
٧ ـ عفا بعد ما كان للخير موسماً — وللبر والإحسان والقُرُبات(٥)
٨ ـ يوافي إليه كلُّ أشعثَ قانت — لمولاه، بَرٌّ دائم الخلوات(٦)
٩ ـ خلا من صلاة لا يمل مقيمها — توشَّحُ بالآيات والسورات(٧)
١٠ ـ خلا من حنين التائبين وحزنهم — فمن بين نُوَّاح وبين بُكاةِ

ويوصله هذا الحزن الغامر على المسجد الأقصى، بعد أن يقارن بين حاليه، في عهد الاحتلال الصليبي وفي عهد المسلمين؛ يوصله إلى حزن أشد،

---

(١) الإخبات: الخشوع والتواضع.
(٢) الأملاك: الملائكة، الأبدال: هم مجموعة من رجال الله الأتقياء قيل إنهم يعيشون في بلاد الشام وكلما مات أحدهم بعث الله غيره. والبدلات بالمعنى نفسه.
(٣) أنافت: ازدادت فخراً وشهرة.
(٤) عفا: درس وضرب، الرفيع العماد: الثابت الأسس والأركان.
(٥) القُرُبات: جمع قربة وهي ما تتقرب به إلى الله.
(٦) يوافي: يأتي. أشعث: متفرق الشعر، كناية عن عدم الاهتمام بعرض الدنيا، قانت: خاشع.
(٧) توشح: تتزين.

فيدعو الدنيا بأسرها لتشاركه البكاء على القدس، فهي تستحق كـل هذه الأحزان التي تعمّ العالمين. ثم لا يلبث أن يتذكر أخواتها من المدن ذات المكانة الخاصة في أحداث التاريخ الإسلامي، يتذكر مكة المكرمة فيطالبها بالبكاء وإيصاله إلى جبل عرفات ثم يتذكر المدينة المنوّرة فيطالبها بمثل ما طالب به مكة ويدعوها لشرح حكاية القدس وضياعها في الروضة الشريفة في المسجد النبوي الشريف:

١١ ـ لتبك على القدس البلاد بأسرها وتعلن بـالأحـزان والتـرحـات
١٢ ـ لتبـك عليهـا مكةٌ، فهي أختهـا ،وتشكو الذي لاقت إلى عـرفات
١٣ ـ لتبك على ما حل بالقدس طيبةٌ وتشـرحـه في أكـرم الحجـرات

ولا يكتفي الشاعر بدعوة الدنيا كلها، وليس مكة والمدينة فحسب، إلى أن تبكي القدس معه، فيدور في أرجاء هذه الدنيا باحثاً عن نساء نائحات يجدن النواح وإثارة الشجن وهن يُغنِّين قصيدة حزينة نائحة بكى فيها صاحبها، دعبل بن علي الخزاعي، (٢٤٦ هـ)، آل رسول الله، عليه السلام. هي التائية المعروفة التي أنهى قصيدته بذكر بيت مشهور منها (مدارس آيات... إلخ البيت):

فمن لي بنُوّاحٍ يَنُحْن على الذي شجاني بأصواتٍ، لهن، شُجاة[1]
يـرددن بيتـاً للخـزاعي قـالـه يُؤبِّن فيـه خِيْـرةَ الخِيَـرات[2]
«مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزلُ وَحْيٍ مقفر العَرَصات»[3]

إن الشاعر يبكي بهذه الحرقة ويستبكي العالمين والمدن الإسلامية ويبحث عمن ينشده الشعر الباكي المشابه لما هو فيه من موقف، إنه يفعل ذلك كله لما

---

(١) نواح: جمع نائحة وهي التي تمتهن البكاء واللطم على الأموات، شجاة: جمع شاجٍ وهو مثير الحزن والشجى.

(٢) الخزاعي: دعبل بن علي، الشاعر المتشيع في العصر العباسي، يؤبن: يذكر صفات المرثي، خيرة الخيرات: الرسول عليه السلام.

(٣) مدارس آيات: أمكنة عبادة، العرصات: جمع عَرْصة وهي الساحة. النص في كتاب الروضتين ٢/٢٠٥.

يشعر به من فداحة المصيبة التي أصابت المسلمين بضياع القدس الذي ظنّ أنه سوف يستمر إلى الأبد!!!.

٥ ـ فرحة التطهيـر :

ويقيض الله لهذا الدين، من بعد، من يقيل عثرته، على يد المجاهدين الصادقين، فيديل من أواخر الأيوبيين المتخاصمين للمماليك، فيهبّ هؤلاء بثقة الإيمان بنصر الله للصمود في وجه غزاة الفرنجة ولدحر هجمة أخرى أكثر خطراً وهمجيّةً وتخريباً هي موجة الغزو المغولي في عين جالوت عام **٦٥٩** هـ أي بعد سقوط بغداد بسنتين اثنتين، على يد السلطان المظفر قطز وخليفته الظاهر بيبرس.

ويشتد هؤلاء المماليـك، وخلفاؤهم من بعـدهم، على الصليبيـين، فيمكنهم الله من النصر عليهم ومن إخراجهم من الأراضي المقدسة بعد أن مضى على مغالبتهم فيها أكثر من قرنين. فهذا الشهاب محمود، الشاعـر الكاتب، يذكر الهزيمة النكراء التي حاقت بالتتار والروم معاً على نهر جيحان عام **٦٧٥** على يد السلطان قطز وقائده الظاهر بيبرس، فيقول:

كذا! فلتكن في الله تمضي العزائم وإلاَّ فلا تجفو الجفـونَ الصوارمُ[1]
سرت من حمى مصر إلى الرومِ فاحتوت عليـه وسـواره الـظبـا واللهـاذم[2]
بجيش تـظل الأرض منه كـأنها على سعة الأرجاء في الضيق خاتم
كتـائبُ كـالبحـر الخِضَمِّ جيـادُهـا ، إذا ما تهادت، موجُه المتلاطم[3]

إن تغلّب القائد المسلم على جمع من الروم والتتار يملأ عطفي الشاعر بالإعجاب فيضرب بعزيمته المثل على الجهاد في سبيل الله، ويذكر أن هذا النصر قد جاء من جهة مصر، حيث قيادة المماليك، وأُحرز في بلاد الشام هذا النصر المبين، بجيش يضيّق الأرض على سعتها في وجوه الأعداء، ولا عجب، فهو

---

(١) الجفون ج جفن وهو قراب السيف، أو الغمد.
(٢) اللهذم: كل شيء قاطع من سنان أو سيف أو ناب.
(٣) الخضم: البحر الواسع.

جيش كثيف كموج البحر المتلاطم عدة وعدداً.

وبعد أن يصف عزم القائد وكثافة الجيش الجرار يعود إلى الحديث عن دور السلطان في خدمة الدين ومجالدة الكفار ودفعهم عن البلاد. فهذه الكتائب:

تحيط بمنصور اللواء مظفر	له النصر والتأييد عبد وخاتم[1]
مليك يلوذُ الدين عن عزماته	بركن له الفتح المبين دعائم[2]
مليك له للدين في كل ساعة	بشائر، للكفار منها مآتم
جلا حين أقذى ناظر الكفر للهدى	ثغوراً بكى الشيطان وهي بواسم[3]
من الترك، أما في المغاني فإنهم	شموس، وأما في الوغى فضراغم[4]
فلا زلت منصور اللواء مؤيداً	على الكفر ما ناحت وأبكت حمائم[5]

إنه مظفر مرفوع راية النصر على الدوام، وقد قويَ جانب الدين وتأثل بما حقّق من انتصارات مثل هذا الانتصار، وبما بشّر به المسلمون بعضهم بعضاً من بشائر النصر على الأعداء، وقد وضع بذلك حدّاً للفتن الكثيرة التي يثيرها حزب الشيطان في وجه أهل الله، وأخيراً يدعو بالنصر والتأييد الدائم على الكفار.

ويناقش، في أثناء ذلك، موضوعاً يبدو أنه كان مثيراً للجدل والحساسيّة القوميّة آنذاك. وأعني به الأصول التركية لهؤلاء القادة؛ إنه حينما يقول «من الترك» كأنما يقرر حقيقة لا يرتاح لها كثير من الناس في عصره، لذلك فإنه ينبري للدفاع عنها أمام هؤلاء الناس، فمقابل هذه الأصول المنتقدة فإن لهم قدم صدق في خدمة الدين، في حالتي السلم والحرب، ففي الأولى لهم أفعال مشهورة وأيادٍ بيضاء ناصعة كالشمس، وفي الثانية فإنك تجدهم في شجاعة

---

(١) أي أن النصر يتبعه مثل خادمه أو مثل الخاتم في يده.

(٢) يلوذ: يلتجىء، عزماته: أفعاله الجبارة.

(٣) أقذى: أحزن.

(٤) المغاني: أيام الكرم وإثبات الرجولة. الوغى: المعارك، الضرغام: الأسد.

(٥) النجوم الزاهرة، ابن تغري بردي، الجزء السابع الصفحة ١٧٠، ١٧١.

الأسود ؛ فهل يبقى عليهم، بعد هذا وذاك، من تهمة تنتقص من أصولهم العرقية؟ أليس الدين أقوى وأمتن من كل ادعاءٍ في الجنس والقومية؟.

نـــص آخر :

ويعيش الشاعر نفسه إلى أن يشهد نصراً أكبر من هزيمة الصليبيين والتتار معاً، وذلك في اندحار آخر قوة صليبية تستحكم في حصن عكا الشهير بعناده دون الجيوش المختلفة الأجناس والأديان، يعيش ليشهد النصر الأكبر فيهلّل ويكبّر، مرة أخرى، لهذا النصر العظيم، ويهتف بلسان كل مسلم ينتظر أن تطهّر بلاده من كل غاشم طامع في بلاد الإسلام والمسلمين، فيقول:

١ ـ الحمـد لله! زالت دولة الصُلُب وعزّ بالترك دين المصطفى العربي
٢ ـ هذا الذي كانت الآمال، لو طلبت رؤياه في النوم لاستحيت من الطلب

يستهلّ الشاعر قصيدته بخلاصة موجزة لموضوعها، فيحمد الله على تخلّص المسلمين من العدو النصراني الذي طال على الزمان صراعه معه، وهو حكم سريع فيه من البساطة الشيء الكثير وفيه من راحة النفس الشيء الأكثر ، وفي الحكم أيضاً ما يدل على تضافر الأجناس القومية الداخلة في الإسلام لدفع هذا الخطر الغاشم ، ولعل الشاعر يشعر بما في هذا المطلع من غرابة تأتي من بساطة ألفاظه وقرب معانيه، فيعلل له في البيت الثاني: أن لا تستغربوا مني هذا ولو قلت أكثر منه بعثاً على الاستغراب، فما حدث في الواقع لم نكن نجرؤ على طلبه في النوم! وفي هذا دلالة على عظم ما استطاع المسلمون أن يحرزوا من نصر يقرب ما بين الحلم والحقيقة.

ويفصّل، بعد هذا الافتتاح الموجز المعبّر، فيما يراه حلماً بعيداً متحققاً:

٣ ـ ما بعد عكا، وقد هُدّت قواعدُها في البر والبحر، ما يُنْجِي سوى الهرب
٤ ـ كـانت تخيّلها آمـالُنـا فنـرى أنَّ التفكـرَ فيها أعجب العجب
٥ ـ ففـاجـأتْها جنـودُ الله يقـدمها غضبان لله ، لا للملك والنشب[1]
٦ ـ حبيش من الترك، تَرْكُ الحرب عندهم عارٌ، وراحتهم ضرب من الوصب[2]

(١) النشب: المال والعقار.
(٢) الوصب: التعب.

إن ما حدث، في فتح عكا، ليبعث على الدهشة! لقد كنا حينما نجري أمر تحريرها في خواطرنا ترتد إلينا آمالنا بأسف وحسرة، فهو أمر ليس في الاستطاعة، ولكن حينما جدّ الجد انقلب ذلك إلى الإمكان، في المباغتة الناجحة التي هجمت بها الجنود المؤمنة بالله بقيادة القائد الغضبان لأجل نصرة دين الله. ثم وصف هؤلاء الجنود بأنهم من الجنس التركي الذين اعتادوا المعارك وألفوا الحروب والانتصارات، ومن هنا كان انتصارهم ضرباً من الإعجاز!.

ثم يوجه خطابه ليوم الانتصار على الصليبيين في عكا ليبرز أثر فرحته على قلوب المسلمين، ومخاطبة الزمان أو المكان أو الجماد لون من الإسقاط يقوم به الأدباء ليوصلوا ما يدور في أخلادهم من الأفكار بأساليب مختلفة معبِّرة.

٧ ـ يا يوم عكا! لقد أنسيتَ ما سبقت ... به الفتوح وما قد خُطَّ في الكتب
٨ ـ لم يبلغ النطق حد الشكر فيك، فما ... عسى يقوم به ذو الشعر والخطب
٩ ـ كانت تمنّي بك الأيام عن أَمَمٍ ... والحمد لله شاهدناك عن كَثَب[١]

ومنهـــا:

١٠ ـ أَغضبت عُبَّاد عيسى إذ أبدتهم، ... لله! أيُّ رضىً في ذلك الغضب!
١١ ـ وأطلع الله جيش النصر فابتدرت ... طلائعُ النصر بين السمر والقضب[٢]
١٢ ـ وأشرف المصطفى الهادي البشير على ... ما أسلف الأشرف السلطان من قُرب[٣]
١٣ ـ فقرَّ عيناً بهذا الفتح، وابتهجت ... بفتحه الكعبة الغراء في الحجب[٤]!

ويشترك هذا الشاعر فيما ذكر غيره من تفضيل يوم نصره على سائر الانتصارات الإسلامية السابقة، فيرى أنه أنساها جميعا فلم يعد يذكر الناس منها شيئاً ولو قرأوا عنه في كتب التاريخ! إنه يوم لا ينهض بتسجيل مآثره شاعر ولا خطيب، فقد كان أمنية عزيزة واليوم أصبح واقعاً معاشاً، فالحمد لله على ما هيأ من نصر!

---

(١) أَمَم: بُعْد. أما كثب فهي من المتضادات ولكنها، هنا، تعني القرب.
(٢) السمر: الرماح، القضب: السيوف.
(٣) قُرَب: جمع قُرْبة وهي ما يتقرب به.
(٤) الحجب: جمع حجاب وهو ما تستتر به النساء. والنص مأخوذ من فوات الوفيات، ابن شاكر الكتبي، الجزء الأول ص ١٥٣.

وفي الأبيات ما يحدثنا عن بعض أحداث المعركة. فيبدو أنه كان ثمة إبادة لجيش الأعداء، ولا إخراج من حصون، إذا لم يكن استسلام، إلا بقتل جنود الأعداء، وهو يسميهم عُبَّاد عيسىٰ وليس عُبَّاد الله، وهذا هو عنصر إشراكهم بالله سبحانه. ولقد أبادهم، لذلك، طلباً لمرضاة الله، ونعم الغضب إذا كان في سبيل رضى الله.

ويوضح الشاعر عنصر الإرادة الربانية التي كانت وراء النصر فيذكر أنه ما إنْ أمر سبحانه بالحرب حتى برقت السيوف والرماح حيث لاح النصر في رؤوسها، حيث يرى الشاعر ما تقرب به إلى الله السلطان خليل بن السلطان أشرف قلاوون، في هذه المعركة، قد رضي عنه رسول الله ﷺ في مثواه وقرّت به عينه، من وراء العالم الآخر، كما ابتهجت بهذا النصر، أيضاً، الكعبة المشرفة، من وراء أستارها!

وإن المرء ليستذكر في هذا المجال استبكاء ابن المجاور لمكة والمدينة على القدس وإهابته بهما أن تبكياها في عرفات وفي الروضة الشريفة. وحينما يقابل قصيدة اليوم بتلك البكائية يجد أن الثانية يمكن أن تنهض ثأراً للأولى واستجابة إسلامية لها.

قيم تاريخية وفنّية:

توضح أفكار هذه القصائد ما كان يدور في أذهان المسلمين في بلاد الشرق، في المئة الثانية من عهدهم بمحاربة الصليبيين المعتدين.

فهي، مرةً، تحرض على تحرير ما ظل أسيراً من بلادهم مثل صور وطرطوس وأنطاكية على سواحل بلاد الشام، فهي لم تزل أوكاراً للأعداء يبيتون فيها الكيد للمسلمين بتلقي الإمدادات وانتظار الفرص السانحة؛ إن خطرهم لم يزل ماثلاً على الناس وعلى ممتلكاتهم وحرياتهم.

وهي، مرةً، تطلب الغوث والإعانة على ما نزل ببعض بلادها مثل دمياط من خطر صليبي داهم، لم يزل فيه يرسل إليهم على أمواجه الحملة الصليبية تلو الحملة. وهذا هو أوان تلبية داعي الجهاد إلى الله، مما ليس فيه مجال للتقاعد

والتواني، وإلّا فإنّه لن يستطيع مسلم أن يعبد ربه على نحو ما يشاء.

وهي، ثالثةً، تهيب بالمتخالفين من حكام المسلمين أن يستشعروا في أمن الأمة والبلاد خوف الله، فيقلعوا عن ترّهاتهم، ليرجعوا، كما كانوا، صاباً وعلقماً في فم الأعداء. ومع أن النص، من الناحية التاريخية، قد وجه لغيرهم إلّا أنه ينبض بضمير الأمة أمة الإسلام، في ذلك الوقت، ليرعوا فيه حق الله.

وهي، رابعة، تنهمر دموعاً ساخنة على ما آل إليه مصير المسجد الأقصى الذي عاد أسيراً في حكم الصليبيين. فقد أخذت القصيدة التائية تندب الأقصى المرثي وتعدّد مناقبه، جرياً على عادة الرثاء، وتذكر بمنزلته في تاريخ الأديان السماوية بعامة وفي الإسلام بخاصة، ولقد بلغ بها الحزن أنها تجاوزت البكاء إلى استبكاء الدنيا بأسرها وليس أخواتها مكة والمدينة فحسب؛ لقد حزن الناس في هذه القصيدة حزناً غامراً أنساهم التفكير في الرد والتخطيط للعمل المعاكس.

ولكن النفوس لا تلبث أن يعود إليها الأمل بالخلاص من الغزاة حينما تلوح في الأفق معالم النصر على أيدي سلاطين المماليك في إحدى المعارك الفاصلة، بعد معركة عين جالوت الكبرى، وتنتعش الآمال وتدبّ الحياة في العروق، وتسير الأيام إلى أن يصح العزم على التحرير لكامل البلاد الشامية من أيدي الغزاة الأجانب. وتبلغ النفوس أقاصي أفراحها بما هُيّء لها من أن تعيش لتشهد خروج فلول العدوان من عكا وحصونها، فتشارك المسلمين في الإحساس الغامر بالسعادة، في خلاص الأمة من كابوس معادٍ، ظل ينتاب الإسلام والمسلمين في الشرق نحواً من قرنين من الزمان. وأول ما يقول المكروب حينما يتخلص من كربه: الحمد لله!

ويسترعي الانتباه في هذه الأفكار ثلاثة أمور:

أولها أنها تنطلق من معاني مطروقة في الحض على الاستمرار في الجهاد وفي إغاثة المستغيث وفي التخويف من أثر القعود عن الجهاد وفي تعداد مآثر المسجد الأقصى وفي وصف الجيوش المنتصرة. ولولا الدعوة الصادقة لنبذ الخلاف بين

أمراء المسلمين وما فيها من إظهار العلاج الناجع بالعودة إلى تقوى الله لبدت معانيها أقرب إلى التقليد.

والثاني أن من دلائل هذا التقليد ما بدا عليها من معارضة لنصوص معروفة في تاريخ الأدب العربي. فقصيدة ابن المجاور، في رثاء القدس، معارضة لقصيدة دعبل بن علي الخزاعي، (١٤٨ - ٢٤٦ هـ)، في رثاء آل البيت النبوي، لما كانوا يلاقون من ضربات بأيدي أبناء عمهم العباسيين. وتبلغ المعارضة حد التصريح بأن الشاعر بحاجة إلى ندّابات ينحن له ويبكين بقصيدة دعبل هذا بل بأحد أبياتها المشهورة الذي يأتي، في شعره هو، البيت الأخير:

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العَرَصات[١]

ومن شعر دعبل فيها قوله:

ملامك في آل النبي فإنهم أحباي ما عاشوا وأهل ثقاتي
فيا رب زدني من يقيني بصيرة وزد حبهم - يا رب - في حسناتي[١]

أما قصيدة الشهاب محمود الأولى ففيها معارضة لقصيدة المتنبي في مدح سيف الدولة حينما انتصر على الروم وبنى قلعة الحدث ومطلعها:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم[٢]

وفيها تأثر واضح بأسلوب أبي الطيب في وصف المعارك.

وأما قصيدته الثانية فيسهّل إدراك ما فيها من معارضته لقصيدة أبي تمام المشهورة في مدح المعتصم حينما قهر ملك الروم وخرَّب مدينة عمورية، ومطلعها:

---

(١) راجع شعر دعبل الخزاعي، جمع وشرح الدكتور عبد الكريم الأشتر، من مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.

(٢) وربما كان في مطلعه ينظر إلى مطلع قصيدة للمتنبي أخرى:

كذا فليسر من طلب الأعادي ومثل علاك فلتكن الطلاب

وربما نظر هذا إلى مطلع قصيدة لأبي تمام في الرثاء:

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

السيف أصدق أنباء من الكتب   في حدّه الحد بين الجد واللعب

وفيها عبارات متأثرة بشكل مباشر واضح ببعض عبارات من القصيدة الأولى: فهو يقول:

يا يوم عكا لقد أنسيت ما سبقت   به الفتوح وما قد خط في الكتب
لم يبلغ النطق حد الشكر فيك فما   عسى يقوم به ذو الشعر والخطب

وفي ذلك نظر لقول أبي تمام يا يوم عمورية... وبقوله:

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به   نظم من الشعر أو نثر من الخطب

والثالث أنه على الرغم من ظاهر المعارضة في شعر الشهاب محمود، إلاّ أنه هو الذي تتبدى فيه المعاني الإسلامية في الجهاد أكثر من غيره. ولننظر كيف تأتي شبه الجملة (في الله) في بداية المطلع لتدل على أن الانطلاق والحرب كله قائم في سبيل الله وابتغاء مرضاة الله. ويلح، كذلك، على العلاقة الوطيدة بين نصر القائد وبين أثر الدين فيه: «مليك يلوذ الدين عن عزماته»... ثم مليك له للدين بشائر في كل ساعة وهي نفسها التي تصبح مآتم لأعدائه من الكفار. وها هو ذا يذم أعداءه، حين يذمهم، بكفرهم وعماهم: أقذى ناظر الكفر، مؤيداً على الكفر.

وهو في القصيدة الثانية يفتتح شعره ـ أول ما يفتح به فمه، بحمد الله، وفي ذلك ما فيه من دلالة نفسية معبّرة. وهو يجري على سنن شعراء الملاحم في التهويل من أمر جيوش الأعداء لتبدو القوة التي تغلبت عليها أكثر هولاً وقدرة. فالتفكر في عكا من أعجب العجب ولكن حينما فاجأتها جنود الله هان أمرها، لأن الجنود جنود الله، ولأنها يتقدمها القائد الذي يسعى لرضى الله لا لعرض الدنيا. وحينما يقول: وأطلع الله جيش النصر، نذكر قول الله تعالى: ﴿ وما النصر إلاّ من عند الله ﴾.

إن هذا المعنى هو أخص ما يشرح خصائص الأدب الإسلامي المنطلق من العقيدة الإسلامية في الإيمان بالله وتوابعه.

وفيما يتصل بالصياغة تتسم قصيدتا الشهاب بالجزالة والقوة على ما فيهما

من معارضة وتقليد. وتميل مرثية القدس إلى البساطة والسهولة في المفردات والتراكيب، أما سائر هذه القصائد فبين بين.

أما العاطفة فتبلغ حدّ الصدق في أغلب هذه النصوص وبخاصة في التائية التي تستعر حرارتها بكثرة ما تردد من مفردات وتراكيب وبفعل ما يستحلي الشاعر من ماء البكاء.

* * *

ترى؟ هل كان الشعراء في هذه المرحلة، على الدرجة التي ينبغي أن تكون فيهم من حسن ثقة التاريخ والأمة؟

إن من يطلع على هذه النماذج الشعرية، التي تمثل سائر أشعار المرحلة، يدرك أن الشعراء كانوا هم ضمير الأمة الحي، في حالتي الشدة والرخاء. لذلك فإنك تجدهم يألمون، أشد الألم، حينما يبصرون بما بين أخوة الدين من خلاف، فيستصرخونهم لاستشعار حمل رسالة الدعوة إلى الله لقتال الأعداء الطامعين، وتجدهم كذلك محرضين على تحرير ما لم يحرر بعد من بلاد الله، وتجدهم، وقد كادت نفوسهم تزهق، حينما عاد الأعداء إلى بيت الله في القدس الشريف، أما حينما أخرج الطغاة تماماً من البلاد فإن أصوات هؤلاء الشعراء تعلو وتعلو حتى نكاد نسمعها نحن الآن من وراء القرون والآماد!

إن الشعراء يتوفرون على إحساس متميز بقضايا الأمة والعصر، كما أنهم، في أحيان كثيرة، يمكن أن يكونوا من حكماء الأمة وعقلائها، إذا استشعروا رسالة الأدب الموجه لخدمة الفن الأصيل وخدمة الأمة وتاريخها؛ ألم يحمل شعراء هذه المرحلة هموم المسلمين في أتراحهم وفي أفراحهم؟ ألم ينطقوا عن فكرهم وتراثهم؟.

دور النثر في تصوير هذه المرحلة

وقد قام النثر بدوره في هذه ـ المرحلة، أيضاً، فدوَّن كثيراً من الرسائل، التي تحكي عن حال المسلمين في حالات الكر والفر، مع مواقع النصارى في بلاد الشام؛ كما برز في هذه الفترة مجموعة من الخطباء الذين كان لهم شأن في التعبير عن حال الأمة وفي قيادتها الفكرية والروحية.

ولذا فسيكون تعرفنا لهذا الدور عن طريقي: رسائل الاستنجاد والخطابة.

١ ـ رسائل الاستنجاد:

وهي الكتب التي كانت تصدر عن بعض الفئات العسكرية الإسلامية، حينما تصبح بحاجة ملحّة إلى العون والإمداد، من أجل إتمام فتحٍ وتحريرٍ، أو لرد زحوف كثيفة من الأعداء، أو فك حصار يقع فيه أهل مدينة من المدن.

وأكثر ما ورد من هذه الرسائل كان سببه حصار الصليبيين لعكا عام ٥٨٥، حصاراً دام طويلاً فأزعج صلاح الدين وأنهك قوى جيوشه المنتظرة لفرصة القتال، وكانت الإمدادات البحرية للفرنجة قد توالت وتزايدت حتى تضايق أهل عكا المحصورون؛ مما اضطر صلاح الدين أن يستنجد بالخلافة العباسية في بغداد[١] وبأمير المرابطين في المغرب في رسالتين متتاليتين[٢]

---

(١) راجع لذلك كتاب الروضتين جـ ١ ص ١٥٧.

(٢) راجع لذلك صبح الأعشى ٥٢٨/٦ وكتاب الروضتين جـ ٢ ص ١٧١.

وبأمير اليمن[1] دون أن يتلقى من جهة منها معونة تذكر!

أ ـ ومن كتب الاستنجاد والتحريض ما كتبه العماد الكاتب، على لسان صلاح الدين، بعد استيلاء الفرنج على عكا وغدرهم بمن أسروهم في المدينة، قوله، بعد الافتتاح والتحميد:

«. . . وللكرام آجالٌ، والحرب سجالٌ، ولله من المؤمنين رجال. والآن فقد ثارت الحميات وهبت النخوات، ووجب على كل مسلم أن ينهض لنصرة الإسلام، ويتدارك، مع ما حدث من الكسر، بالجبر والإحكام، ويعيد ما وهىٰ من عقد الفتوح إلى النظام. فأين ذوو الأنفة والحمية والهمم االعليّة والنفوس الأبيّة؟ أما يهتمون لمصرع من استشهد من أخوانهم؟ أما يثورون لثأر إيمانهم؟ أما تبكي العيون لمن قتل من أماثلهم وأعيانهم؟ فإن مصابهم عظيم، ومقامهم، عند ربهم الكريم، كريم، وأراد الله بذلك تنبيه الهمم الراقدة وإثارة العزائم الراكدة»[2].

وفي هذه الرسالة استنهاض لهمم أناس كأنهم نيام وحثّ لهم على القيام للأخذ بثأر أهليهم الشهداء ووطنهم المحتل؛ على أن هذه الدعوى لم تمح الأمل القوي بالنصر من عند الله، فهذه سنة المجاهدين الصادقين، فوز بإحدى الحسنيين: إما النصر وإما الشهادة.

ومن العجيب أن الشهداء من أهل عكا المأسورين لم يهنوا ولم يضعفوا، على طول مدة الحصار وشدته، وقد تمت بين الفرنجة وبين صلاح الدين مفاوضات ومساومات للحفاظ على أرواح المحصورين، وقد أدركوا مماطلة الأعداء ومكرهم في إبرام اتفاقيات السلام فأرسلوا للسلطان الناصر صلاح الدين بهذه الرسالة:

«يا مولانا: لا تخضع لهؤلاء الملاعين الذين قد أبوا عليك الإجابة

---

(١) كتاب الروضتين ٢/١٨٨.

(٢) راجع الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية في مصر والشام، أحمد أحمد بدوي، ص ٤١٨ عن الروضتين ٢/١٩٠.

إلى ما تدعوهم فينا؛ فإنّا قد بايعنا الله على الجهاد حتى نقتل عن آخرنا، والله المستعان»[1].

لقد ربح بيعهم! وجلّت مبايعتهم لله! وجلّت أمكنتهم بين الشهداء الصامدين على دينهم عنده!

ومن العجيب أيضاً أن المتتبع لتاريخ المماليك، الذين ولوا الأيوبيين في قيادة مسلمي بلاد الشام ومصر في دفع الصليبيين، لا يكاد يعثر على خبر يفيد أنهم أرسلوا يطلبون النجدة والعون، أو يستنهضون همم الناس، في غير الأراضي التي كانوا فيها يعيشون! وأقصى ما تعرض له المماليك من تحدٍّ لوجودهم ولدينهم هو تحدي الخطر المغولي. فحينما أطبق المغول على بغداد وعلى بلاد الشام، أرسل هولاكو إلى السلطان رسالة تهديد ووعيد، إن لم يسلّم إليه ما تحت يده من بلاد. فتشاور السلطان مع أمرائه وقادته فكانوا بين مشير باللقاء وبين مزيّن للسلام، ثم اختلى بالبندقدار ـ القائد بيبرس ـ الذي كان أميراً للأمراء وشاوره في الأمر فقال: إنني أرى أن نقتل الرسل ونقصد قائد المغول متضامنين، فإن انتصرنا أو هزمنا فسوف نكون في كلتا الحالتين معذورين! فاستصوب قطز هذا الكلام وأمر بصلب رسل المغول في الليل[2]!!!.

ب ـ على أن سجل أمراء المسلمين في زمن الحروب الصليبية لم يكن استنجاداً كله. ففي الوقت الذي كان أعداؤهم يهددونهم برسائل يبعثون بها من بين يدي جيوشهم وكتائبهم، يطالبونهم فيها بالخضوع والاستسلام، كانوا يجابهون بردود حافلة بالثقة والإيمان بالله وبالنصر.

فقد تلقّى الملك الصالح نجم الدين أيوب في مصر رسالة من لويس التاسع ملك فرنسا (عام ٦٤٧ هـ) قبيل مهاجمته للسواحل المصرية، يقول في فقرة منها:

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير، دار الفكر العربي، ١٢/٣٤٤.

(٢) وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي، د. محمد ماهر حمادة، مؤسسة الرسالة، ص ٣٥٧ عن جامع التواريخ للهمذاني جـ٢ ق ١ ص ٣١١ ـ ٣١٣.

«فإن كانت البلاد لي فيا هدية حصلت في يدي، وإن كانت البلاد لك والغلبة عليَّ فيدك العليا ممتدة إليّ. وقد عرّفتك وحذّرتك من عساكر قد حضرت في طاعتي تملأ السهل والجبل، عددهم كعدد الحصى، وهم مرسلون إليك بأسياف القضا»[1].

فردّ عليه الملك الصالح بالجواب التالي، وهو من إنشاء القاضي بهاء الدين زهير كاتب الإنشاء:

«بسم الله الرحمن الرحيم وصلواتُه على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين.

أما بعد، فقد وصل كتابك، وأنت تهدد بكثرةِ جيوشك وعددِ أبطالك. فنحن أربابُ السيوف، وما قتل منها قِرنٌ إلّا جددناه ولا بغى علينا باغٍ إلّا دمّرناه! فلو رأت عيناك، أيها المغرور، حدَّ سيوفنا وعِظم حُروبنا، وَفَتْحَنَا منكم الحصونَ والسواحل، وإخراجنا منكم ديَارَ الأواخر والأوائل لكان لك أن تَعَضَّ على أناملِك بالندم، ولا بدّ أن تزلَّ بك القدم، في يوم أوله لنا وآخره عليك، فهنالك تسيء بك الظنون «وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون»[2].

فإذا قرأت كتابي هذا فكن فيه على أول سورة النحل: ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾، وكن على آخر سورة ص: ﴿ ولتعلَمَنَّ نبَأَهُ بعد حين ﴾. ونعود إلى قوله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴾[3]، وإلى قول الحكماء: «إن الباغي له مصرع، وبغيك يصرعُك، وإلى البلاء يقلبُك، والسلام»[4].

---

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك، المقريزي، تحقيق محمد مصطفى زيادة، ط ٢، ١٩٥٧، جـ ١ قسم ٢ ص ٢٥٠ (بتصرف).

(٢) الآية الأخيرة من سورة البقرة.

(٣) الآية ٢٤٩ من سورة البقرة: ﴿ قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴾.

(٤) السلوك، المقريزي، جـ ١ قسم ٢ ص ٢٥١. وقوله إلى الحكماء، لعله يشير به إلى قول شاعر =

إن أبرز ما يجده المتأمل لهذه الرسائل هو الانطلاق من مفاهيم العقيدة الإسلامية، في الارتباط بأوامر الله في الجهاد في سبيله، والثأر لدينه، والبحث عن الثواب في جنته في اليوم الآخر.

فقد كان هذا الشعور هو العزاء فيمن أُسر واستُشهد من أهل عكا، وكان في الوقت نفسه الدافع لشحذ همم الآخرين للجهاد والنصر والشهادة. وها هم أولاء أهل عكا المحصورون يبايعون الله على لقاء الأعداء الغادرين إلى النهاية. وها هو ذا البهاء زهير، الكاتب الشاعر، يردّ على رسالة لويس التاسع ردّاً فيه الثقة الكاملة بالإيمان بنصر الله، من خلال دحض ادعاءات هذا الملك المغرور بكثرة الجيوش، فلو نظر إلى نتائج سابقيه من الفرنج المعتدين لاعتبر بها، ومن خلال الآيات القرآنية الكريمة التي يضعها في أمكنتها المناسبة من المعنى والتركيب، وهي تعجّ بالتهديد بالرد المفحم، ولكن دون تفصيل وتصريح. وهذا ما يعطي المعاني عمقاً أبعد، فتفسر باحتمالات متعددة. فهو لا يعلم ما هو أمر الله على وجه الدقة، وفي الآية الكريمة ﴿ولتعلمنَّ نبأه بعد حين﴾ إيجاز معبر أعمق تعبير عن وعيد قريب مرعب، ولننظر في قوله تعالى ﴿ ولتعلمنَّ ﴾ وما فيها من التأكيد الشديد.

وهو يسوق إليه الآيات الكريمة التي تنطوي على نقاش أيضاً، فإن الكثرة ليست مقياساً للنصر، فالإيمان يغلبها، كما يسوق إليه أقوال الحكماء ليذكره بأنه معتدٍ أثيم، ولا يحيق المكر السيء إلّا بأهله.

ولقد صدق الله وعده ونصر عباده، فزلّت به، فعلاً، القدم في المنصورة، عام ٦٤٨، على يد المعظم توران شاه ابن الملك الذي أرسل إليه التهديد، في يوم أوله للمسلمين المنتصرين وآخره أسر للملك ولحاشيته ومقتل لآلاف جنده وتقييده مهاناً ذليلاً، ليعرف الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون!!!

وفي صياغة هذه الرسائل يبدو لنا التزام العماد الكاتب بالصنعة اللفظية

= جاهلي:

إلّا أن الفتى حمل بن بدر بغى، والظلم مرتعه وخيم

وقول شاعر أموي: والظلم مرتعه وخيم

التي تبدو في حرصه الدائم على حلية السجع[1]، وذلك يبدو من الجمل الأولى في الرسالة: وللكرام آجال والحرب سجال ولله من المؤمنين رجال. وقد عرف عنه ذلك، فلم يعدل عنه في كتبه التي أرّخ فيها لحياة صلاح الدين وحروبه، كالفتح القسّي في الفتح القدسي[2]، وكالبرق الشامي[3]. أما البهاء زهير فقد تحلل من هذه الصنعة فانطلقت رسالته، إلاّ من القليل من فواصل السجع، فعنيت بالمعاني وتعميقها والابتكار فيها. فمن رَدٍّ مباشر على التهديد بعدد الجيوش، ومن عرض لانتصارات المسلمين السابقة على الصليبيين، ومن استخدام للآيات القرآنية التي تحمل التهديد بالويل والثبور للأعداء، ومن ذكر لحكم الحكماء في مثل هذه الاعتداءات الآثمة.

٢ ـ الخطابــة:

كان للخطابة في هذا العصر أهمية بالغة في التأثير في الناس حينما تدهمهم الأحداث توجيهاً وتربية وتثقيفاً، وكذلك بعد المواجهة، وفي عهود استقرار الأمن وعظاً وتحذيراً في أمور الدنيا والآخرة، في الحياة الاجتماعية وفي العقيدة الروحية.

ومن عادة الأحداث أن تكون هي الوازع الأكبر لتقدم فن الخطابة وازدهاره، ولم تكن في هذا العصر هينة الوقع على قلوب المسلمين في بلاد الشام وفي مصر، وهي تبتليهم مرة بالخلافات الداخلية وأخرى بالغزوات الأجنبية على أيدي الصليبيين والمغول.

ولم يتولّ مزاولة هذا الفن الأدبي في المساجد الكبيرة إلاّ من عرف عنهم طول الباع في حفظ القرآن وفي العربية وفي فصاحة اللسان وفي علوم الدين. فهم قد جمعوا، إلى البراعة في الخطابة، بين مناصب القضاة والمفتين والفقهاء

---

(١) راجع لذلك، أدب الحروب الصليبية د. عبد اللطيف حمزة ص ١٨٩ ـ ١٩٠ والأدب في العصر الأيوبي د. زغلول سلام ص ٢١٧ ـ ٢١٨.

(٢) حققه الدكتور محمد محمود صبيح، الدار القومية للطباعة والنشر.

(٣) اختصره الفتح البنداري في كتاب «سنا البرق الشامي»، وحققت هذا المختصر د. فتحية النبراوي عام ١٩٧٩، مكتبة الخانجي.

والأساتذة في المعاهد المشهورة. ولم تزل خطبة القدس التي ألقاها قاضي دمشق محيي الدين بن الزكي (٥٩٨ هـ)، في أول جمعة صلّيت في المسجد الأقصى، بعد تحريره، لم تزل يرن صدى كلماتها ومعانيها في أسماع الناس وقلوبهم إلى هذا العصر.

وقد كثر من أمثال هذا الخطيب الخطباء وربما كان من أبرزهم في هذه المرحلة اثنان هما سبط ابن الجوزي[١]، والعز بن عبد السلام[٢].

أما الأول فهو شمس الدين يوسف بن قز أوغلي حفيد الشيخ الواعظ أبي الفرج بن الجوزي المتوفى (٥٩٧ هـ)، ولد ببغداد، ونشأ على الوعظ والفقه، وتمرّس فيهما، ثم أخذ يجوب عواصم البلاد الإسلامية، واستقر في دمشق، وشهر بمجالسه الوعظية التي كانت تجذب إليها آلاف المستمعين الملهوفين مدة تزيد على نصف قرن، وكان يحالفه التوفيق في تذكير الناس بشؤون دينهم وأمر دنياهم «في جمل مرسلة لا سجع فيها ولا تكلّف يزينها السهولة والتدفق»[٣]. توفي بدمشق عام (٦٥٤ هـ). وكان له مواقف مشهورة في إثارة المسلمين للجهاد، عندما تهبّ، على بعض بلادهم، رياح الغزو الصليبي. وأشهرها ما ألقى من خطب وما أنشد من شعر بين يدي السلطان الناصر داود في الجامع الأموي بدمشق حينما عاد الفرنجة إلى القدس عام (٦٢٦ هـ)[٤].

وأما الثاني فهو عز الدين، أبو محمد عبد العزيز بن عبد السلام السلمي. فقد ولد (٥٧٧ هـ). ونشأ في دمشق، في بيئة فقيرة، ولكنه حصّل من علوم الدين واللغة، وتوفّر على فصاحة وطلاقة لسان وجرأة جنان ما أصبح بها جميعاً إماماً وخطيباً في جامع دمشق، وكانت له الفتيا في الشام أيضاً.

---

(١) راجع ترجمته في النجوم الزاهرة ٧/٣٩ والسلوك ١/٢٣٣، ٤٠١ وذيل الروضتين ٤٨، ٤٩، والبداية والنهاية ١٣/١٩٤.

(٢) راجع كتاب العز بن عبد السلام تأليف رضوان الندوي، دار الفكر العربي، دمشق، ١٩٦٠، والسلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٤٧٦.

(٣) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية في مصر وبلاد الشام، د. أحمد بدوي، ص ٣٩٧.

(٤) راجع السلوك في أخبار دول الملوك للمقريزي جـ ١ قسم ١ ص ٢٣٣.

أُخرج من الشام بعد أن أفتى بخطأ التصالح مع الفرنجة، على يد الصالح، عماد الدين إسماعيل بن العادل، والي دمشق. كما أفتى بعدم تعاون العامة معهم ورفض بيعهم السلاح الذي جاءوا يشترونه بعد ذلك من أسواق دمشق. وترك الدعاء للسلطان ودعا بدلاً من ذلك بقوله: «اللهمّ أبرم لهذه الأمة إبرام رشد، تعزّ فيه أولياءك، وتذلّ فيه أعداءك، ويعمل فيه بطاعتك، وينهى فيه عن معصيتك»(١).

استقر في مصر، حيث استقبله الملك الصالح نجم الدين أيوب، فهو يعرف قدره، وولاه القضاء في مصر وعمارة المساجد. وظلت كلمته مسموعة وفتاواه معمولاً بها؛ وكانت كلها جرأة في الحق وشدة على المبطلين وإخلاصاً في النصح لله ولرسوله وللمؤمنين. ولقد وقف مع السلطان قطز في مجابهة غزو التتار، وكان كثيراً ما يحرض الناس على الجهاد، ولم يخش حاكماً في فتوى ولم ينسَ محكوماً في مصلحة من مصالح العباد مما لا يتنافى مع أصول الشرع الحنيف(٢).

فقد سئل مرة في أمر الاستيلاء على أملاك العامة للإعداد للحرب فوافق عليه، ولكن بعد أن يباع ما في بيت المال من أسلحة محفوظة للزينة والعرض، وبعد أن يبيع الجنود ما يحتفظون به من حوائض ذهبية وآلات نفيسة ليتساووا هم والعامة: «وأما أخذ الأموال من العامة، مع بقاء ما في أيدي الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا»(٣).

هذه هي جوانب شخصية هذا الرجل الكبير، فهو قاضٍ منصف، ومفتٍ مطّلع على أسرار الشريعة، وإمام جريء فيما يرضي الله، وخطيب لا ينسى رعاية مصالح العباد، ومشير على الحكام بما يشير به الصواب والشرع.

ولقد كان في خطابته متحرراً من أسلوب السجع وسائر المحسنات

---

(١) السلوك - للمقريزي، جـ ١ قسم ٢ ص ٣٠٤.

(٢) راجع المقدمة الجامعة التي قدم بها المرحوم الدكتور مصطفى السباعي لكتاب رضوان الندوي، دار الفكر العربي، دمشق ١٩٦٠، وعنوانه العز بن عبد السلام.

(٣) راجع المرجع السابق ص ١٥١ وكذلك النجوم الزاهرة ٧٢/٧.

البديعية التي أُغرم بها الخطباء والكتّاب والشعراء في عصره[1].

توفي في القاهرة عام ٦٦٠ هـ.

نموذج من فن الخطابة في هذه المرحلة:

درج الباحثون على تقسيم الخطب في هذه المرحلة، من هذا العصر، إلى قسمين من حيث ما تطرقه من موضوعات وهما الخطبة الدينية والخطبة السياسية[2].

ولو أنعمنا النظر فيما وقع منها في هذا الزمان من خطب لوجدناهما خطبة واحدة تحتوي الموضوعين. فهم يقولون إن خطب الجمع والأعياد مثال على الأولى، وإن الثانية هي التي تلقى على ألسنة القادة والحكام في عرض الأمور المتعلقة بسياسة الدولة وخططها وأوامرها، في السلم وفي الحرب. ومثالها، في رأيهم، ما كان يفضي به صلاح الدين الأيوبي[3]، مثلاً، أو غيره، لأمرائه وجنوده في بداية كل معركة.

ولو تذكرنا خطبة القدس، وهي خطبة جمعة، لوجدنا أنها تعجّ بأحاديث السياسة، وما ينبغي أن يكون عليه الناس في علاقاتهم بأنفسهم، وبالمسلمين، وبالحكام، من اعتصام بحبل الله، واستمرار لحمل راية الجهاد في سبيل الله، لتطهير بلادهم من أعداء الله؛ كما أن بيانات الحكام والقادة في التخطيط لأية معركة لا تعدو أن تكون تذكيراً بواجب الجهاد في سبيل الله، من أجل الحفاظ على حرمات الله، وعلى حمى المسلمين؛ إنها تدور، باختصار، حول دور المسلم في دنياه وفي آخرته.

ولنتناول خطبة من أخريات الحروب الصليبية خطب بها الشهاب

---

(١) أدب الحروب الصليبية، د. عبد اللطيف حمزة، ص ٢٢٠.

(٢) د. عمر موسى باشا، أدب الدول المتتابعة، دار الفكر الحديث، ١٩٦٧، ص ٧٩١.

(٣) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ـ القاضي بهاء الدين بن شداد، مطبعة الأدب بمصر ١٣١٧، ص ٢١٢.

محمود[١] في موضوع طريف يدور حول الرمي بالنشاب، وفيها يقول:

«وبعد، فإن الرميَ أفضلُ ما أُعِدَّ للعِدا، وأكملُ ما أُفيضَ به على أهلِ الكفر، رداءُ الرَّدى[٢] وأبلغُ ما يُبْعثُ إلى المقاتل من رسلِ المنون[٣] وأنفعُ ما يُقْتَضى به في الوغى، من أعداء الدِّينَ، الدُّيونُ[٤]، وأسرعُ ما تُبْلَغُ به المقاصدُ فيما يُرى قريباً وهو أبعدُ ما يكون[٥]. ومن شَرَفِ قَدْرِه الذي دل عليه كلامُ النبوة أن النبي، ﷺ، نَبَّه على أنه المرادُ بقوله تعالى: ﴿ وأَعِـدُّوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾[٦]. ومما يرفعُ قَدْرَ السهم على غيره ويُفَضِّلُه ما روي عنه، ﷺ، من أن يَدْخُلُ بالسهم الواحد ثلاثةُ نَفَرٍ الجنةَ: صانعُهُ يَحْتَسِبُ في صَنْعتِه الخيرَ وراميه ومُنَبِّلُه[٧]. ومن خصائص القوس أنها عقيمٌ ذات بَنين[٨]، صامتةٌ وهي ظاهرةُ الأنين[٩]، لها كَبِدٌ وهي غيرُ مجوفة[١٠]، ويدٌ لا تملك شيئاً وهي في الأرواح متصرِّفَة[١١]، ورِجْلٌ ما نَقَلَتْ قَدَمَاً[١٢]، وقبضَـةٌ ما عَـرَفَت أثراً

---

(١) هو الشاعر أبو الثناء شهاب الدين محمود بن سليمان بن محمود (٦٤٤ ـ ٧٢٥) أجاد في وصف معارك المماليك وانتصاراتهم على الصليبيين، وشعره جزل، راجع البداية والنهاية ابن كثير ١٤/١٢٠ والأعلام للزركلي ٤٨/٨.

(٢) رداء الردى: نائب فاعل للفعل المبني للمجهول أفيض. يريد أن الرمي في القضاء على الكفار كالثوب الذي يشملهم جميعاً ولا يشبهه في ذلك سلاح آخر.

(٣) يريد أن الرمي يحمل الموت إلى الأعداء.

(٤) أي أنه يعاقب أعداء الله على كفرهم.

(٥) أي أن السهم سريع الوصول إلى أجسام الأعداء على مسافات بعيدة.

(٦) الآية ٦٠ من سورة الأنفال. وذلك في قوله، ﷺ، «ألا إن القوة الرمي، إلاّ أن القوة الرمي». أخرجه مسلم وأحمد وابن ماجه وأبو داود.

(٧) عن عقبة بن عامر، رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عز وجل ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة: صانعه يحتسب في عمله الخير، والرامي به والمُمِدَّ به، وفي رواية ومنبله ـ فارموا واركبوا...». أخرجه أبو داود، وأخرجه الترمذي. راجع جامع الأصول في أحاديث الرسول، ابن الأثير الجزري، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط جـ ٥ ص ٤٣ ـ ٤٤.

(٨) لعله يرى في السهام التي تطلق من القوس ما يشبه أن تكون لها مثل الأبناء.

(٩) أي تخرج صوتاً حينما ينطلق السهم منها.

(١٠) أي أنها غير كاملة الاستدارة، وكبدها هو وسطها الذي يمر من السهم.

(١١) يدها ما يمسك به الرامي منها.

(١٢) لعله يشبه أسفلها بالقدم.

ولا عَدَماً[١]، فهي نون ما ألف الماء[٢]، وهلال ما سكن السماء[٣]، وقافية ما باشرت الدماء»[٤].

نظرة في هذه الخطبة:

لقد حفلت هذه الخطبة بأوصاف القوس التي يخرج عنها السهم في الرمي؛ فهي العدة والسلاح الأفضل في قتال الأعداء، إنها تحمل الموت لجنودهم وتعاقبهم عقاباً شديداً إذا اعتدوا على المسلمين، إنها تقضي عليهم ولو كانوا يرون عن كثب وهم في الحقيقة على مبعدة غير يسيرة من جنود المسلمين.

وفي مزاولة الرمي، إلى ذلك، طاعة لله وتنفيذ لأوامره بإعداد العدّة للقاء الأعداء، وفيه أيضاً ترغيب بالثواب المقيم في الجنة لمن صنع هذه الأقواس والسهام، لخير الإسلام والمسلمين ولمن قاتل به الأعداء ولمن راشه وساعد في انطلاقه.

وتتميز السهام، أيضاً، بميزات قد لا تخطر على بال الكثيرين؛ فالسهام لها كالأولاد وإن كانت مما لا يلد، ويخرج صوت، عند انطلاق السهم، من السهم لا من القوس، وتبدو وكأن لها باطناً مع أنها ليست مجوفة، وتبدو وكأن لها أطرافاً تتحرك وتفعل وما لها منها شيء.

وإذا ما شبهت فإنها مرة تشبه في شكلها السمكَ مرة، والهلالَ أخرى، والقافيةَ في نظم رقاب الأعداء مرة ثالثة.

هذه هي الصفات الموضوعية التي أراد هذا الكاتب الشاعر أن يذكرها في القوس حينما تستخدم لرمي السهام في المعارك. استقى الخطيب أفكارها من بيئته المحاربة ومن اطّلاعه على ما يخصّها في الكتاب والسنّة، ولقد نقل إلينا

---

(١) وقبضتها ما يقبض لهم قبل الانطلاق، أي أنها لم تحو شيئاً ملموساً ولو قليلاً.

(٢) لعل «ما» في هذه الجمل موصولة بمعنى الذي وهي في محل جر بالإضافة. أي نون السمك الذي يألف الماء، أي مقوسة في شكل حرف النون.

(٣) أي تشبه الهلال الذي يرى في السماء في استدارتها.

(٤) أي قافية السهام، أي تنظمها في انطلاقها.

هذه الصفات وهذه التشابيه بتراكيب جزلة متماسكة، فيها من الصنعة اللفظية والتزام السجع ما يتضح لأية نظرة. على أن هذه الصنعة والمحسنات لم تحجب عنا المعاني التي أريد لها أن تنفذ من خلالها إلينا.

وفي هذه الجمل أطناب في إيراد المعنى الواحد، ولولا طول الجمل في بعض الأحيان، لقلنا إنها من أبرز خصائص الخطابة.

وكم كان اختتام الخطبة معبّراً على إيجاز مفرداته وتراكيبه!

ولعل أهم ما يقف الباحثَ في هذا النص ارتباطُه بأصل العقيدة الإسلامية في الإعداد للقاء أعداء الله. وفي ذلك ما فيه من مجهودات مادية ومعنوية، وما يلاقي عليها المؤمن من انتصارات في الدنيا، أو ثواب وشهادة في الآخرة. كما أن مما يستوقف الناظر في هذا العمل الأدبي دلالته الاجتماعية على عصره. فالحديث عن آلات الحرب، في خطبة كاملة، دليل معبّر على معالم الحياة التي كان يحياها الناس في هذا العهد؛ فالحرب وأدواتها والحديث عنها هي أحاديثهم ومجال مناقشاتهم في أوقات فراغهم. وكنّا قد قرأنا أحاديث مطوّلة، في الرسائل والخطب التي مرّت بنا، من قبل، في هذا البحث، عن الرماح وعن السيوف وعن السهام والأقواس وعن المنجنيقات وعن صهوات الخيول وهجماتها.

قيم تاريخيـــة :

إن من يقلب صفحات هذه النصوص النثرية يصل إلى التحقق من دور الأدب في الجهاد إلى جانب القوى المختلفة في الأمة.

فالكاتب والخطيب، إلى جانب الشاعر، كان يقوم بدور ما نسمّيه اليوم رجل الإعلام في الدولة. فها هو ذا يستخدم قواه الفكرية والفنية جميعاً لاستنهاض همم من لم ينهض للجهاد، ولو وصل به الأمر إلى حد التقريع والتبكيت لإعانة المحصورين من المسلمين؛ وها هو ذا يستلهم العزّة في الإسلام ويردّ على تهديد المعتدين بتهديد أقوى ووعيد أشد، أليس «لله العزّة ولرسوله

وللمؤمنين»[1]، فكيف، إذن يجوز في كرامة المسلمين تهديد من كافر؟؟!

وها هم أولاء خطباء الإسلام يتحولون إلى دعاة للجهاد ضد أعداء الله، إذا ما حزبهم أمر، من عدوان معتدٍ، أو تهديد كافر؛ أليست الخطابة تذكيراً للناس في أمور دنياهم وعواقب آخرتهم؟

وحينما يألف المسلم حياة الجهاد في سبيل الله تصبح موضوعاته الأدبية والفكرية ذات علاقة بمتطلبات عصره وبيئته، فالحديث عن أدوات الحرب وصفاً وتقريظاً نتيجة طبيعية لهذه الحياة الحربية الإسلامية.

---

(١) هذه الآية مسبوقة في أصلها بالواو: ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾ الآية ٨ من سورة المنافقون.

الباب الثاني

فـــي
المقومات الفنية لأدب عصر الحروب الصليبية



في المقومات الفنية
لأدب عصر الحروب الصليبية

ينعت الأدب في العصور العباسية المتأخرة، ومنها العصر الذي ندرسه، بأنه قد تخلى عن الإبداع والتجديد في المعاني وغاص في بهارج كثيرة من المحسنات اللفظية والصنعة البديعية حتى أصبح حريّاً أن يطلق عليه أدب عصر الانحطاط أو أدب الانحطاط(1)!!

هكذا علمتنا كتب تاريخ الأدب المدرسية المؤلفة في بدايات هذا القرن الميلادي، علمتنا ذلك منذ الصغر، وكثرت منها هذه الأقاويل حتى كادت تستقر منا في أعماق اليقين.

ولعله قد آن أوان التثبّت من صحة هذه الأخبار، ولعلنا لا نصيب القوم بجهالة.

لذا فإننا سندرس الشعر أولاً ثم النثر لنحاول أن نقف منها على دواعي هذه الأقوال، ثم على مدى ما فيها من تعميم وإطلاق، وذلك من الناحية الفنية، أما المقومات الموضوعية ففي الباب التالي، إن شاء الله.

أ ـ الشعـــر :

من الثابت أن أغلب أدباء هذا العصر قد استهوتهم الصبغة في صنع

(1) راجع تاريخ الأدب العربي للأستاذ أحمد حسن الزيات، ط ٢٦، دار الثقافة بيروت الصفحات ٢١٨، ٢٤٦، ٢٤٩ وتاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان، ج ٣، منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت ص ٣٤، ٣٥، وتاريخ الأدب العربي للدكتور عمر فروخ، دار العلم للملايين، ج ٣ ص ٤٢.

آدابهم، فمضَوا يتفننون ويكثرون من التزويق فيها. فلقد مال القاضي الفاضل، في شعره، إلى إبراز الحلية اللفظية مرة وإلى التفنّن في بعض المحسنات البديعية مرة أخرى، فمن الأولى إصراره الشديد على إيراد نسق خاص في جميع أبيات قصيدة ينظمها في الغزل، فهو يقول:

فيهن من شَبَه الغزلان أربعة ثغر وطيب وأحداق وأجياد
وكيف يبقى على العينين أربعة عِداً ودفع وإطراق وتسهاد

إنه يورد كلمة أربعة في نهاية الصدر ويورد تفصيل هذه الأربعة في العجز على مدى أربعة وأربعين بيتاً[1]!! إن هذا، وإن دلّ على قدرة فائقة في النظم، إلا أنه قد يحسب في التمرينات على النظم وفي إزجاء الفراغ في اللهو بالكلمات في غياب الطبع.

ومن الثانية أنه كان يغرم أحياناً أخرى بالإكثار من التورية في شعره. وقد لفتت إجادته فيها انتباه الناس من معاصريه، والشعراء من تابعيه، فقلدوه فيها تقليداً لم تحمد عقباه. فربما قصّروا في أن يلحقوا به، حتى عاد القول تمريناً أكثر منه إجادة وانطلاقاً. فليس قول أحدهم في هذا اللون:

لأي معنى كسرت قلبي وما التقى فيه ساكنان[2]؟

مثل قول القاضي الفاضل فيه:

يا قلب كم خلَّفت ثمَّ بثينةً وأعيذ صبرك أن يكون جميلا[3]

ومن المحسنات البديعية التي أكثر منها شعراء العصر أيضاً الاقتباس كقول ابن النبيه:

---

(١) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية، د. أحمد أحمد بدوي ص ١١٤ (ط ١) عن شفاء القلوب ورقة ٦٨.

(٢) من شعر القاضي بن مكانس، انظر أنوار الربيع في أنواع البديع، لابن معصوم المدني، تحقيق شكر هادي شكر، ٣٦/٥.

(٣) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية، د. أحمد أحمد بدوي، ط ١، ص ١١٢ عن وفيات الأعيان ٢٨٥/١.

قمت ليل الصدود، إلا قليلا ثم رتلت ذكرهم ترتيلا
ووصلت السهاد أقبحَ وصل وهجرت الرقاد هجراً جميلا
مسمعي كَلَّ عن كلام عذول حين أُلقي عليه قولاً ثقيلا[1]

وواضح مدى إرهاق الشاعر نفسه بالاقتباس من آيات سورة المزمّل.
ومنها الطباق كقول ابن القيسراني يمدح نور الدين زنكي:

غضبت للدين حتى لم يفتك رضى وكان دين الهدى مرضاته الغضب[2]

وإن كان بيتاً في قصيدة لم ير أنها أكثرت منه فيها.

ولو تأملنا ما أُلقي إلينا من هذه المزاعم لتوصلنا إلى حكم آخر. ذلك إن أشعار القاضي الفاضل لم تكن كلها غزلاً ومدائح، تجد في متسع الوقت مجالاً للزينة اللفظية والبديعية. إن للفاضل أشعاراً أخرى في ذكر المعارك والحروب والقادة وفي وصف مصر ودمشق وبلاد الشام ما لا نجد فيه مثل هذه الحلية، وكذلك كان شعراء العصر حينما تحزبهم أمور الجد وتقرع في بلادهم طبول الحرب.

هذه واحدة، أما الثانية فإننا إذا وقعنا في أدب القاضي الفاضل وبعض أضرابه على من يحتفل بالصنعة في بعض أشعاره فإننا نعثر أيضاً على شعراء لم يعرف عنهم أنهم التفتوا لها إيما التفات، وذلك من أمثال أسامة بن منقذ وعمارة اليمني.

أما الثالثة فهي إن شعراء هذا العصر قد حافظوا على مناهج الشعر ونظام القصيدة التقليدية، فلم يتعدّوا نطاق الشعر الغنائي في مجموع موضوعاتهم التي تناولوها في أشعارهم. كما أنهم حافظوا على النهج التقليدي لقصيدة المدح، وذلك بما فيها من افتتاحية غزلية. وقد نسجوا على منوال الأوزان الشعرية المعروفة منذ القديم في القافية الموحدة[3]، ولم يضيفوا إليها إلا بعض الأشكال

---

(١) ديوان بن النبيه ص ٥٦ تحقيق عبد الله فكري.
(٢) كتاب الروضتين، لأبي شامة القدسي، طبعة ٢٨٧ القاهرة ١/٧٣.
(٣) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية، د. أحمد أحمد بدوي، ط ١ ص ١١٤، صدى الغزو =

الشعرية ذات الطابع الشعبي، ولكنها كانت قليلة في الجملة، كما يقول أحد الباحثين[1]، وذلك مثل **الموشحات** التي كثر النظم عليها، حتى إن أحد شعراء العصر المشهورين، وهو ابن سناء الملك، جمع منه ديواناً خاصاً أسماه دار الطراز. ومنها **الدوبيت**، وهو من البحور المهملة، ووزنه فعلن متفاعلن فعولن فاعلن، كقول ابن مكي القرشي:

ما عذر فتى ما مَدّ للهو يداً والدوح قد اكتسى ثياباً جدداً
مالت طرباً أغصانه راقصة لما صدح الطير عليها وشدا[2]

وهو النظم في رباعيات تتفق قافيتها دون الشطرة الثالثة.

ومنها **المواليا** كقول بعضهم:

البدر والسعد ذا شبهك وذا نجمكْ والقد واللحظ ذا رمحك وذا سهمكْ
والبغض والحب ذا قسمي وذا قسمكْ والمسك والحسن ذا خالك وذا عمكْ[3]

وهو أقرب إلى ما يغنى في الحوانيت من أشعار شعبية.

وإذا قيل إن المحافظة على أشكال الشعر العربي الموروثة وروح القصيدة العربية يعتبر عنصراً من عناصر الجمود فإنه قد يعتبر، في الوقت نفسه، دليل تمسك بالتراث الشعري وعدم التفريط بأصوله ومناهجه لنقلها إلى الأجيال التالية.

ولعل من هذا القبيل، في حساب الحاسبين، أن شعراء هذا العصر قد حافظوا على لغة الشعر، لتظل سليمة نقية مما شاب حياة الناس فيه من شعر العامية، في الأحاديث الشفوية، والمكتوبة أحياناً، ومن الدخيل من اللغات الكثيرة. ولئن وردت بعض أشعار لهؤلاء متسمة بسمة السهولة التي تقرب من

= الصليبي في شعر ابن القيسراني، د. محمود إبراهيم، ص ١٨٤.

(١) المرجع السابق والصفحة.

(٢) المرجع السابق ص ١١٦ عن فوات الوفيات ٢٦٧/٢، وفي كتاب الروضتين لأبي شامة ج ١ قسم ٢ (المؤسسة المصرية العامة) ص ٥٢٨ مجموعة من الدوبيتات.

(٣) المرجع السابق والصفحة. وللتوسع في التعرّف على هذه الأنماط الشعبية من الشعر راجع كتاب الأدب في العصر المملوكي، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف، ٣٠١ - ٣٣٦.

العامية كأشعار البهاء زهير في الغزل والإخوانيات، فإن في بعض شعراء العصر ما تتسم أشعاره بالجزالة والقوة، التي تذكّر بفحول الشعر في العصور السابقة، من أمثال أسامة بن منقذ والأبيوردي وابن القيسراني في المديح والرثاء والفخر[1].

أما ما ورد في أشعارهم من معارضة، وردت كثيراً، لبعض عيون الشعر الذي سبقهم، ففيه، كما قلنا قبل قليل، من التقليد والمحاكاة جانب، ومن التوقير والتقدير جانب آخر. ولا جدال في أن الإجادة الفنية تأتي، على الأغلب، في الشعر الذي يسبق ويحتذى فله فضل السبق والريادة وفضل الكشف والابتكار. ولا يخلو التابع من شيء من هذا، ولكن يظل الفضل للمتقدم، كما قيل، وبه تعرف أقدار شعراء الجاهلية إذا ما قورنوا بالشعراء المحدّثين والمولدين[2]، وبه نتذكر ما بين بائية أبي تمام في مدح المعتصم حينما فتح عمورية وبين ما عورضت به من شعر كثير في عصر الحروب الصليبية إنْ في الأوزان والتراكيب أو في المعاني.

ومع ذلك كله فقد يقتضي الإنصاف وإمعان النظر العلمي أن نقسم شعر هؤلاء القوم إلى قسمين: الأول ما يتصل بالنوازع النفسية الفردية الخاصة من غزل ومطارحات أخوية وأفاكيه أدبية وتمرينات شعرية على الأوزان المختلفة وعلى الألغاز والألعاب اللغوية. والثاني ما يمكن أن نسميه شعر البيئة. ونعني بها البيئة السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي أحاطت بالمسلمين في مصر وبلاد الشام في القرنين السادس والسابع الهجريين، عصر الحروب الصليبية وغزو التتار.

إن الصنعة التي أغرم بها شعراء هذا العصر واشتطّ بعضهم في نشدانها لم تشمل، فيما يبدو للباحث، إلا أشعار القسم الأول من هذين القسمين. أما القسم الثاني فلقد كان الشاعر فيه، مضطراً أو مختاراً، يعيش تجاربه اليومية، فيشترك، فيما يشترك فيه أهله، من الحزن والأسى، على ما حلّ بمقدساتهم من

(١) راجع الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية د. أحمد أحمد البدوي، ص ١١٠.

(٢) راجع كتاب العمدة في صناعة الشعر ونقده، ابن رشيق القيرواني، طبعة الخانجي، القاهرة، ١٩٠٧، ج ١ ص ٥٧.

الإهانة أو الاحتلال، ومن الحض على الجهاد، ودفع المعتدين، ومن إظهار معالم أفراح النفس حينما تجتمع الجهود المؤمنة الصادقة بين القادة والعامة فيهيىء لهم الله النصر على أعداء الله والأمة والتراث. ومن يعايش آلام الأمة ويشهد تحقق آمالها، أو يرسمها، ويدعو للوصول إليها، لا يضيّع وقته في مظاهر صنعة هي أقرب إلى التكلف والتمحّك.

إن هذين القسمين يمكن أن نجد فيهما تطبيقاً لما اصطلح على تسميته، في عصرنا، باتجاه الفن للفن واتجاه الفن للواقع والحياة. وهذا التباين قد يلمسه الباحث ليس على مستوى شعراء العصر فحسب ولكن على مستوى الشاعر وحده أيضاً. فبين تغزله وبين رسائله الأخوية بون شاسع إذا ما قورنا بوصفه للمعارك أو أدوات الحرب أو أحداثها أو مدح قادتها أو رثاء أبطالها. وهذا أمر لا يستطاع ضرب الأمثلة عليه، لأنها ستشتمل حينئذ، على الدواوين وأجزائها.

* * *

على أن هذه الأشعار الإسلامية التي كانت صدى لجهاد الأمة ضد غزاة الصليبيين والتتار لم تسلم أيضاً من نقد الناقدين. فقد هوجمت، هذه المرة، من ثغرة أخرى.

يقول أحد الباحثين: «إن وجود إشارات لأحداث العصر في شعر هؤلاء الشعراء، وخاصة ما اتصل منها بأعمال الملوك والأمراء وحروبهم لا تعتبر كبيرة القيمة من الناحية الشعرية، مهما أطال الشاعر فيها وأسرف، إذا لم تكن وراءها ثروة عاطفية حقّة قادرة على أن تنقل إلينا إحساساً صادقاً، عند الشاعر، في صورة رائعة تؤثر فينا وتوحي إلينا وتجعلنا نعيش تلك الأحداث»[1].

إن الأستاذ الأهواني يرى أن شعر هذا العصر يفتقر إلى العاطفة الصادقة التي من شأنها توفر الإحساس المرهف عند المنشىء وتأثر بالصورة المؤثرة لدى المتلقّي.

إن من يقرأ ما أسميناه شعر البيئة في هذا العصر يحس بغير ما يحس به

(١) د. عبد العزيز الأهواني، ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر، ص ٧.

هذا الباحث. فقد هبّت على هؤلاء الشعراء رياح العدوان والغزو فاقتلعتهم من ديارهم، وطوّحت بمن ظل على قيد الحياة منهم في ديار غيرها، بعد أن أعمل الأعداء فيهم سيف الذبح والإذلال والتشريد. لقد عاش هؤلاء الشعراء تجارب قومهم منذ أن وطىء الأجنبي أرض بلادهم إلى أن حمل على الرحيل عنها، كما حاولنا أن نبيّن في الباب السابق من هذا المبحث. لقد أهمّهم الاحتلال الصليبي حتى بكوا دماً،

مزجنا دماء بالدموع السواجم

وجعلوا يصرخون في إخوانهم العرب والمسلمين الذين لم توقظهم نكبة احتلال بيت المقدس:

أتهويمةٌ في ظل أمن وغبطة   وعيش كنوار الخميلة ناعم؟
وإخوانكم بالشام يضحي مقيلهم   ظهور المذاكي أو بطون القشاعم؟

إنها صرخة عالية على رؤوس من لم يزالوا آمنين في غبطة ونعمة عيش، وإخوانهم في بلاد الشام كتب عليهم القتال والبقاء على صهوات الخيل أو رزقوا بالشهادة فأكلتهم نسور الجو.

ثم يعلو صراخ الشاعر في وجوه النائمين فيقرعهم بحوار منطقي قاهر لا مجال لدفعه:

أَتَرْضَى صناديدُ الأعاريب بالأذى   ويغضي على ذلٍّ كماة الأعاجم؟
فليتهم، إذ لم يذودوا حمية   عن الدين، ضنُّوا غيرة بالمحارم
وإن زهدوا في الأجر، إذ حمي الوغى   فهلّا أتوه رغبة في الغنائم[1]

كيف ترضون، وأنتم مقاتلون أشداء من عرب ومن عجم، بما ضاع من بلادكم؟ ألا تقاتلون لطلب الثواب من الله أولاً؟ فإن لم يهمكم هذا، مع ما فيه من أسف وإثم، ألا تدافعون عن حرماتكم من نساء وعقار وبلاد؟ فإن لم يهمكم هذا أيضاً، وهذا غاية الحزن والأسى، أفلا تفكرون بكسب الغنائم من الأعداء؟!!!

---

(١) الشاعر أبو المظفر الأبيوردي، الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ١٠/١٩٣.

إننا نكاد نستمع إلى هذا الصوت وهو يزيل الغشاوات عن العيون التي رنّقها النعاس والخبال من وراء نحوٍ من الألف عام! «وما أشبه الليلة بالبارحة»!

أقول لقد عاش شعراء ذلك العصر تجارب أُمتهم في زمن البأساء والاحتلال، حتى صار تحرير بيت المقدس أملاً يدغدغ عواطفهم في كل حين ومناسبة، فأخذوا يحثّون عليه ويحرضون، فهذا واحدهم يقول:

فانهض إلى المسجد الأقصى بذي لجب يوليك أقصى المنى، فالقدس مرتقب!

وآخر يرفع عقيرته في وجه القائد المظفر، نور الدين، ليقول له:

ولست تعذر في ترك الجهاد، وقد أصبحت تملك من مصرٍ إلى حلبِ
وطهر المسجد الأقصى وحوزتَه من النجاسات والإشراك والصُلُبِ

وثالث يصنع قصيدة باكية مستبكية، من حبات الدموع، من أولها إلى آخرها، حينما يرى الأعداء قد عادوا إلى بيت المقدس ثانية:

أعيني لا ترقَيْ من العبرات صلي، في البكا، الأصالَ بالبكراتِ
على المسجد الأقصى الذي جلّ قدره على موطن الإخبات والصلوات

ويمضي في تعداد مآثر هذا المسجد المحتل في سبعة أبيات تبدأ كلها بحرف الجر «على». ولا يكفي الشاعر أن يبكي، ولكنه يحثّ الدنيا كلها بأسرها على البكاء:

لتبكِ على القدس البلاد بأسرها وتعلن بالأحزان والترحات

ويحثّ، من بعد، مكةَ والمدينةَ لتبكيا عليها، فهي أخواتها!!!

حتى إذا ما أحسّ المسلمون بالخطر الداهم، وأصاخوا لداعي الجهاد، ورصّوا الصفوف، للقاء العدو، وتطهير بلاد الإسلام من عدوان الكفر، فرح المؤمنون بنصر الله، وسجل الشعراء هذه الانتصارات، ورصدوا دقات قلوب الذين عاشوا حتى أدركوا يوم تحرير القدس:

هذا الذي كانت الآمال تنتظر! فليوفِ لله أقوام بما نذروا
بمثل ذا الفتح، لا واللّهِ، ما حُكيت في سالف الدهر ، أخبار ولا سِير

الآن قرّت جنوب في مضاجعها   ونام من لم يزل حلفاً له السهر

إنها لحظة الآمال الكبيرة المتحققة. إنها لحظة الانتشاء بالنصر. إنها لحظة الإيفاء بالنذور. لقد جاءت هذه اللحظة، فهنيئاً لمن عاشها حيّاً، وهنيئاً لمن قضى قبل أن يحياها، فليسترح في قبره، وليعلم أن الحلم الذي مات دونه قد استحال إلى واقع يعاش!

ولقد بلغت به فورة الشعور والوجدان أن يقارن فتح القدس هذا بما سبقه من الفتوح الإسلامية، فيرى أنه أجلها خطراً وأكثرها تأثيراً. ولم يكتفِ بهذه المقارنة، بل وصلت به القناعة إلى أن يقسم على ذلك بالله العليّ العظيم!!!

إن ما وقع فيه الشاعر من مبالغة واضحة[1] لا تمنعنا من الإحساس بارتفاع درجة حرارة عاطفته، إن جاز التعبير، وهو ينقل إلينا إحساسه بالموقف. وبقدر ما يرى بعض الناس في الحلف واليمين صورة ساذجة لإبراز العواطف الفائرة يمكن أن نرى فيها، في الوقت نفسه، دليلاً عظيماً على الصدق في الإحساس والتعبير. ألم يقل الشاعر الجاهلي:

حلفت، فلم أترك لنفسك ريبة،   وليس وراء الله للمرء مذهب؟

وما رأي هؤلاء الناقدين في قول هذا القائل:

يا بهجة القدس! إذ أضحى به علم الإسلام، من بعد طي، وهو منتشر
يا نور مسجده الأقصى! وقد رفعت   بعد الصليب، به الآيات والسور؟

ألا يحسّون في البيت الأول، بوجه خاص، بعاطفة يلفح وجوههم هادىء سعيرها؟ وبصورة شعرية زاهية تخطف أبصارهم ألوانها؟ وبتراكيب شعرية يلفت انتباههم إحكامها، وتقديمها وتأخيرها؟

---

(١) لعل أبا تمّام، الشاعر، كان أكثر حذراً من الوقوع في هذا التعميم، حينما قال في وصف معركة عمورية:

إن كان بين صروف الدهر من رحم   موصولة أوَ ذمام غير منقضب
فبين أيامك اللائي نصرت بها   وبين أيام بدر أعظم النسب

ديوانه، بشرح التبريزي، بتحقيق عبده عزام، دار المعارف، ١/٧٣.

إن هذا الشاعر يتحدث عن الفرنجة المهزومين فيبلغ ببلاغة الإيجاز ما لا تبلغه الخطب الطوال:

صاروا حديثاً، وكانوا، قبلُ، حادثة، على الورى يتقيها البدو والحضر[1]

وغير خافٍ تأثره بالنسق الأعلى في القرآن الكريم ﴿ وجعلناهم أحاديث ﴾[2].

ومن بعد هذه الفرحة، بتحرير أولى القبلتين وثاني المسجدين وثالث الحرمين الشريفين، يكتب لشعراء آخرين أن يعيشوا حتى يشهدوا لحظة أخرى، كانت أكثر بعثاً على الفرح والسرور، هي لحظة الخلاص، خلاص بلاد المسلمين في الشام من المحتلين من فرنجة ذلك العصر[3]. إن أحد الشعراء حينما علم بهذا النبأ لم يملك إلا أن صاح:

الله أكبر هذا النصر والظفر هذا هو الفتح لا ما تزعم السير
هذا الذي كانت الآمال، إن طمحت إلى الكواكب، ترجوه وتنتظر

وفي قصيدة ثانية يحمد الله بأعلى صوت وأندى نبرة:

الحمد لله زالت دولة الصلب وعزّ بالترك دين المصطفى العربي

فها هو ذا، مرة، يكبّر ويهلّل في أول كلمة يفتح بها فمه، وأخرى يحمد الله ويشكره، فيما يشبه تنفس الصعداء لمن زال عن صدره كابوس احتلال أجنبي ثقيل طويل! ولا أدري إذا كان ثمة صنعة أصدق في التعبير عن العاطفة الصادقة اللاهبة والإحساس أكثر من صرخة مسلم يكون أول ما يقوله التكبير والتهليل؟؟!

وتلحُّ علي صورة شعرية رسمها الشاعر الأبيوردي في قصيدته الميمية التي

---

(١) كتاب الروضتين، ط ١٢٨٧ هـ الجزء الثاني، ص ١١٨.

(٢) نزلت في قوم سبأ، في اليمن القديم، الآية ١٩ من سورة سبأ: «فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق».

(٣) وأقول «فرنجة ذلك العصر» لأن هذه البلاد قد ابتليت، في عصرنا الحاضر، ببلاء أعم خطراً وأكثر ضرراً، فهو تحالف القوى الصليبية والصهيونية العالمية معاً!.

قالها بعيد احتلال الصليبيين للقدس عام (٩٤٢هـ ـ ١٠٩٩م)، أوردها استكمالاً للدفاع عن شعراء هذا العصر. يقول عن المسلمين في بلاد الشام الذين انفرد بهم الغزاة:

تسومهم الروم الهوان، وأنتم   تجرون ذيل الخفض، فعلَ المسالم

صورتان متقابلتان تتضح الفكرة منهما في ضرورة اتحاد جهود المسلمين في مجابهة الأعداء، لا أن يحارب بعض وينعم آخرون في خفض العيش كالمسالمين، ثم يقول:

وكم من دماء قد أُبيحت ومن دُمًى   تواري حياء حسنها بالمعاصم

إنها صورة معبّرة أصدق تعبير! فبعد أن أُبيحت دماء الرجال والنساء والأطفال اجتيحت البيوت ودُخل على النساء في خدورها، على حين غرّة، فلم يجدن ما يحامين به عن جمالهن، وكنّ مثل عرائس الألعاب في الجمال، غير معاصمهنّ! فقد رفعنها دون الأعداء يسترن أجسادهنّ حياءً وخجلاً من عيون الطارىء الأجنبي قبل سيفه وسلاحه. إن الصورة لتنبض بالتعبير الصريح وبالتجربة الشعورية الصادقة. وما عسى أن تدفع معاصم النساء من رماح الأعداء؟ ولكنه الصدق الفني والإحساس المتأثر المؤثّر.

إننا لم نرد أن نطيل في ضرب الأمثلة من شعر أسامة بن منقذ، وغيره من شعراء هذا العصر خوفاً من الإملال والخروج عن حدود التأليف المدرسي المناسب للتلاميذ، لذا فقد عدنا إلى ما ورد أكثره في الباب السابق واستخرجنا منه الأمثلة.

ولا أدري، من بعد، إذا تبين أن شعر عصر الحروب الصليبية قد خلا من العاطفة الصادقة التي يأتي من بعدها الإحساس والصور التي تدل على تأثر لديهم وتأثير فينا، أم لا. ويكفي أن أقول إن هذه الأشعار التي نقلت إلينا بيئة الناس في زمن الحروب الصليبية، بزمانها ومكانها، بخيرها وشرها، يكفي أنها تبدو وكأنها تخاطب ضمائرنا ونحن نعيش احتلالاً صليبياً صهيونياً آخر للقدس ولفلسطين ولأجزاء أخرى من بلاد العرب والمسلمين!!!!

ب ـ النثـر الفني:

ويواجه النثر الفني في زمن الحروب الصليبية الاتهام نفسه. فهو قسيم الشعر. بل إن الإغراق في الصنعة اللفظية، إلى الحد الذي أثر على المِعاني، تهمة قد وجهت، في الأصل، إلى النثر.

يقول الأستاذ أحمد حسن الزيات: «أصبحت الكتابة في عهد القاضي الفاضي طلاءً خدّاعاً من زخرف اللفظ على هيكل بالٍ من المعنى السقيم»[١].

وفي موضع آخر يقول: «أصبحت الكتابة في عهده (القاضي الفاضل) صناعية محضاً، ألفاظ منمقة تحتها معنى غث وخيال ضئيل»[٢].

وعن أثر هذه الصنعة على الأدب يرى «إن هذه الطريقة بهرت العيون الكليلة والقرائح الناضبة فاقتفاها عبّاد الصنعة من أشباه الكتّاب وورّطوا أنفسهم فيما لا غناءَ فيه ولا رجْعَ منه»[٣]. وقد قال بمثل هذا غير واحد[٤].

ولا أذكر الآن اسم المرجع الذي درسنا فيه، في المدارس الثانوية، أنَّ الكتابة في هذا العهد تشبه غمداً من ذهب على سيف من خشب!!!

وما يمكن أن يخطر بالبال، لأول وهلة، في هذا الموقف هو أن في هذه الأقوال تعمياً يفتقر إلى الدقة والتمحيص. فهو، عند البحث والتحرّي، لا يكاد ينطبق إلا على بعض أجزاء من أعمال القاضي الفاضل الأدبية أولاً، وعلى بعض كتّاب عصره ـ لا كلهم ـ في بعض كتاباتهم ـ لا كلها ـ ثانياً. وهو الأمر الذي لاحظنا مثله في تهمة شعر العصر بالصنعة المفرطة.

فقد يلاحظ الباحث، مثلاً، إن بعض كتّاب العصر أيضاً، قد أُغرموا،

---

(١) تاريخ الأدب العربي، ط ٢٦، دار الثقافة ـ بيروت، ص ٢٤٩.
(٢) ص ٢١٨، ويكرر هذا المعنى في ص ٢٤٦.
(٣) ص ٢٤٩.
(٤) مثل جورجي زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية منشورات دار مكتبة الحياة، ج ٣/٣٤، ٣٥، والدكتور شوقي ضيف في الفن ومذاهبه في النثر، دار المعارف، ط ٨، ص ٣٦٨، والدكتور عمر فروخ تاريخ الأدب العربي ٣/٤٢.

بالصنعة في الألفاظ والمحسنات، فاستحوذت على جانب كبير من أساليبهم فيما كتبوا. فالحريري، صاحب المقامات (٥١٦ هـ)، يعجبه، مرة، أن يدير إحدى مقاماته على كلمات بصيغة إملائية خاصة، كحرف الشين، مثلاً، في الرسالة الشينية التي كتبها لصديق له. فيرد فيها قوله: شغفي بالشيخ شمس الشعراء ريش رياشة وفشا معاشه[١]... إلخ. أو أن تتضمن مقالة أخرى[٢] رسالة، إحدى كلماتها معجمة والأخرى منقوطة كقوله: الماحُل يخيف والسمح يغذي والمَحِك يُقْذِي والعَطاء ينجي والمطالُ يشجي... إلخ، وثمة مقامة تسمى «بالرقطاء»، لتضمنها رسالة، حروف أحدها منقوط والآخر بغير نقط[٣].

كما يلاحظ الباحث أن الناس، في عصر الحروب الصليبية، قد استهوتهم هذه المقامات، فجعلوا يقلدونها ويصنعون أمثالاً لها. وانكبّوا عليها قراءة وإعجاباً وحفظاً، حتى بلغ الحد ببعضهم إلى أن قال:

أُقسم بالله وآياته ومشعر الحج وميقاته
إن الحريري حري بأن تكتب بالتبر مقاماته[٤]

وربما نقع على كاتب آخر تستهويه الصنعة، وهو العماد الكاتب الأصبهاني، (٥٩٧ هـ). فلم يفارق السجع جملة من جمل كتاب له برأسه هو «الفتح القسّي في الفتح القدسي» وهو الذي أرّخ فيه لفتوحات صلاح الدين الأيوبي، كقوله: وكلما وجدنا فسحة ضايقناهم (يعني الجيش الصليبي حينما طرد عن عكا في عهد صلاح الدين) وأرهفنا حدود العزائم والصوارم وأرهقناهم، وجرت معهم عدة وقعات كاد الكفر فيها يبور ودائرة السوء على أهله بنا يدور...[٥].

---

(١) الرسالة الشينية، مقامات الحريري، ص ٦٠٧، شرح ونشر المكتبة الشعبية - بيروت، وهناك رسالة سينية.

(٢) هي المقامة السادسة المراغية في المصدر السابق ص ٤٩.

(٣) هي المقامة السادسة والعشرون ص ٢٥٨.

(٤) انظر مقدمة مقامات الحريري للشريشي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المؤسسة العربية، ص ٩. وقائل الأبيات هو جار الله الزمخشري (٥٣٨).

(٥) الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمد محمود صبيح، القاهرة، الدار القومية، ص ٥٢٠.

ولو تساءلنا عن القيمة الفنية، بوجه خاص، فيما قرأنا من نماذج من مقامات الحريري لوجدنا أنها لا تستحق ما أُنفق عليها من عناية وما أُحيطت به من إعجاب. فربما كان وكد مؤلفها منها أن يثبت للناس مدى تضلعه في اللغة ومدى قدرته على تصريف الأساليب وتلوين التراكيب. وهي كلها قليلة الفائدة له ولأبناء مجتمعه وللناس من بعده، مع ما يضاف إلى ذلك من نضوب ماء العاطفة الذي تحتها، وما ينتج عن ذلك من ضعف التأثير في الأجيال. ولو فتشنا عن مثل هذه القيمة الفنية في نثر العماد الكاتب، أيضاً، لوجدنا مثل ذلك، من قلة العناية بتجويد الأسلوب وتحديد العاطفة وتكوين الصورة.

ولكننا، مع ذلك كله، واجدون في هذا العصر كتّاباً آخرين غير الحريري وغير العماد في تجويد القيم الفنية في النثر، مع ما يمكن أن نعثر عليه، في مصنفات هذين الكاتبين من قيم اجتماعية وتاريخية لا غناء عنها.

ولنبدأ بشيخ هؤلاء الكتّاب جميعاً بالقاضي الفاضل (٥٩٦).

إن تراث القاضي الفاضل في النثر الفني قد تراوح بين الرسائل السلطانية، التي تخصّ الحكام وعلاقاتهم بالمحكومين، وبين الرسائل الإخوانية التي تنشأ بينه وبين من تربطهم به علائق المودّة والصداقة الشخصية، وبين الرسائل الوصفية، وهو ما نعثر عليه في ثنايا رسائله من وصف لما ألّف من المساكن والديار، كمصر أو دمشق[1].

إن ما يمكن أن نجده من غرام بالصنعة اللفظية المستأثرة باهتمام القاضي، دون المعاني، قد لا نعثر عليها إلا في بعض الرسائل الإخوانية، حيث تجد من حبل المودّة مجالاً لإبراز القدرات اللغوية والمهارات الأسلوبية والمحسنات البديعية كالسجع والجناس والطباق والتورية وغيرها. أما في سائر رسائله فإن مظاهر الصنعة لا تختفي، ولكنها تخفي تحتها معاني مناسبة أشد التناسب للموضوع الذي أُنشئت من أجله، حتى لاحظ الباحثون أن القاضي الفاضل قد وفق في المزج بين جمال الصنعة وعمق المعنى توفيقاً بيّناً[2]. وربما كان حجم

(١) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية، د. أحمد أحمد بدوي، ط ٢، ص ٣٠٣.

(٢) د. محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الأيوبي، ص ٢٢١ ود. أحمد أحمد بدوي، الحياة

البحث وغايته تحول دون الإكثار من ضرب الأمثلة. لذا فإننا نستطيع أن نعود إلى الرسالة التي أرسلها باسم صلاح الدين إلى الخليفة العباسي بعيد تحرير بين المقدس. ففيها الأمثلة الشاهدة على ما نقول، ويليها الخصائص الفنية التي أجمع على الإشارة إليها الباحثون(١)، في نثر هذا الكاتب الذي أقبل على ديوان الإنشاء، في مصر، في زمن الفاطميين، فسئل عن عدّته لهذا الأمر فأجاب بأنه يحفظ القرآن الكريم وديوان الحماسة فأكتفي بهما عن كل ما عداهما(٢). وأخذ، منذئذٍ، في الكتابة الإنشائية حتى أصبح زعيمها، ثم ضم إليه السلطان الناصر صلاح الدين ديوان الوزارة، ثم فخر على الناس بأنه فتح ما فتح بقلم الفاضل لا بسيوفهم(٣).

ولقد كان القاضي يتحرر، في بعض رسائله الخاصة، من الصنعة، فينطلق مترسلاً لا يلوي على أي لون من ألوان الزينة البديعية(٤). ولا تمنع قلة الشيء من ذكره، فقد كانت الرسائل في مجموع نثره قليلة.

حتى إذا ما انتقلنا إلى سائر كتّاب العصر وخطبائه وجدنا أن بعضهم يلتزم بالصنعة لا ينفك عنها، كالعماد الكاتب في الكتابة وسبط بن الجوزي (٦٥٤) في الخطابة، كما نجد أن ضياء الدين بن الأثير (٦٣٧)، وهو من كتّاب العصر ووزرائه، يميل إلى الصنعة والإكثار منها حيناً وإلى التحرّر منها والإخلاد إلى الترسّل حيناً آخر(٥). أما العز بن عبد السلام (٦٦٠)، وهو من دعاة عصر المماليك وفقهائه وقضاته وخطبائه، فلا يميل إلى الصنعة في خطبه على الإطلاق(٦). ويكاد أسامة بن منقذ في كتابه «الاعتبار» يقصّ علينا مراحل حياته

= الأدبية في عصر الحروب الصليبية، ص ٣٦١.

(١) انظر أدب الحروب الصليبية د. عبد اللطيف حمزة، ص ١٨٦، ١٨٧.

(٢) انظر قصة القاضي الفاضل مع كاتب الإنشاء في العهد الفاطمي في مصر الموفّق بن الخلال في وفيات الأعيان ٢/٤٠٨.

(٣) شذرات الذهب، ابن العماد الحنبلي، ٤/٣٢٤.

(٤) راجع مثلاً الرسالة التي أرسلها لمولاه صلاح الدين حينما اشتد عليه وقع تجهيزات الصليبيين في الحملة الثالثة في كتاب الروضتين الجزء الأول ص ١٦٨، ١٦٩.

(٥) كما يبدو لنا من تصفّح كتابه «المثل السائر» أو «الوشي المرقوم».

(٦) راجع لذلك كتاب «عز الدين بن عبد السلام، حياته وعصره» تأليف عبد الرحمن مراد، المكتبة

وينقل لنا بعض مشاهدها دون أن تأسره المحسنات والصنعة.

إن استحواذ الصنعة على المعاني في كتابات كتّاب هذا العصر لا يجوز تعميمها عليهم جميعاً أو على إنتاجهم الأدبي جميعه. ولعل من الأصوب أن نقسم آدابهم إلى قسمين، كما فعلنا في الشعر، أحدهما ما سجلت فيه النوازع الشخصية من رسائل إخوانية أو مطارحات أدبية، والآخر ما يمكن أن نسميه أيضاً أدب البيئة، الزمانية والمكانية، التاريخية والجغرافية، وهو ما عايش به هؤلاء الكتّاب ما دهم المسلمين من أحوال الحرب والجهاد زمن الغزوين الصليبي والمغولي.

ولقد أصابت الكتابة في هذا العصر ازدهاراً في أشكالها الفنية كالخطب والخطب الدينية والرسائل السلطانية والإخوانية ورسائل البشرى وكالمقامات التي عرفت بعد الحريري لدى الزمخشري (٥٣٨ هـ) وابن الأشتركوني (٥٣٨ هـ) وأبي الفرج بن الجوزي (٥٩٧ هـ) وابن الأعظم الرازي (٦٣٠ هـ)[١]. كما عرفت الملاحم الشعبية كقصة عنترة وسيف بن ذي يزن، وعرفت المذكرات أو السير الذاتية في كتاب الاعتبار للأمير أسامة بن منقذ، وعرف أدب الرحلات والأسفار في رحلة كلٍّ من ابن جبير وابن بطوطة وناصر خسرو[٢].

على أن هذه الأعمال الفنية في نثر عصر الحروب الصليبية لم تسلم من توجيه النقد، ولم يعفها منه أنه كانت تحمل هموم الناس في تلك العهود وتنقل آمالهم وآلامهم.

يقول أحد الباحثين: «إن هذا النوع من النثر (كتب الحرب والنفير والجهاد) شأنه شأن سابقه (كتب الفتوح والتهاني)، فهو يعتمد، أكثر ما يعتمد، على الوصف الدقيق وإبراز كل صغيرة وكبيرة، يبدو أنه يفتقر إلى الحرارة العاطفية وينقصه الشعور الذاتي ويتضاءل فيه الانفعال النفسي، وهي

= العصرية بيروت، الصفحات ٧٢ ـ ٧٨.

(١) راجع تاريخ الأدب العربي، الأستاذ أحمد حسن الزيات، ط ٢٦، دار الثقافة ـ بيروت ص ٣٩٩.

(٢) راجع الأدب في العصر الأيوبي، د. محمد زغلول سلام، الصفحات ١٧٧ ـ ١٨٤.

التي سوف نجدها في بحث النثر الوجداني والذاتي»[1].

إن هذا النقد والنقد الذي سبقه للشعر يخرجان من خندق واحد. ولا غرو إذا تبع، في الرأي، الباحثون توجيه رائدهم وأستاذهم[2]. ولذلك، فإننا نجد أنفسنا نرد على ما نسمع كما رددنا أول مرة.

إن الدكتور عمر موسى باشا يقسّم النثر، في زمن الحروب الصليبية، إلى قسمين من حيث ما يتناول من موضوعات تؤثر في القيمة الفنية فيها: الأول ما أسميناه أدب البيئة أو النثر الفني المتصل بالبيئة، والثاني النثر الوجداني والذاتي. وهو يرى أن الأول تعوزه التجربة الشعورية الصادقة وما يكون منها العاطفة الحارة والإحساس الصادق وهي الأمور المتوفرة، بكثرة، في الثاني.

وإننا لنتساءل عن التجربة الشعورية النابضة بالعاطفة والإحساس، هل تتوفر في زمن الحروب التي تعني جميع أفراد الأمة، فتؤثر في حيواتهم من الأعماق وهم يدينون بعقيدة توجههم نحو مثل قول الله تعالى ﴿ ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين ﴾[3]؟ هل تتوفر، في مثل هذه البيئة، في النثر الذي يترجم خطرات الشباب ونوازعهم وطموحاتهم القريبة المنال أم في ذلك الذي تجيش به صدور المحاربين، أو من كانوا من المحاربين، أو من تابعوا أحداث الحرب ومعاركه ورجاله وآلاته وأخباره؟!!

إن الباحث لا ينكر أن للأدب الذاتي حظه من الصدق الفني، بسبب ما يهيأ له من جو الحرية والانطلاق دونما قيود. ولكنه، في الوقت نفسه، يدرك أن الأديب الملتزم يضع همومه في هموم أمته ليصبحا هماً واحداً يطربه أن يغني عليه بآلامه، كما يطرب كل فرد من الأمة أن يسمعه. إن الأدب الذاتي، في زمن تهاجم فيه الأمة بدينها وأرضها وتراثها، لون من ألوان الخروج على أهداف

---

(١) أدب الدول المتتابعة (الزنكية والأيوبية والمملوكية) د. عمر موسى باشا، دار الفكر الحديث، ص ٧٩٩.

(٢) موضوع الكتاب السابق بحث قدم لنيل درجة الدكتوراه، بجامعة القاهرة عام ١٩٦٥ بإشراف الدكتور عبد العزيز الأهواني.

(٣) الآية ٨ من سورة المنافقون.

الأمة والضرب في غير واديها، أيّاً كانت الدرجة في ارتقائه الفني وفيما يمور فيه من حرارة العاطفة. إنه لن يعبّر، في هذه الحالة، إلا عن عدد محدود من الأفراد، هذا شأنهم. أما الأدب الموجه، بتلقائية القناعة والإيمان والتوحّد مع مصير الأمة، فهو أدب الحياة وأدب الواقع وأدب الصدق[1].

ثم ما لنا ولهذه اللهجة الخطابية؟ ألسنا نجد الدليل من هذا الأدب الإسلامي الملتزم؟

مثال أول:

من رسالة أرسلها القاضي الفاضل، وهو في دمشق، إلى السلطان الناصر صلاح الدين، بعد تحرير القدس، (٥٨٣ هـ):

«كتب المملوك هذه الخدمة والرؤوس، إلى الآن، لم ترفع من سجودها، والدموع لم تمسح من خدودها!. وكلما فكر الخادم أن البيع[2]، تعود وهي مساجد، والمكان الذي كان يقال فيه: إن الله ثالث ثلاثة، يقال، اليوم، فيه إنّه الواحد ـ جدّد الله شكراً، تارة يَفيض من لسانه، وتارة يَفيض من جفنه، سروراً بتوحيد الله تعالى الحق المبين، وأن يقال محمد رسول الله الصادق الأمين، وجزى الله يوسف[3] خيراً عن إخراجه من سجنه، والمماليك ينتظرون المولى، وكل من أراد أن يدخل الحمام بدمشق قد عزم على دخول حمام طبرية[4].

ثم قال: وللألسنة في هذا الفتح تسبيح طويل وقول جميل جليل»[5].

---

(١) راجع لذلك فصل الالتزام في كتاب النقد العربي الحديث للدكتور محمد غنيمي هلال، ط ٥، ص ٤٧٦.

(٢) جمع بَيْعة وهي متعبّد النصارى.

(٣) يعني السلطان صلاح الدين، يوسف بن أيوب.

(٤) لأن طبرية قد حررت من غزاة الفرنجة بعد معركة حطين (ربيع ثانٍ ٥٨٣) التي هي قريبة من أراضيها، وقبل تحرير القدس (رجب ٥٨٣ هـ).

(٥) البداية والنهاية، ابن كثير، دار الفكر العربي ١٢/٣٢٢ وكتاب الروضتين، لأبي شامة، ج ١/ص ٨٢.

ألا نلمس وراء تراكيب هذه الرسالة عاطفة جيَّاشة بشكر الله على ما هيأ من نصر مبين؟ لقد سجد الناس في دمشق فطال سجودهم وانهمرت من عيونهم دموع الفرح، وجعلوا يخرجون من بلدهم مسرعين إلى بيت المقدس ليشهدوا الفتح العظيم، وسيعبرون، في طريقهم إليها، بطبرية وحمامات طبرية المعدنية. وفي هذا ما فيه من دلالة معبّرة على الشعور بالراحة من بعد التعب، وعلى الشعور بنعمة الجهاد والتحرير، ولم يمض على تحرير طبرية غير ثلاثة شهور!!

ومما يجلّي العاطفة في أوضح بيان، أنها ليست ضيقة على قدّ صاحبها فحسب، إنها عاطفة دينية نابعة من العقيدة الإسلامية. فمصدر السرور هو أن المسجد الأقصى كان يدنسه الشرك بالله ثم عاد لكلمة التوحيد. ثم إن الناس يشكرون الله بألسنتهم وبدموعهم لأنه نصر للتوحيد، نصر لكلمة لا إلّه إلاّ الله محمد رسول الله. وكان مما يتبع ذلك، وعلى دربه وخطاه، أن السلطان الناصر صلاح الدين، يوسف بن أيوب، هو الذي أخرج المسجد الأقصى من سجنه تحت أيدي المشركين!!! كل ذلك مما يدعو إلى الفخر والاعتزاز بهذه المكارم والانتصارات الحربية التي لا يدانيها أي انتصار.

كل ذلك قد عبّر عنه هذا الوزير الكاتب المجاهد بأوجز عبارة وأبلغ بيان، وهو في نظره غير كافٍ، فسيكون لقلمه فيه، من بعد، جولات وسبح طويل وقول جميل جليل، وقد كان!

مثال ثــانٍ:

وقد نجد في خطبة القدس، التي مرت بنا، على لسان القاضي ابن الزكي القرشي مثالاً آخر حافلاً بكل عناصر التجربة الشعورية الصادقة.

أما العاطفة فقد كانت تنطق عن فرحه الغامر وفرح كل مسلم بهذا الفتح المنتظر. وأما الإحساس فإنها تنبض بها زاخراً من وراء تسعة عقود ظلت فيه مدينة القدس ترزح تحت احتلال صليبي بغيض، ولم يكن محمولاً على هذا الإحساس حملاً بقدر ما كان يعبّر عن إحساس الجميع من سامعيه. وأما الانفعال فلقد كان واضحاً بيّناً منذ أول كلمة في الخطبة. ولأمرٍ ما لم يكتفِ

الخطيب أن يحمد الله في واحدة من الآيات، في افتتاحية خطبته، لقد حَمده في ثمانٍ تعجّ كلها بالشكر والحمد والثناء، على ما هيّأ من هزيمة لعقيدة الشرك والمشركين وإعادة بيت الله، في القدس إلى سالف عهده من عهد المسلمين!!!

إن الإحساس الذي تقوم عليه التجارب الأدبية هو الصدق في الإحساس وفي التأثير. وأساس هذا الصدق اقتناع ذاتي يتولد في نفس الأديب، وإخلاص فني يقوم على الأفكار النبيلة النابعة من روح الأمة ومن تراثها، لا مجرد إبراز مهارة في صياغة القول لإرضاء شعور الآخرين[1].

ولقد تمثل كل ذلك في هذه الخطبة الناطقة بلسان كل مسلم غمره السرور وشملته نشوة النصر. «ومهما تكن التجربة عاطفية شعورية فإنها لاتعزف قط عن الفكر الذي يصحبها وينظمها ويساعد على تأمل المنشىء فيها»[2]. ولذلك فقد وردت أفكار الخطيب في هذه الخطبة شاملة للحقائق الأساسية التي يقوم عليها الفكر الإسلامي في التوحيد، وفي حمل لرسالة الإسلام من خلال الجهاد عن بلاد المسلمين وحرماتهم.

ومهما يكن من أمر القيمة الفنية في نثر هذا العصر فإن الآراء فيها ترجع إلى مذاهب أدبية متباينة في وجهات النظر. فالذين يرون أنه يفتقر إلى الأصول الفنية الأساسية في الإحساس والتأثير يصرّون على حرية الأدب من كل قيد إلا قيد الفن، وهو ما عرف برأي الفن للفن، كما تقدم. بينما نرى أن الأدب ينبغي أن تكون له غاية أخلاقية والتزام نحو الأهداف العليا للأمة. وفي هذا ما فيه من ضرورة استشعار واقعية الأدب ومعايشته لمناسبات الحياة وظروف الأمم.

وانطلاقاً من هذا التفريق الواضح وانطلاقاً من موقف الإسلام من توجيه الأدب والسمو به إلى مرحلة توحّد رغبات الأديب مع طموحات الأمة؛ فإن الباحث يرى، أن من الضروري بمكان كبير، أن توجه أنظار الباحثين إلى ما في أدب هذا العصر من حمل لرسالة الأمة، ونهوض بحمل همومها، إلى جانب ما بدا لهؤلاء الأدباء من هموم ذاتية ومطامح فردية.

---

(١) النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال، مكتبة الأنجلو مصرية، ط ٥، سنة ١٩٧١، ٣٨٤.

(٢) المرجع السابق والصفحة.

البَابُ الثَالِثُ

المقَوِّمَاتُ الفنِّيَّةُ

لأدَبِ الجِهَادِ



المقوّماتُ الموضوعيَّة
لأدب الجهاد

رأينا في الباب السابق، عند الحديث عن السمات الفنية لأدب هذا العصر، أن أحكام التعميم قد أُطلقت على الشعر وعلى النثر، فجارت على ما في جيّدها من الصدق الفني والتجاوب مع أحداث البيئة، بسبب ما وجد في بعض الأعمال الأدبية منها من صنعة لفظية وحلية بديعية.

ونحاول، في هذا الباب، أن نتعرف إلى ما يميّز هذا الأدب من خصائص ذات علاقة بالموضوعات التي تنبّه إليها وجهد في الحديث عنها وأداء دوره في تجليتها. ولسوف نعالج الشعر والنثر معاً، إذ لا حاجة للفصل بينهما، هنا، فأغلب الموضوعات المطروقة أسهم فيها الشعراء والكتّاب جميعاً، مع اختلاف رأيناه سابقاً في المعالم الفنية.

* * *

إننا نقرأ، في تاريخ أدب هذا العصر، إن أبرز ما كان الشعر يدور فيه من فنون وموضوعات هي المدح والرثاء والغزل والهجاء والمجون والألغاز والوصف والتصوّف وبعض الموضوعات السياسية والحياة الاجتماعية[١].

أما الكتابة فقد كان منها الرسائل الإخوانية والسلطانية.

موضوعات تقليدية:

ولو نظرنا في هذه الموضوعات لوجدنا أنها هي الأغراض التقليدية المتوارثة

(١) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية، د. أحمد أحمد بدوي من ص ٥٥ - إلى ص ١٠٦.

في الشعر وفي النثر من العصور السابقة. فلم يكد يخلو عصر منها من أشعار تزجى في المديح، أو تقال في الرثاء، أو يتغنى بها في الغزل، أو المجون، أو تنظم للهجاء، أو لأغراض الوصف، أو ما يمكن أن يمسّ مسًّاً في أمور السياسة والحياة الاجتماعية. وربما لوحظ أن أشعار الألغاز والتصوّف قد أكثر من النظم فيها. ويمكنْ أن تسلك هذه الموضوعات جميعاً في سلك واحد هو الأدب الذاتي أو الغنائي. فهي تعبّر عن المواقف والآراء، وتتناول الأشياء من وجهة نظر الأديب، وما أُتيح له من مؤثرات الموهبة والثقافة الخاصة.

غير أن مؤرخي أدب هذا العصر لم يذكروا فيه هذه الأغراض فحسب، لقد أشاروا إلى أغراض جديدة وذكروا أنها برزت تلبية لحاجات هذا العصر[1]. ويوضّح باحث آخر هذا الأمر بقوله أنها من أثر الحروب الصليبية في الأدب العربي[2].

موضوعات جديدة :

ويمكن تصنيف هذه الموضوعات الأدبية على النحو التالي:

١) في أدب الحرب والجهاد :

لقد تعددت في هذا المجال الموضوعات، حتى كادت تستأثر بالغالبية العظمى من اهتمام الكتّاب والشعراء؛ فقد شغلتهم حملات الجيوش الصليبية الغازية، بما حملت إليهم من أخطار العدوان على الدين والتراث وعلى الأمة والبلاد والحياض، فمضوا يسجلون في آدابهم المختلفة أحاسيس المسلمين إزاء هذه الزحوف:

أولاً ـ في مرحلة الهجوم والعدوان وما قد يرافقها من خوف وذعر[3]

---

(١) الأدب في العصر الأيوبي د. زغلول سلام، ص ١٧٠ وما بعدها.

(٢) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية د. أحمد أحمد بدوي ص ٤٠٧ وما بعدها.

(٣) لم يكن ذعراً وخوفاً حقيقيين، ولكنه دعوة للصمود والثبات. انظر الرد على رسالة لويس التاسع ملك فرنسا على لسان الصالح أيوب (خطط المقريزي ١/٣٥٤).

وأسف وحسرة[1] واستنجاد[2]، ويتخللها من حثٍّ وتحريض على القتال[3] وما ينجم عنها من تهديد ووعيد[4] وتنتهي به من سلم ومعاهدات[5].

وثانياً - في مرحلة صد العدوان بالجهاد الحق، والثبات على العقيدة، والدفاع عنها، وما يكون فيها من وصف المعارك الكبرى[6]، ووصف ما يدير رحى حربها من قادة أبطال[7]، يعمر قلوبهم الإيمان بالله، ورثاء لهم عند الشهادة[8]، لما قادوا من جيوش مؤمنة بنصر الله، وما تحمل من أسلحة وآلة حرب كالسيوف والرماح والأسنّة والمنجنيقات[9]، وما يدكّون بها من حصون[10]، في الانتصارات التي يكون وراءها التهاني[11] والبشائر، والأفراح[12] في مجال الحماسة والفخر[13]، ووصف الشجاعة والتفاني[14].

---

(١) لما يرى من تضحية الفرنجة وتخاذل المسلمين، انظر رسالة كتبت إلى بغداد (الروضتين ٢/١٦١).

(٢) انظر الرسالة التي كتبها القاضي الفاضل على لسان صلاح الدين وأرسلها للخليفة العباسي (الروضتين ٢/١٥٧).

(٣) انظر الرسالة التي كتبها القاضي الفاضل على لسان صلاح الدين أثناء حصار الصليبيين لعكا (الروضتين ٢/١٠٢).

(٤) انظر الرسالة التي رد بها الظاهر بيبرس على بوهمند السادس ملك أنطاكية (السلوك، المقريزي حـ ١، ق ٣ (٩٧٢).

(٥) انظر ما كتبه القاضي الفاضل عن صلاح الدين إلى الملك بلدوين - في بيت المقدس (صبح الأعشى ٧/١١٠) وانظر المعاهدة بين صلاح الدين وريكاردوس (النوادر السلطانية - ابن شداد ٢٣٦).

(٦) انظر ما كتبه العماد الكاتب (الفتح القسّي - ص ٤٧). و(الروضتين ٢/٩٧).

(٧) انظر ما قاله الحافظ ابن عساكر في وصف نور الدين (الروضتين ٢٢٩).

(٨) انظر تفصيلاً لما قيل من شعر في رثاء صلاح في الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية د. أحمد أحمد بدوي (٥١٥).

(٩) الأدب في العصر الأيوبي د. محمد زغلول سلام، ص١٧٠ وما بعدها.

(١٠) المرجع السابق والصفحة.

(١١) انظر الرسالة التي كتبها القاضي الفاضل للسلطان صلاح من دمشق بُعيد تحرير القدس. (الروضتين ١/٨٢).

(١٢) انظر ما كتبه القاضي الفاضل إلى تقي الدين بمصر (الروضتين ٢/٦٦).

(١٣) أرسل السلطان صلاح الدين إلى بغداد رسالة ضمّنها ذكراً لما له من الأيادي في الجهاد أيام نور الدين وأثناء حكمه هو، (الروضتين ١/٢٤١).

(١٤) الأدب في العصر الأيوبي، ومحمد زغلول سلام، ص ١٧٠ وما بعدها.

وثالثاً - فيما ألّف من كتب ورسائل في التوعية الحربية ورفع الروح المعنوية للمجاهدين. وذلك مثل «كتاب الأربعين في الجهاد» الذي صنفه ابن عساكر (٥٧١)[١]، وكتاب «الاجتهاد في طلب الجهاد» لابن كثير (٧٧٤)، وهو متأخر، وقد ألّفه لرغبة نائب السلطنة بالشام، وقد رغب إليه أن يكتب له ما تيسر من القرآن والسنّة والآثار الحسنة في المرابطة بالثغور الإسلامية[٢]، ومثل كتاب «فضائل الجهاد» الذي جمعه القاضي ابن شداد لمولاه السلطان الناصر صلاح الدين[٣]، ومثل كتاب «الفروسية» الذي صنفه ابن قيم الجوزية (٧٥١) ومنه أقوال الرسول، عليه السلام، وأفعاله، والصحابة، في الخيل وركوبها والرياضات وألبستها ومزاولتها وأخلاق الرياضيين والفرسان[٤].

٢) في أدب التاريخ:

ونعني به الكتابة الفنية التي نذرت نفسها لتسجيل أحداث هذه الحروب، وما جرى فيها من بطولات إسلامية ومعارك وانتصارات وصدامات مع الأعداء؛ بأسلوب أدبي يجمع، إلى العناية بالحقيقة التاريخية، اهتماماً بالتعبير الفني.

ولعل أول ما يخطر بالبال، في هذا الصدد، العماد الكاتب الأصبهاني، (٥٩٧)، الذي أرّخ لفتح صلاح الدين لبيت المقدس في كتابه القيم «الفتح القسّي في الفتح القدسي»[٥]، وأرّخ لسائر فتوحاته في بلاد الشام بكتابه «البرق الشامي»[٦]. وتنبع القيمة الفنية والتاريخية لهذه المصنفات من كون صاحبها أديباً وشاعراً ومصنفاً عاش فترة هذه الحروب واكتوى بنيرانها وعايش انتصاراتها.

ومن المؤرخين الأدباء، أيضاً، عز الدين بن الأثير (٦٣٠هـ) الذي لم يكتفِ

---

(١) الأدب في العصر الأيوبي، د. محمد زغلول سلام، ص١٧١.

(٢) أدب الحروب الصليبية، د. عبد اللطيف حمزة، ص ٢٢٧.

(٣) الأدب في العصر الأيوبي، د. محمد زغلول سلام، ص ١٧١ عن وفيات الأعيان ٦/٨٥.

(٤) أدب الحروب الصليبية، د. عبد اللطيف حمزة، ص ٢٣٠.

(٥) حققه محمد محمود صبيح، نشر الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة.

(٦) حققت مختصره المسمى «سنا البرق الشامي» د. فتحية النبراوي، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٦٩.

بالحديث عن هذه الحروب في مؤلفه الكبير «الكامل في التاريخ»[1]، ولكنه صنّف كتاباً خاصاً عن تاريخ الدولة الأتابكية أسماه «التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية»[2]. وتنبع قيمته من سمعته العلمية في كتابة التاريخ ومن أسلوبه في الكتابة الموضوعية.

ومنهم القاضي بهاء الدين بن شداد (٦٨٤ هـ) قاضي السلطان الناصر صلاح الدين وصفيه الذي ألّف في فتوحاته كتاب «النـوادر السلطانية في المحاسن اليوسفية»[3]، وكان يعيشها ويبلو خيرها وشرّها.

ولا يمكن أن ينسى، في هذا الميدان فضل أبي شامة المقدسي (٦٦٥ هـ) في كتابه المشهور «كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية»[4]، وكتاب ذيل الروضتين[5]، على الرغم من أنه يأخذ أكثر أخباره عن الذين سبقوه في الكتابة والمعاصرة، وذلك لما في مصنفه هذا من حرص على الكتابة العلمية في التاريخ، وعلى الاحتفال بالأسلوب الأدبي في النثر والنصوص المأثورة المناسبة في الشعر.

ومنهم، كذلك، جمال الدين بن واصل (٦٩٧ هـ) الذي صنف كتاب «مفرِّج الكروب في أخبار دولة بني أيوب»[6]، وهو مرجع لا يستغنى عنه في دراسة أدب هذا العصر الذي احتوى الحقيقة التاريخية.

٣ ـ في أدب الجغرافية:

وإذا عنيت بعض المصنفات بعنصر الزمان وأحداثه في هذا العصر، فإن

(١) تحقيق عبد الوهاب النجار، القاهرة، إدارة الطباعة المنبرية، ١٣٤٨ هـ.

(٢) حققه عبد القادر طليمات نشر دار الكتب الحديثة، ١٩٦٣.

(٣) تحقيق جمال الدين الشيال، الدار المصرية، القاهرة، ١٩٦٤، وهو مختص بالتفصيل في سيرة صلاح الدين.

(٤) تحقيق محمد حلمي أحمد، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥٦، وطبع أيضاً في مصر عام ١٢٨٧هـ في مجلد واحد.

(٥) ويعرف بتراجم رجال القرنين السادس والسابع الهجريين، تحقيق محمد بن زاهد الكوثري، بيروت، دار الجيل، ١٩٧٤.

(٦) تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال، ١٩٥٧، في ثلاثة أجزاء، دار الكتب المصرية.

ثمة مصنفات وجهت اهتمامها إلى عنصر المكان، فجعلت تجمع فضائل البلدان التي واجهت الغزو الصليبي، مرة، أو المدن التي قصدها الفرنجة منها مرة أخرى. وقد تعتبر هذه العناية بالبلدان والمدن نوعاً من الدفاع الحضاري عنها، لإثبات شرعية ملكية المسلمين لها منذ أقدم الأزمنة بأوثق البراهين النقلية والعقلية، وتشبثهم بها وعدم التفريط فيها.

على أن هذا الاهتمام لم يكن نابعاً من دوافع وطنية إقليمية محدودة، فأراضي المسلمين جميعها هي بلادهم. كما تشهد بذلك كتب الرحلات التي عرفت في هذا العصر، ولكنه يدل على ارتباطات عاطفية تنشأ بين الأديب وبين ما يألف من أرض وبلدان في بعض مراحل العمر والنشأة. وليست النزعة في هذا العصر وطنية ولكنها دينية تتخذ من الأرض وطناً للمبدأ والعقيدة وهي الأساس.

ولعل أوفر البلدان الإسلامية حظاً فيما صنف في فضائلها هي بلاد الشام. كما أن بيت المقدس هي من أكثر العواصم الإسلامية التي جمعت فضائلها ودوّنت.

ففي فضائل الشام كتاب بهذا الاسم وضعه العالم الحافظ أبو سعد بن عبدالكريم بن عبدالجبار المعروف بالسمعاني المتوفى (٥٦٢ هـ)، وثمة كتاب آخر، بهذا الاسم، أيضاً، وضعه أبو الحسن علي بن محمد الربعي (٥٨٣ هـ)، والكتابان لا يزالان مخطوطين، فيما نعلم.

أما في فضائل بيت المقدس فنجد أولاً كتاب «الجامع المستقصى في فضائل المسجد الأقصى» ـ للقاسم بن عساكر (٦٠٠ هـ)، وقد وجد له مختصر باسم «باعث النفوس إلى زيارة القدس الشريف المحروس»، اختصره الشيخ برهان الدين الغزاوي. ونجد ثانياً «مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام» من تصنيف شهاب الدين أحمد بن محمد المقدسي (٧٦٥ هـ)، وثالثاً «فضائل بيت المقدس وقبر الخليل عليه السلام وفضائل الشام»، من تصنيف أبي المعالي المشرق بن المرجي المعروف بالمقدسي.

وفي فضائل مصر نجد كتاب «الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة»

لابن ظهيرة، وكان قد بدأ التأليف في هذا الموضوع المؤرخ المشهور ابن زولاق (٢٨٥ هـ)[١]

وفي مدح المدن والأقاليم نجد أن ابن الفارض يذكر مصر ذكر المحب الوامق، فيرد عليه العماد الكاتب بتفضيل بلاد الشام[٢].

٤ ـ في أدب المجتمع :

ولقد تناولت أقلام الكتّاب والشعراء، في هذا العصر، بعض مظاهر الحياة المتغيرة في مجتمعهم. وذلك بفعل احتكاك المسلمين بغزاة الفرنجة في الحروب، مرة، وفي بعض فترات حالات الصلح، وما نتج عن ذلك من اضطراب وتقلبات في حياة الناس واستقرارهم، ومن دخول بعض عناصر الحياة الاجتماعية الجديدة إلى استخداماتهم مثل الحمامات العامة التي أكثروا من الحديث عنها ومنها وصفها[٣]. فإن ابن جبير يحدثنا في رحلته أن المسلمين كانوا يتعاملون مع الفرنجة، في غير أوقات المعارك، تعاملاً تجارياً متبادلاً[٤]. وكذلك فإن أسامة بن منقذ يحدّثنا في كتاب «الاعتبار» عن لقاءات تتم بين المسلمين وبين الفرنجة في أوقات السلم والحرب. ويحدّثنا عن أخلاقهم وما فيها من جفاء، وعن نسائهم ورفض التزوج من غير النصارى، وعن طبهم المتأخر عما وصل إليه الطب عند المسلمين آنذاك، ويحدّثنا عن اعتزازهم بأنفسهم وعما في طبعهم من غدر[٥].

وبإزاء هذا التصوير للمجتمع بما فيه من تقلبات ناتجة عن الحروب

(١) راجع أدب الحروب الصليبية، د. عبد اللطيف حمزة، ص ٢٤٢ وما بعدها، والحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية ص ٥٣٨.

(٢) الأدب في العصر الأيوبي، د. زغلول سلام، ص ١٧٠ ـ ١٧٧ عن الروضتين ٢/٥٦ ـ ٥٨، ٥٩.

(٣) الأدب في العصر الأيوبي، دا زغلول سلام، ص ١٧٠ ـ ١٧٧.

(٤) عند حديثه عن عكا وعن خروج قوافل التجار منها إلى دمشق.

(٥) تراجع الصفحات ٤٨، ١٠٠، ١٠١، ٩٦ ـ ١٠٢ من كتاب الاعتبار ـ أسامة بن منقذ، تحقيق وتقديم د. أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، القاهرة، إدارة نشر التراث العربي، ١٩٥٣م.

المتتالية وتغيرات ناجمة عن تفاعل حضارات الشرق والغرب وتأثير بعضها في بعض، بإزاء هذا كله يتساءل الباحث عن مجموعة من المفكرين والأدباء، والشعراء منهم بشكل خاص، الذين عاشوا في فترة الحروب الصليبية دون أن يعايشوها ويبدو في أعمالهم صداها وآثارها.

فلقد عاش أبو حامد الغزالي (٥٠٥ هـ) السنوات الثلاث عشرة الأخيرة من عمره وبيت المقدس، الذي كان قد زاره من قبل، تحت قبضة الاحتلال الصليبي، ولم نعرف أنه تعرض لهذا الموضوع على خطورته وفداحة أثره على الإسلام والمسلمين[1]!!!.

أما ابن الفارض (٦٣٢ هـ) ومحيي الدين بن عربي (٦٣٨ هـ) فأمرهم أشد بعثاً على العجب! إن المتصفح لديوان شعر الأول وأغلب مصنفات الثاني لا يكاد يعثر، لديهما، على ذكر لما حاق بالمسلمين، في هذه المرحلة العصيبة من حياتهم، على أيدي غزاة النصارى وزحوفهم على الشرق الإسلامي وحضارته وعزة أهله!!! وهل التفكر في ملكوت الله في السماء يمنع من التفكر فيما يجري لمخلوقاته على الأرض؟!! أما الحريري (٥١٦ هـ) فقد شغلته مقاماته عما جرى للمسلمين في بيت المقدس وفي بلاد الشام في عصره.

٥ ـ في أدب السياسة :

تبين لنا، في الفقرات السابقة، أن الأدب لم يكن منعزلاً عن المجتمع وعن حياة الناس، لقد كان مسجلاً دقيقاً لأغلب ما يطرأ عليه من أحداث في حالتي السلم والحرب. وليست السياسة وإدارة شؤون الرعية على يد الراعي بدعاً من هذه الأحداث. بل هي منها في الصميم.

فإذا أحببنا أن نقف على دور الأدب في هذا المجال من مجالات الحياة رأينا أنه يضرب من المشاركة فيها بالسهم الأوفى.

فلقد شارك الأدباء مشاركة مباشرة في إدارة شؤون الناس أو كانوا في

(١) يراجع كتاب الأخلاق عن الغزالي د. زكي مبارك، ط ١، منشورات المكتبة العصرية ـ بيروت ص ١٧.

موقف المستشار المؤتمن. فلم يكن العماد الكاتب وعز الدين بن الأثير[1] بعيدين عن مواقع الأحداث، لقد كانا يدخلان معتركها، ويصطليان بنارها مع القادة والجنود في المعارك، وفي شهور الحصار، وفي ساعات الإعداد والاستعداد. بل إن ضياء الدين بن الأثير كان الوزير الأول للملك الأفضل، أكبر أبناء السلطان صلاح الدين وخليفته على بلاد الشام. وكان له تأثير بيّن على الأحداث التي جرت بين الأفضل وبين أخيه العزيز سلطان مصر[2].

غير أن مجموع جهود هؤلاء جميعاً قد لا يصل إلى ما أدّاه أديب آخر في مجال الجمع بين الأدب والسياسة، وأعني به عبد الرحيم بن علي بن محمد بن الحسن اللخمي البيساني المعروف بالقاضي الفاضل (٥٢٩ - ٥٩٦ هـ).

لقد مرَّ بنا مبلغ الثقة التي منحها السلطان صلاح الدين لهذا الكاتب الشاعر الوزير، حتى جمع في يديه بين منصبي الوزارة وديوان الإنشاء[3]، وحتى جعله المتحدث الرسمي بلسانه في الداخل وفي الخارج، وصار أعز عليه من أهله وأولاده[4]، وحتى كان لا يصدر أمراً إلّا عن مشورته ولا ينفذ شيئاً إلّا عن رأيه ولا يحكم في قضية إلّا بتدبيره[5].

إن هذه الثقة لم تكن من السلطان صلاح الدين كمن يتكىء على قصبة، كما قيل، ولكنها كانت برهاناً على صدق طوية هذا الوزير المجاهد، بقلمه وفكره وأعصابه وخبرته، بإخلاص المؤمن الصادق من رجال البطانة الصادقة.

إنه لم يكن ينتظر حتى يستشار في أمور الحرب، ولكنه كان يسارع في الإشارة والاقتراح، وغالباً ما يأخذ السلطان أو غيره من القادة برأيه.

فهو مرة يحثّ الملك العادل، أخا السلطان، على الجهاد والمرابطة واليقظة

---

(١) يبدو ذلك من مطالعة كتب الفتح القسّي في الفتح القدسي والكامل في التاريخ.
(٢) البداية والنهاية، ابن كثير، جـ١٣ ص ٩.
(٣) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء للقلقشندي، ١/ ٩٧.
(٤) البداية والنهاية، لابن كثير، الجزء ٣، ص ٢٤.
(٥) الخطط للمقريزي ٤/ ١٩٨.

الدائمة في مجابهة الأعداء[1]. يرسل ذلك في رسالة له إلى مركز قيادته في الكرك والشوبك من الأردن، بينما كان هو يدير شؤون الحكم في مصر، التي كثيراً ما أنابه فيها السلطان حينما يحزبه أمر في النهود إلى بلاد الشام. وهو مرة أخرى يشير على السلطان نفسه بالثبات والصبر أثناء حصار الصليبيين لعكا (٥٨٤ هـ)[2]. ولنسمع رأيه في فتح بيت المقدس من قبل أن يتم الفتح:

«إن البيت المقدس إن لم تتيسر الأسبابُ لفتحهِ، وأمرُ الكفر إن لم يجرَّد العزمُ في قلعِه، وإلّا ثبتت عروقُه واتسعت على أهل الدين خروقُه، وكانت الحجة لله قائمة وهمم القادرين بالقعود آثمة»[3].

إنه يقرن الدهاء السياسي بالالتزام بمطالب العقيدة الإسلامية التي هي عنده الدستور الأوحد. إن خطر بقاء الغزاة في البلاد المقدسة يعقب سخط الله على المتخلفين عن الجهاد، ثم يأتي بأخطار بقائهم فيها على المسلمين ثانياً. ثم يقول: «. . . وبالجملة فالشام لا ينتظم أمره بمن فيه وفتح بيت المقدس ليس له قرن يقوم به ويكفيه»[3]. إنه لا بدّ من الصدام مع العدو حتى تصبح البلاد جميعاً في أيدي المسلمين ويكون الدين لله. ولا يمكن التوصل إلى هذه الغاية إلّا بتحرير المسجد الأقصى.

وإذا قيل إن هذا الرأي ربما تم التوصل إليه بالتشاور مع السلطان، فماذا يمكن أن يقال في اقتراحه التالي على السلطان، حينما بلغه أن السلطان يفكر بإداء فريضة الحج، بعيد فتح بيت المقدس؟ قال له:

«إن الفرنج لم يخرجوا، بعدُ، من الشام، ولا سَلَوا عن القدس، ولا وُثِقَ بعهدهم في الصلح، فلا يُؤْمن مع بقاءِ الفرنج على حالهم، وافتراقِ عسكرنا وسفر سلاطيننا سفراً مقدراً، معلوماً مدة الغيبة فيه، أن يسروا ليلة فيصبحوا القدس على غفلة فيدخلوا إليه، والعياذ بالله، ويفرط من يد الإسلام ويصير

---

(١) وثائق الحروب الصليبية، د. ماهر حمادة، مكتبة الرسالة، ص ٢٤٦، ٢٤٧.
(٢) المرجع السابق ١٩٦ - ٢٠١.
(٣) مفرج الكروب في أخبار دولة بني أيوب (ابن واصل) الجزء الثالث ص ٢٨٩ - ٢٩٩.

الحج كبيرة من الكبائر التي لا تغفر ومن العثرات التي لا تقال»[1].

ألا يدل هذا التفكير وهذه المشورة على بعد نظر هذا الوزير الأمين في الأمور العسكرية والسياسية؟!. إننا مع ملاحظتنا للمبالغة التي وقع فيها عن الحج نرى عظم المسؤولية التي يحملها، ونرى مدى إخلاصه في التفكير في أمور المسلمين والإسلام.

أترى إلى هذا النثر المنطلق من قيود الصنعة؟ أترى إلى مدى التصور الشامل الدقيق لحال الفرنجة بعد هزيمة الطرد من القدس؟ ثم انظر إلى ما يكشفه من وراء علم الأعداء بسفر قائد جيوش المسلمين «سفراً مقدراً معلوماً مدة الغيبة فيه»!!!.

إنني أرى، من خلال الوقوف المتأني على جميع هذه المواقف في الأدب وفي السياسة والفكر، أن هذاالوزير الأديب المجاهد يستحق منا قراءة جديدة، تجلو أدبه من كل ما يعلق به من تهم التعميم والرمي بالإفراط في الصنعة على حساب الفكر والمعاني، وتجلو، كذلك، مبلغ ما ينبغي أن يكون على مثاله الوزراء والمستشارون ورجال البطانات من المسلمين.

إن ما ألّف في حياة القاضي الفاضل وفي نثره ورسائله وأشعاره[2] لا ينهض بمقداره ولا يكفي، على جلالته، لإبراز فضله، ولو أن في بعضه ما يمكن أن يكون تعاطفاً وتقديراً[3].

٦ - في أدب القصة :

يمكن أن نطلق على الأسلوب الذي كتب به الأمير المجاهد أسامة بن

---

(١) المرجع السابق والصفحة.

(٢) حقق الدكتور أحمد أحمد بدوي ديوانه الشعري ونشر مجموعة من رسائله معروفة باسم «الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم» وألف عن حياته كتاباً مستقلاً، ونشرت له مجموعة رسائل أخرى من اختيار ابن الديباجي.

(٣) كما برز في تناول الدكتور عبد اللطيف حمزة لخصائصه الأدبية في كتابه القيّم «أدب الحروب الصليبية».

منقذ كتابه «الاعتبار» أنه أسلوب السيرة الذاتية. فهو يحدّثنا عن مراحل حياته وما مر به فيها من أحداث مختلفة. كما يمكن أن نسميه أسلوباً قصصياً[1]، على نحو من الأنحاء. إذ إنه يتخذ القصَّ أساساً لإيراد ما يريد أن يسوقه في أغلب صحائف هذا المصنَّف الكبير. فنحن نجد فيه أحاديث عن الفروسية، وعن الحروب، وعن كثير من الملامح الاجتماعية للحياة في عصره، ومنها أحاديثه عن الفرنجة وما عليه أحوالهم وأخلاقهم.

وليس أسلوب القص بدعاً في تراثنا النثري حتى عصر أسامة. فالمقامات في الأدب الفصيح والملاحم والسير في الأدب الشعبي عرفت منذ القرن الرابع الهجري، وكان لها شأن من الشيوع والشهرة في الخامس. ولكن ما يلفت الانتباه هو أن هذا الكاتب الشاعر لم ينسق وراء هذا الأسلوب الشهير في القصة، وهو أسلوب المقامات، الذي أحبه الناس وشغلوا باحتذائه، على نحو ما جاء به الحريري من إفراط في العناية بالصياغة اللغوية واللفظية. ألم نقل إن هذا العصر حافل بالأساليب الكتابية والشعرية المتحررة من قيود الصنعة كما هو حافل أيضاً بالكتابة والشعر الذي تكاد تطغى على جماله الصنعة؟! ألم نقل إن أسامة نفسه انطلق من قيود الصياغة التي كان يقيد فنه بها بعض شعراء عصره؟!!.

٧ ـ في أدب الرحلات:

وقد عرف في القرون التي وقعت فيها الحروب الصليبية، من أواخر الخامس وفي أثناء السادس والسابع الهجرية، فن جديد من فنون النثر العربي، ونعني به أدب الرحلات. فقد اشتهر فيها ثلاثة من رجال الأسفار في أمصار الدولة الإسلامية المترامية الأطراف. ولعل أشهرها ابن جبير[2] الذي خرج من الأندلس وطاف بحواضر العالم الإسلامي وسجل انطباعاته ومشاهداته في

(١) راجع بحث فنون الكتابة في كتاب «الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية» للدكتور أحمد أحمد بدوي، الصفحات ٣٠٣ وما بعدها.

(٢) هو أبو الحسين محمد بن أحمد الكناني (٥٤٠ ـ ٦١٤هـ)، وحقق الرحلة د. حسين نصار ـ مكتبة مصر ـ القاهرة ١٩٥٥.

الرحلة التي عرفت باسمه. وكذلك فعل الرحّالة العربي المسلم ابن بطوطة وصنّف كتابه «تحفة النظار في غرائب الأمصار»[1]. ومثلهما كانت رحلة ناصر خسرو من بلاد فارس إلى أنحاء البلاد الإسلامية من خلال كتابه «سفرنامة»[2].

وتحفل هذه الكتب بالقيمة التاريخية والاجتماعية والجغرافية للحياة التي تحدثت عنها، كما أنها لم تخضع لقيود الصنعة اللفظية خضوعاً يحجب عنا هذه القيم التي حفلت بها.

٨ ـ في أدب التراث:

ونقول أدب التراث على وجه التغليب لا على سبيل الحصر. فإن تاريخ أدب هذا العصر يذكر أن الناس في عصر الحروب الصليبية قد عنوا عناية خاصة ببعض كتب التراث الأدبي المتحدرة إليهم من العصور السابقة، بالمطالعة والدراسة والاستظهار والاحتذاء.

أما هذه الكتب فأشهرها حماسة أبي تمام وديوان المتنبي ومقامات الحريري[3].

أما الحماسة فلأنها تحوي نماذج معبّرة تعبيراً فنيّاً كافياً عن مجموعة من القيم الأخلاقية للأمة العربية الإسلامية، من أمثال الفخر والحماسة والكرم والثبات على المكاره والشدائد، وغير ذلك من الصفات التي تشهد أمام الغزاة الطامعين من الفرنجة على عراقة أسباب المجد والسؤدد.

أما ديوان المتنبي فلأن المسلمين في صراعهم مع الفرنجة، في هذا العصر، أعجبهم ما وجدوه فيه من قصائد الصراع بين المسلمين بقيادة سيف

---

(١) الرحلة تهذيب وتحقيق أحمد العوامري ومحمد أحمد جاد المولى، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٣٤.

(٢) ترجمة وتقديم وتعليق د. يحيى الخشاب، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٥.

(٣) الأدب في العصر الأيوبي د. زغلول سلام، ص ١٧٠ ـ ١٧٧.

الدولة الحمداني وبين نصارى الروم، كما يتضح لنا من النص التالي:

«لاحظ ابن الأثير (في كتاب الوشي المرقوم) حينما قدم مصر عام ٥٩٦ أن الناس هناك منكبّون على شعر المتنبي وأنهم يعدّونه شاعراً عبقريّاً، وأنهم لم يفعلوا كذلك بشعر أبي نواس وقد قدم مصر قبله. فسأل في ذلك القاضي الفاضل، فقال: «إن أبا الطيب ينطق عن خواطر الناس»، ثم يضيف ضياء الدين ابن الأثير: «ولقد صدق فيما قال»[1]. واحتذاء شعراء الجهاد في هذا لأبي الطيب وسيفياته وأبي تمام في بائيته، على وجه خاص، أمر أشار إليه الباحثون[2].

أما مقامات الحريري فلما قلنا من أن بعض الكتاب قد استهوتهم في هذه العصر بهارج الصنعة، فمضوا يكثرون منها ويحتذونها، فهي كما انتهت على يد الحريري، عندهم، المثل الأعلى في البلاغة!!! ولكنها، كما بدا لنا، لم تكن المثل الأوحد لكتاب هذا العصر وشعرائه. وفي هذه النظرة نحتاج لتصحيح كثير من آرائنا ومواقفنا عن أدب هذا العصر.

بين أدب البيئة والأدب الغنائي:

يتبيّن لنا، لدى تأمل هذه الموضوعات، أنها ليست من الأدب الغنائي، الذي يقصره منشؤه على أن يكون ترجمان أحلامه وخيالاته الخاصة ووجدانه الفردي المحدود. ولكنها يمكن أن نرى فيها آفاقاً أوسع وأبعاداً أعمق من النطاق الفردي. إنها تحمل هموم الأمة وآمالها، إنها تترجم واقع الأمة بكل ما فيه من أنباض الحسّ والوجدان، كما أنها توحي بالصورة المرجوّ أن يكون عليه مستقبلها. إنها يمكن أن نطلق عليها، باختصار، أدب البيئة، وذلك يشمل البيئة الاجتماعية والزمانية والمكانية والثقافية. وثمة فرق كبير بين أن يطرب شاعر لدك حصن للأعداء، فيمضي في وصف المعركة التي انتهت بالاستيلاء عليه، وبين شاعر يتلو علينا من صبابته صحفاً من الوجد والعذاب، إثر فتاة

(١) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية، د. أحمد أحمد بدوي، ص ٤٤.

(٢) راجع «صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني، د. محمود إبراهيم، المكتب الإسلامي دمشق، ١٩٧١، ص ١٧٢ وما بعدها.

تعصف بكيانه كله!!! وبين آخر تهزه شجاعة بطلٍ في مقارعة أعداء الله، وشاعر تفتح لهاتَه، بكيل المدائح الشخصية، كثرةُ اللُّهى، كما يقولون في الأمثال.

ثغرة الاتهام :

ولعل المتأمل يدرك أن أدب هذا العصر قد أُتي من هذه الثغرة. فلم يفرّق، حين رمي بجمود الفكر تحت وطأة الصنعة، بين ما أنفقه الأديب في إزجاء وقته من أغراض تقليدية في المدائح والأهاجي وألوان التصابي والألعاب اللغوية، حينما لا يتجاوز همه أرنبة أنفه، وحينما تقعد به مطامحه عند ملذات الطعام والشراب، وبين ما كان يصدر عن قلب الأديب من حداء لقافلة الجهاد والمجاهدين، وهو واحد منها، تكاد تحرق أصابع يديه نيران الغزو الديني والاحتلال الاستيطاني، أو تهز أعطاف قلبه جموع الأعداء المنهزمين، تحت ضربات جنود الأمة، حينما تلتف حول قائدها، تحت راية لا إلّه إلا الله محمد رسول الله!!.

إن نار العاطفة التي تنضج التجربة الشعورية، في هذين اللونين من الموضوعات الأدبية، لا بدّ أن تكون متباينة في المقدار وفي الدرجة. وهذا هو أساس الفرق بينهما في نظر الناقدين المنصفين.

تطور النظرة النقدية لأدب العصر :

أما دارسو الأدب ونقاده، في الربع الأول من هذا القرن الميلادي، الذين رأينا نبذاً من آرائهم في أوائل هذين البابين، فربما يرى الباحث المدقق أنهم قد جانبهم الإنصاف، حينما لم يروا في أدب هذاالعصر غير الانحطاط في الفكر وفي الإبداع الفني. ذلك أنهم لم يوجهوا همهم فيه إلاّ إلى مظاهر الأدب الغنائي، الذي إن طار بأجنحة الحرية في الفن فلقد ابتعد كثيراً عن أرض الواقع وهموم الأمة!! وغاب عن انتباههم أمثال ما رأينا من أدب البيئة الذي إن تقيد بقيود الالتزام فلقد كان يضرب في صميم الواقعية وحمل رسالة ما يعاصر من الزمان والمكان!!.

أما الدليل الذي نسوقه على صحة ما نقول: فهو أن هؤلاء الناقدين لم يشيروا في دراساتهم من، قريب أو بعيد، إلى دور أدب هذا العصر في الجهاد في زمن الحروب الصليبية. ونظرة واحدة لدراسات الزيات وجورجي زيدان وعمر فروخ وشوقي ضيف، في هذا المجال، تقفنا على ما نزعم.

إن أبحاثهم لا تكاد تشير إلاّ إلى فتنة الحريري بالألعاب اللغوية، وإلى أفرنجيات ابن القيسراني، وتشيع ابن منير الطرابلسي، وتوريات القاضي الفاضل وتجنيسه، وبساطة أشعار البهاء زهير وقربها من العامية، والتائية الكبرى والصغرى في تصوف ابن الفارض، والفتوحات المكية وما فيها من شطحات وخيالات عند محيي الدين بن عربي!!!

إنهم لم ينظروا إلى الوجه الجاد الصارم من أدب أدباء العصر. لقد بحثوا كثيراً في «نظم السلوك» وأبعادها ورموزها في شعر ابن الفارض، وأدركوا أنه لا يكاد يشرح مراميها إلاّ فتوحات ابن عربي ومغلقاته. وغاب عنهم في الوقت نفسه، أن الواحد من هؤلاء الشعراء والمفكرين الكبار لم يؤدوا ما عليهم من واجب، في خدمة الحياة الاجتماعية التي يعايشون، ولم يشاركوا، ولو بمقطوعة شعرية واحدة، في إبداء الرأي بالغزو الصليبي الذي أظلّهم وشرد أهاليهم وهاجم الإسلام والمسلمين في ديارهم!!

وإلى عهد قريب، فإنك تظفر بدراسة لحياة ابن القيسراني[1] وشعره، لنيل درجة علمية، في جامعة عريقة، لم يلفت انتباهها حرارة ما صدر عن هذا الشاعر من اهتزاز كبير لانتصارات عماد الدين وابنه نور الدين على الصليبيين. ومن الغريب أن يتهم مؤلف هذا الكتاب جهود الذين صنفوا في أدب الحروب الصليبية قبله بأنها لا تخضع لمنهج الدراسة العلمية الموثوقة!!

إلاّ أن النظرة إلى أدب هذا العصر قد تغيرت في أوائل الخمسينات من هذا القرن الميلادي. فقد حققت مجموعة من المصنفات القديمة التي عاصرت

(١) كتاب «محمد بن نصر القيسراني، حياته وشعره»، من تأليف السيد فاروق أنيس جرار، منشورات دائرة الثقافة والفنون الأردنية، ١٩٧٤، وقد وجه هذا النقد في المقدمة ص ١٠ لكتب عبد اللطيف حمزة وأحمد بدوي ومحمد سيد كيلاني!.

هذا العصر أو أعقبته. من أمثال «كتاب الروضتين في أخبار الدولتين» و«مفرّج الكروب في أخبار دولة بني أيوب» و«الكامل في التاريخ» و«الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية».

وأعقب هذه الجهود المثمرة في التحقيق جهود صادقة في الإحساس بالفضل وتقديره وإظهاره على أيدي مجموعة من الباحثين الجادين.

فقد أصدر، عام ١٩٤٩، الدكتور عبد اللطيف حمزة كتابه «أدب الحروب الصليبية»[١]، فجمع فيه بين الروح العلمية في البحث والوضوح في المنهج وبين الإحساس بخطورة الدور الذي قام به أدب هذا العصر. وقد أصدر دراسة أخرى حول الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول[٢].

وقد صدر، بعده، للدكتور أحمد أحمد بدوي دراسات جادة، أيضاً، في هذا المضمار، ولعل أبرزها كتاب «الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية في بلاد الشام ومصر»[٣]، الذي رصد فيه رصداً طيباً لأثر الحروب الصليبية على الأدب العربي. وله كتاب آخر في «الحياة العقلية في العصر المملوكي»[٤]، فضلاً عما له من جهود علمية في تحقيق ديوان القاضي الفاضل ورسائله.

أما كتاب «الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي» للسيد كيلاني فيأتي تبعاً لهذه الجهود.

ولا تنسى جهود الدكتور «محمد زغلول سلام» حول «الأدب في العصر الأيوبي»[٥] و«الأدب في العصر المملوكي»[٦]، فقد كانت إسهاماً جيداً في بداية هذه الدراسات لهذه المرحلة الزمنية.

---

(١) صدر عن دار الفكر العربي بالقاهرة، الطبعةالأولى، عام ١٩٤٩.
(٢) صدر عن دار النشر نفسها عام ١٩٤٧.
(٣) مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ط ١، ١٩٥٤ والطبعة الثانية عام ١٩٦٨.
(٤) دار نهضة مصر عام ١٩٧٢، القاهرة.
(٥) دار المعارف بمصر عام ١٩٦٧.
(٦) دار المحارف أيضاً القاهرة ١٩٧١.

ومن الجهود الرائدة في هذا الصدد كتاب «صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني»[1]، الذي أصدره الدكتور محمود إبراهيم أوائل السبعينات. ففيه تنبه مبكر لأثر هذه الحروب على شعر أحد الشعراء الكبار في ذلك العصر.

أدب البيئة والأدب الإسلامي:

يتبين لنا، فيما مضى، إذن، أن أدب عصر الحروب الصليبية كان منه الأدب الغنائي ذو الأغراض الذاتية، كما كان منه أدب البيئة المحليّة، بشتى مؤثراتها، وهو الأدب الملتزم بقضايا العصر السياسية والاجتماعية والفكرية.

ولقد كان هم هذه الدراسة أن تركز على النوع الثاني من هذه الأغراض الأدبية، فهي مجال الاهتمام ومناط البحث.

على أن لا بدّ من إدراك العلاقة بين هذا الأدب الملتزم وبين جوهر خصائص الأدب الإسلامي وتحقيق معناه.

فمن الثابت أن أهم ما يميز الأدب الإسلامي عن غيره هو انطلاقه من التصور الإسلامي للكون والإنسان والحياة في أفكاره، وخدمة هذا التصور هو غايةَ هذا الأدب ومبلغ جهده[2]. فهل كانت هذه المعاني متوفرة في أدب هذا العصر الملتزم؟

إننا نحاول أن نقع على إجابة من عرض لمجموعة من نماذج هذا الأدب، تضاف إلى ما تخلل هذه الدراسة من نماذج كثيرة، منثورة في ثنايا فصولها المختلفة.

يقول الطلائع رُزِّيْك، الوزير في العهد الفاطمي، وقد عاصر أوائل الحروب الصليبية مفتخراً بأحد الانتصارات على الصليبيين:

ألا هكذا، في الله، تمضي العزائم   وتمضي لدى الحرب السيوف الصوارم

(١) صدر عن المكتب الإسلامي بدمشق ومكتبة الأقصى بعمان عام ١٩٧١.

(٢) منهج الفن الإسلامي، للأستاذ محمد قطب، دار الشروق، عام ١٩٦١، ص ٢٦٥.

وتعزى جيوش الكفر في عقر دارها ويوطا حماها، والأنوف رواغم

ولننظر إلى قوله «في الله» في البيت الأول، إنها تلخص، بإيجاز معبّر، أهداف المجاهيد الحربية العظيمة وأسباب انطلاقها. إنها، بهدوء الكلمات، في سبيل الله وفي سبيل نشر كلمته. وكل حركة أو نأمة تخرج عن هذه الجيوش فهي جهاد من أجل الحصول على مرضاة الله. وهي غاية يستحب في سبيل نيلها اقتحام معسكرات جيوش الأعداء والجوس خلال ديارها، على رغم أنوف كفّارها!

ومن القصيدة قوله أيضاً:

ولما وطوا أرض الشآم تحالفت ،فأضحت جميعاً، عربها والأعاجم

إن هذا هو الترجمة العملية لفريضة الجهاد التي تصبح فرض عين على أبناء المسلمين، جميع المسلمين، من عرب وغيرهم، إذا وَطِيءَ أيَّ جزء من ثراهم معتدٍ أو كافر.

ويصوّر الشاعر ثبات المسلمين وصمودهم في وجه الكفّار بقوله:

وقد غرق الكفّار منه بقطرة سحاب انتقام عندنا متراكم

إن الرد الإسلامي على الغزو الصليبي عنيف وشديد يغرق المعتدين انتقاماً لله ولدينه. أما إذا خرجنا نحن في سبيل نشر كلمة الله فالأمر أشد:

فكيف إذا سالت عليهم سيولنا وجاشت لنا تلك البحار الخضارم؟

إننا نكون، حينئذ، مثل البحار الهائجة لا يستطيع أن يسلم منها عدوٌ مستهدَف!

ويختم هذه المقطوعة بقوله:

وما نحن، بالإسلام، للشرك هازم ولكننا الإيمان للكفر هادم[1]

(١) وهذه المقطوعة يمكن أن توجد في ديوان أسامة بن منقذ، تحقيق د. أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، وزارة المعارف، القاهرة، ١٩٥٣، ص ٢٧٢. والبيت الأخير متأثر ببيت ورد في رسالة =

إن القضية أكبر من أن تكون صراعاً بين الإسلام والنصرانية، إنها ذات معنى أعمق وأخطر، إنها معركة بين الإيمان بالله، جلّ وعلا، وبين الكفر به، والعياذ بالله. إنها تضرب في أعماق التوحيد في أصله والثبات عليه في وجه عدم الإيمان بالله واستشعار وحدانيته، تعالى.

وربما نقع على مثال آخر مما قيل في أخريات الحروب الصليبية. إنه من مدح الشهاب محمود للسلطان المنصور قلاوون، في أحد انتصاراته على الصليبيين، إنه يقول:

علينا لمن أولاك نعمته الشكرُ   لأنك للإسلام، يا سيفه، ذخر
ومنّا لك الإخلاص، في صالح الدعا   إلى من له في أمر نصرتك الأمر

إن هذا الشاعر يمدح، ولكن بأسلوب جديد من المدح. إنه يمدح قائداً انتصر في معركة. ولكنه لم يقف عند شخصية هذا القائد ممجداً مفتوناً. إنه ينتبه إلى الذي وهبه النصر، إلى الله، سبحانه، فالشكر موجه له، لا للقائد السلطان، فهو الذي أولاه النصر وحباه به. وما أجمل ما افتتح به قصيدته من تقديم للجار والمجرور مرتين: الأولى في «علينا» والثانية في «لمن»، وهي الأهم، فالشكر لمن أولاك، وهو العزيز الحكيم، وليس لك أنت!! أليس هذا هو التطبيق العملي لقول الله تعالى في سورة الأنفال، ﴿وما النصر إلاّ من عند الله﴾؟ إن هذا من صميم التصور الإسلامي لأفعال المسلمين عامة وللنصر في الجهاد خاصة.

ويوضح هذه الحقيقة الواضحة، أيضاً، في البيت الثاني.

إن الشاعر، باسم المسلمين جميعاً، يتوجه إلى الله، عز وجل، بالدعاء الخالص أن يحفظ هذا السلطان وينصره على أعداء الله ويبقيه ذخراً للمسلمين، بإذنه تعالى. لماذا؟ لأن الله، وحده، سبحانه، هو صاحب الأمر والنهي، والحل

= أرسلها القاضي الفاضل لصلاح الدين، وهو من شعر المتنبي،
ولست مليكاً هازماً لنظيره   ولكنك التوحيد للشرك هازم
ديوان طلائع بن رزيك، جمع وتبويب محمد هادي الأميني، المكتبة الأهلية، ص ١٣٥.

والعقد، في أمر هذا النصر المؤزّر، ألم يقل، جلّت قدرته، في كتابه العزيز«ألا له الخلق والأمر»[1]؟!.

وينهي الشاعر أبياته القليلة بقوله:

ولله في إعلاء ملكك في الورى مرادٌ، وفي التأييدِ، يوم الوغى، سرُّ[2]

إن بقاءك أيها السلطان، على سدّة الحكم، من أمر الله وتوفيقه، كما أن نصرته لك في المعارك تدل على رضائه عنك، والله يعلم. وله حكمة، جلّت حكمته، لك في الحالتين! إن هذا إيحاء بإرادة الله، تعالى، في توجيه المسلمين في السلم وفي الحرب.

إنه فهم صائب لرسالة الحاكم المسلم المخلص المستخلف على الأرض بإرادة ربه.

ونستذكر نصاً ثالثاً، مرّ بنا قبل قليل، وهو من إنشاء القاضي الفاضل، كتبه على لسان صلاح الدين ليحدث به الخليفة العباسي في بغداد عن منجزاته الحربية وعن تخطيطاته المستقبلية، يقول:

«وعرفنا أن البيت المقدس، إن لم تتيسر الأسباب لفتحه، وأَمْرَ الكفر إن لم يجرّد العزمُ في قَلْعِه، وإلاّ ثبتت عروقُه، واتسعت على أهل الدين خروقُه»[1].

إن إنقاذ المسجد الأقصى، في مدينة القدس، أمر يتصل بمحاربة الكفر والكفار، ولا يقف عند حد تحرير مدينة ما من المدن. إذ أن للقدس علاقة بالأديان السماوية منذ أن كانت، فهي موطن من مواطن الإيمان بالله في وجه الذين كفروا برسالاته القيّمة.

والرسالة تقترح الحل الناجع لإخراج الأعداء من القدس، وذلك بسرعة تمنعهم من أن يضربوا فيها أوتادهم ويثبتوا فيها خيام إقامتهم. وإلاّ أصبح

---

(١) الآية: ٥٤ من سورة الأعراف.

(٢) النجوم الزاهرة، ابن تغري بردي، الجزء السابع، ص ٣٢٣.

الأمر، في إخراجهم، صعباً واتسع الخرق على الراقع، كما يقول الشاعر. وما أصوب هذا الرأي وأبعد نظره! لقد ثبت صحته على الأيام!!!

ويضيف الكاتب أن الخطر الناجم عن عدم النهوض لمحاربة المحتلين بسرعة العزم والحزم ليس أن تثبت، على القدس، عروقه وتتسع، على المسلمين، خروقه، فحسب، ولكن درءاً لخطر أشد ودفعاً لغضب أكبر، وهو غضب الله، يضيف الكاتب:

«وكانت الحجة لله قائمة وهمم القادرين بالقعود آثمة»[1].

إن المتخلفين عن الجهاد والقعدة من القادرين، من غير النساء والأطفال، تثبت عليهم حجة الله تعالى بالتخلّف والقعود! وما أشد عقاب هؤلاء عند الله يوم القيامة، كما بيّنتها آيات الكتاب الكريم.

إن القاضي الفاضل يكشف عن أخطار التخلّف عن إنقاذ القدس، في ذلك الوقت. إنها أخطار تشير إلى المخاطر الاجتماعية والسياسية على الناس في الحياة الدنيا. ولكن هذا يهون إذا ما قورن بغضب الله، تعالى، عليهم، في الآخرة، حينما تثبت عليهم تهمة التخلّف والقعود عن نصرة دينه.

إن هذا التفكير يربط أمور الدنيا بالآخرة، كما يربط أمور الناس برب الناس. وهذه غاية الغايات في الفكر الإسلامي القويم.

---

(١) انظر، مفرج الكروب في أخبار دولة بني أيوب، لابن واصل، الجزء الثالث ص ٢٨٩ ـ ٢٩٩.

الخاتمة

وبعد: فهل وَفَى البحث بما وعد به، في بدايته، من إبراز دور الأدب في عصر الحروب الصليبية، في تصوير الحياة الأدبية، بعامّة، وفي ترجمة أحاسيس الناس، في هذا العصر، في شقائهم بهذه الحروب وفي انتصارهم على أسبابها؟ بوجه خاص؟

إن هذا ما طمح إلى الوصول إليه جهد الباحث، بعد عَرْضٍ لنحو من عشرين نصاً أدبياً، بين القصيدة والمقطوعة، وبين الرسالة المطوّلة والقصيرة، وبين الخطبة الجامعة والمحدودة الكلمات. وكان من عرض هذه النصوص شرحٌ لأفكارها وتوضيح لمعانيها ومراميها، ثم استكناه أسرارها عن دواخل نفوس المسلمين لما أصابهم من قرح وهوان في حالة الغزو والاستيلاء على الحرمات، وعما نشأ فيها من نية القيام للجهاد، وردّ كيد المعتدين على عزة الدين وكرامة أهله وأرضه، وعمّا أحسّت به من ظفر ونصر حينما ابتدأت طريق الجهاد والتحرير، وأنفقت في الوصول إلى أهدافها فيه نحواً من مئة عام أو يزيد.

إن جهد الباحث كان ينصب في رصد أثر هذه الأحداث الدامية على النفس الإسلامية في حالتي الشدة والرخاء، منذ أن دنّست أرض الشرق الإسلامي بإقدام غزاة المشركين عام (٤٩٢ هـ، ١٠٩١ م) إلى أن طهّرت هذه الأرض من نجاستهم عام ٦٩٢ هـ، ١٢٩٢ م!

فإذا كان الأدب في هذه المرحلة من عمر الأمة الإسلامية قد نهض بتسجيل جميع أحاسيس النفس المسلمة المتفاعلة مع الأحداث الخارجية الداهمة فلماذا يتهم، إذن، بأنه كان يعاني من عوامل الانحطاط؟

إنها وقفة لا يستطيع الباحث أن يعبر ببحثه دون أن يقف عندها، ويحاول أن يتدبرها ويبحث عن وجه الصواب فيها. وهو ما أنفق فيه بعض صحائف

البحث، حتى وجد أن أدب هذا العصر ينقسم إلى قسمين: أولهما ما سمّاه أدب البيئة، وهو هذا المتصدي لأثر هذه الأحداث على نفوس الناس وثانيهما ما سمي بالأدب الذاتي الذي لوحظ أن الأديب، فيه، لا يكاد يحتفل إلّا بما يطربه من مظاهر اللعب بألفاظ اللغة، أو يهزّه من الملذات الشخصية في أدب الغزل أو سباب الهجاء أو هراء الألغاز والمراسلات!

وحينما يدقق الباحث في الأمر وينعم النظر يصل إلى أن هذا اللون الثاني من أدب الترف هو ما يمكن أن يطلق عليه أدب الانحطاط، في عصر هزّت الحروب الغاشمة كيان المسلمين هزّاً.

ذلك أن أدب البيئة قد تكفّل بالحديث عن آلام الأمة بما طرأ عليها من عوامل الغزو والاحتلال، كما أطْلعنا على ما كان يعيش عليه أبناؤها من آمال الجهاد والتحرير لبيت المقدس ولسائر بلاد المسلمين، منذ لحظة الغزو الأولى.

ولدى التدقيق والإمعان، أيضاً، توصل البحث إلى أن أدب البيئة هذا هو الذي يمكن أن يتصف بصفة الأدب الإسلامي. ذلك أنه ينطلق من التصور الإسلامي في فهم الكون والإنسان والحياة. كما ينطلق من العقيدة الإسلامية التي تبدأ بالإيمان بالله إيماناً كاملاً وتسليماً مطلقاً، وتستقر على الامتثال بأوامره، في الجهاد في سبيله، ونشر دينه، والدفاع عن كرامة وطنه وأهله.

إن هذا الأدب الملتزم بقضايا الأمة يستحق منّا، إذن، كل عناية واهتمام، في دراسته وبحثه وتدريسه وتمحيصه. ولعل هذا البحث قد قام بنصيبه في هذا الصدد، بما تقدم، في هذه الخاتمة، ذكره، وبما أشار إليه من توضيح لخصائصه الموضوعية ومزاياه الفكرية، مرة، ولسماتِهِ الفنية المميزة مرة أخرى.

وقد جاء هذا البحث. مع أبحاث أخرى مشابهة، تلبية لحاجة طالما أحسّ بها القيّمون على إدارة الأمور والمناهج في كلية اللغة العربية بالجامعة الإسلامية، والجامعات الأخرى التي تلتقي معها في الاتجاهات والاهتمامات، عسى أن ينالوا بها، وننال، رضى الله، تعالى، في خدمة دينه، ولغة قرآنه وتراثها القويم. إنه سميع مجيب، عليه توكلت وإليه أنيب.

المصادر والمراجع

١ ـ **الأخلاق عند الغزالي**، د. زكي مبارك، منشورات المكتبة العصرية ـ بيروت.

٢ ـ **أدب الحروب الصليبية**، د. عبد اللطيف حمزة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٤٩.

٣ ـ **أدب الدول المتتابعة (الأتابكية والأيوبية والمملوكية)** د. عمر موسى باشا، دار الفكر الحديث، ١٩٦٧.

٤ ـ **الأدب في العصر الأيوبي**، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر ١٩٦٧.

٥ ـ **الأدب في العصر المملوكي الأول**، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر ١٩٧١.

٦ ـ **الاعتبار**، أسامة بن منقذ، تحقيق وتقديم د. أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، إدارة نشر التراث العربي، القاهرة، ١٩٥٣.

٧ ـ **أنوار الربيع في أنواع البديع**، ابن معصوم المدني، تحقيق شكر هادي شكر، بغداد.

٨ ـ **البداية والنهاية**، إسماعيل بن كثير، دار الفكر العربي.

٩ ـ **البرق الشامي**، العماد الكاتب الأصبهاني، اختصره الفتح البنداري في كتاب سنا البرق الشامي وحققته د. فتحية النبراوي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٩.

١٠ ـ **(التاريخ) الباهر في الدولة الأتابكية**، عز الدين بن الأثير، تحقيق عبد القادر طليمات دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٦٣.

١١ ـ **تاريخ الأدب العربي**، أحمد حسن الزيات، ط ٢٦، دار الثقافة، بيروت.

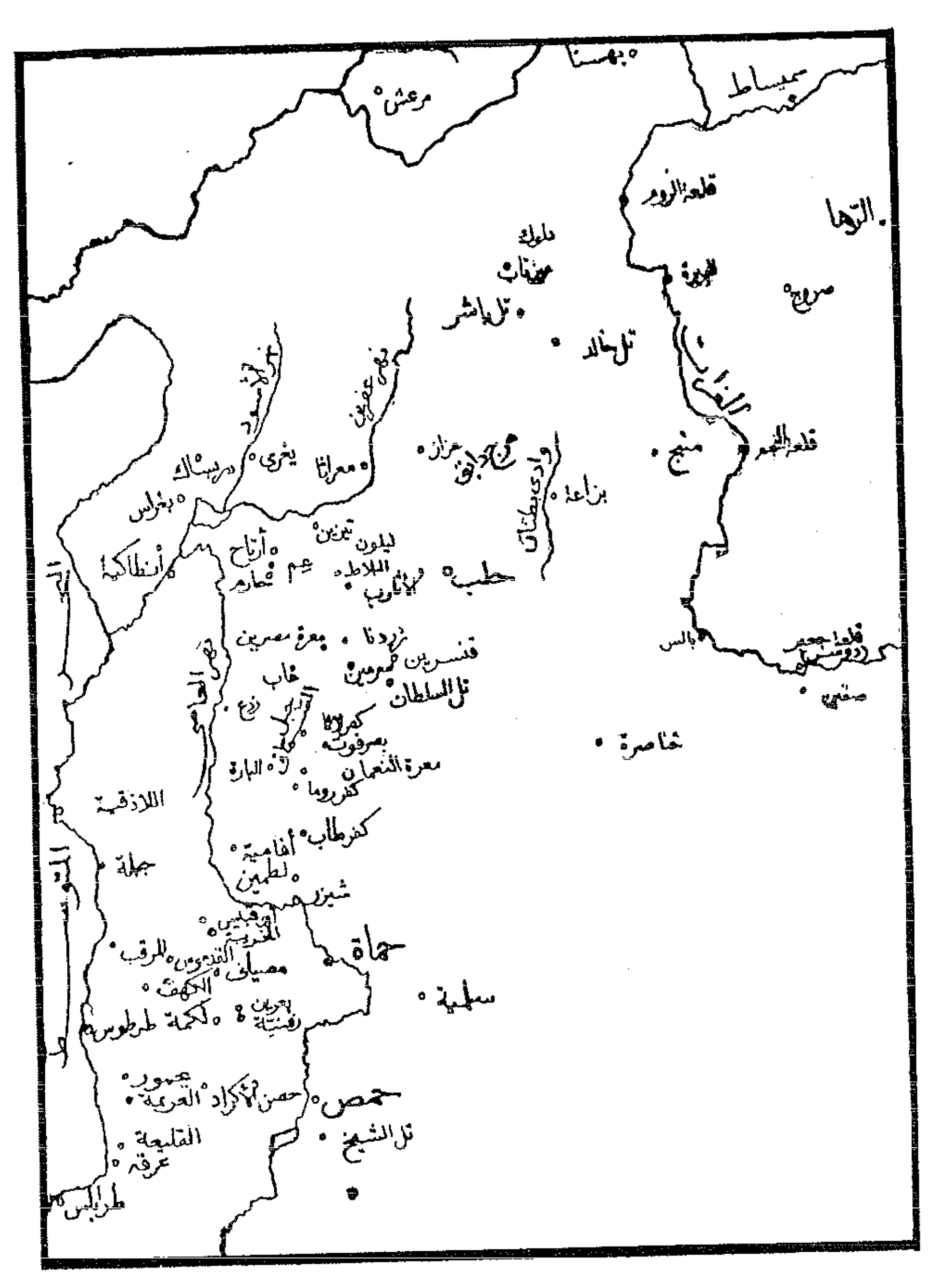
١٢ ـ **تاريخ الأدب العربي**، د. عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت.
١٣ ـ **تاريخ آداب اللغة العربية**، جورجي زيدان، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.
١٤ ـ **تاريخ الخلفاء**، جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٥٩.
١٥ ـ **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، ابن بطوطة، تهذيب وتحقيق أحمد العوامري ومحمد أحمد جاد المولى، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٣٤.
١٦ ـ **جامع الأصول في أحاديث الرسول**، مجد الدين بن الأثير، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، سورية.
١٧ ـ الحركة الصليبية، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، ط ١، القاهرة ١٩٧١.
١٨ ـ **الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي**، د. عبد اللطيف حمزة، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٤٧.
١٩ ـ **الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية في بلاد الشام ومصر**، د. أحمد أحمد بدوي، مكتبة نهضة مصر القاهرة، ط ١، ١٩٥٤ وط ٢ ١٩٦٨.
٢٠ ـ **الحياة العقلية في العصر المملوكي**، د. أحمد أحمد بدوي، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٢.
٢١ ـ **ديوان أبي تمام** ـ صنعة الخطيب التبريزي، تحقيق عبده عزام، دار المعارف.
٢٢ ـ **ديوان أسامة بن منقذ**، تحقيق د. أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، وزارة المعارف، القاهرة ١٩٥٣.
٢٣ ـ **ديوان أبي الطيب المتنبي**، بشرح البرقوقي، القاهرة.
٢٤ ـ **ذيل الروضتين** تراجم رجال القرنين السادس والسابع الهجريين) ـ أبو شامة القدسي، تحقيق محمد بن زاهد الكوثري، بيروت، دار الجيل، ١٩٧٤.
٢٥ ـ **رحلة ابن جبير ـ تحقيق د. حسين نصار، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٥٥.**
٢٦ ـ **رسائل الحرب والسلام**، من ترسل القاضي الفاضل، جمع موفق الدين ابن الديباجي (٦١٥) تحقيق د. محمد نغش.
٢٧ ـ (كتاب) **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، أبو شامة القدسي، القاهرة، المكتبة الميمنية، ١٢٨٧ هـ، وطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، تحقيق محمد حلمي أحمد، القاهرة، ١٩٥٦.
٢٨ ـ **السلوك لمعرفة دول الملوك**، المقريزي، تحقيق د. محمد مصطفى زيادة، ط ٢،

القاهرة، ١٩٥٧.
٢٩ - **شعر الجهاد في عصر الحروب الصليبية**، د. محمد علي الهرفي، مؤسسة الرسالة.
٣٠ - **شعر دعبل الخزاعي**، جمع وشرح د. عبد الكريم الأشتر، دار الفكر بدمشق، ١٩٦٤.
٣١ - **صحيح البخاري**، دار مطابع الشعب، القاهرة.
٣٢ - **صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني**، د. محمود إبراهيم، المكتب الإسلامي، دمشق، ومكتبة الأقصى عمان، ١٩٧١.
٣٣ - **العز بن عبد السلام، تأليف رضوان الندوي، دار الفكر بدمشق، ١٩٦٠.**
٣٤ - **العمدة في صناعة الشعر ونقده**، ابن رشيق القيرواني، طبعة الخانجي، القاهرة ١٩٠٧.
٣٥ - **الفتح القسّي في الفتح القدسي**، العماد الكاتب الأصبهاني، تحقيق محمد محمود صبيح، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة.
٣٦ - **فضائل القدس، أبو الفرج بن الجوزي**، تحقيق د. جبرائيل جبور، دار الآفاق الحديثة، بيروت، ١٩٧٨.
٣٧ - **فن الخطابة**، د. أحمد الحوفي، دار نهضة مصر، ط ٤، القاهرة.
٣٨ - **الفن ومذاهبه في الشعر العربي**، د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر.
٣٩ - **الفن ومذاهبه في النثر العربي**، د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر.
٤٠ - **الكامل في التاريخ**، عز الدين بن الأثير، تحقيق عبد الوهاب النجار، إدارة الطباعة المنيرية ١٩٤٨.
٤١ - **محمد بن القيسراني، حياته وشعره**، فاروق أنيس جرار منشورات دائرة الثقافة والفنون الأردنية، عمان، ١٩٧٤.
٤٢ - **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، جمال الدين بن واصل، تحقيق د. جمال الدين الشيال، طبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٧ وطبعة الدار المصرية القاهرة ١٩٦٤.
٤٣ - **مقامات الحريري**، شرح ونشر المكتبة الشعبية، بيروت، ومخطوطة الشريشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المؤسسة العربية.
٤٤ - **النجوم الزاهرة**، ابن تغري بردي، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٣٥.
٤٥ - **نحو منهج إسلامي متكامل**، أنور الجندي، دار الانتصار، القاهرة.

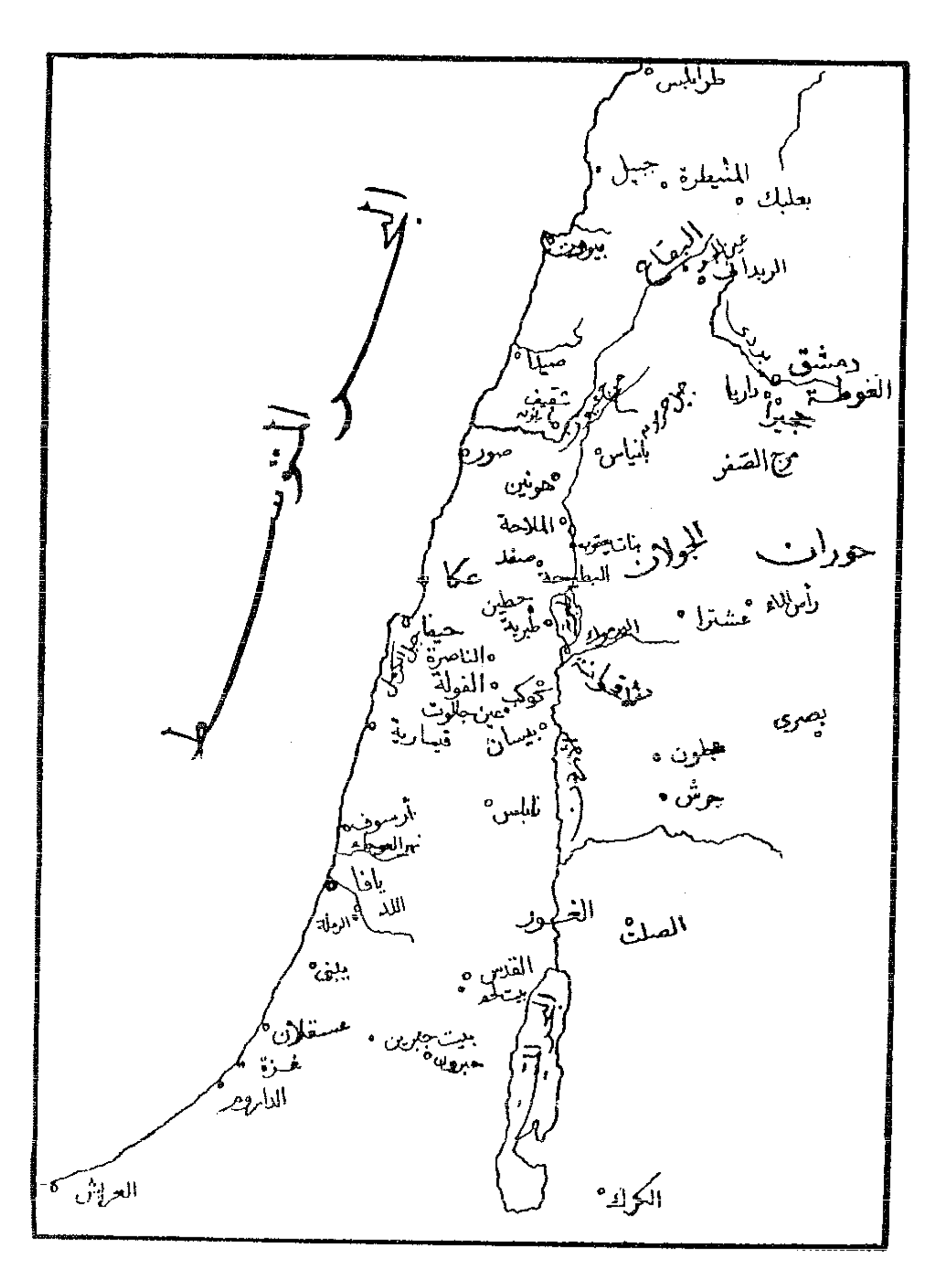
٤٦ ـ النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال، ط ٥، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ١٩٧١.

٤٧ ـ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، بهاء الدين بن شداد، مطبعة الآداب، بمصر ١٣١٧ هـ.

٤٨ ـ وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي. د. محمد ماهر حمادة، مؤسسة الرسالة.



القسم الشمالي من بلاد الشام (عن كتاب الروضتين)



القسم الجنوبي من بلاد الشام (عن كتاب الروضتين)

المحتويات

«تم الكتاب، والحمد لله أولاً وآخراً»